


THE BURKE LIBRARY
5 0396 441


UNION THEOLOGICAL SEMINARY.

كتاب

شرح الطحاوية في العقيدة السلفية

عني بتصحيحها والاشراف على طبعها

لجنة من المشايخ والعلماء تحت رئاسة

العلامة المحقق فضيلة الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ

أمر بطبعه على نفقته وجعله وقفاً لله تعالى

جلالة الملك عبد العزيز آل سعود

ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

أدام الله نصره وتأييده

المطبعة السلفية ومكتبتها

لأصحابها: عبد الفتاح قتلان ومحمد صالح نصيف وشركائهما

بمكة المكرمة «الجياد»

١٣٤٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة النشر

الحمدلله عالم السر والخفيات . المطلع على الضمائر والنيات

(أما بعد) فحيث ان مؤلف هذ الشرح الحافل الجليل . وجامع هذا السفر العديم المثيل . لم يجعل لكتابه المذكور اسماً ولم يذكر اسم نفسه كما هو عادة غالب الشراح والمؤلفين إما تواضعاً منه رحمه الله وهضما لحقوق نفسه ، واما لغير ذلك من المقاصد الحسنة ، وقد نسب الشرح المذكور في عنوان النسخة الخطية التى بأيدينا إلى أحد تلامذة ابن كثير صاحب التفسير بلا تعيين اعتمادا على ماصرح به الشارح نفسه في موضعين او ثلاثة من شرحه حيث يقول : قال شيخنا العماد ابن كثير

فحرصاً على الوقوف على حقيقة الشارح وخدمة للعلم وقياماً بواجبه راجعنا ما في ايدينا من كتب التراجم والفنون فلم نجد ما يمكننا معه الجزم بنسبته لشخص بعينه وانا نثبت هنا أسماء شارحي هذه العقيدة الذين عدهم صاحب « كشف الظنون » وهم سبعة من علماء الاحناف في مختلف الازمان

منهم : محمود بن احمد الحنفي القونوي المتوفي سنة ٧٧٠ صدر شرحه بقوله : حمداً لله المتوحد بكمال صمديته .

ومنهم : المولى ابوعبد الله محمود بن محمد ابن ابي اسحاق الفقيه الحنفي صدر شرحه بقوله : الحمدلله الذي هدانا لهذا .

وهاتان الخطبتان مغايرتان لخطبة الشارح ومنهم: شجاع الدين هبة الله التركستاني المتوفي سنه ٧٣٦ . ومنهم: نجم الدين بكبرس بالتركي المتوفي سنة ٩٥٢ . والقاضي سراج الدين عمر بن اسحاق الهندي الحنفي المتوفي سنة ٧٧٣ . ورتب الاصل على مقدمة، ومهمات، وتتمة وفي مقدمته عشر تنبيهات . ومنهم المولى كافي الحسن البسنوي الاقحصارى المتوفي سنة ١٠٢٥ . وكل هؤلاء كما ترى لا يغلب الظن على احد منهم بانه صاحب هذا الشرح لتباين ما بينهم وبين الشيخ ابن كثير في الزمن والوطن . ولمغايرة صنيعهم في شروحهم لصنيع صاحب الشرح ومنهم: صدر الدين علي بن محمد بن العز الاذرعي الدمشقي الحنفي المتوفي سنة ٧٤٦ وهو الذي يترجح الظن انه الشارح لاتفاقه مع الشيخ ابن كثير في الوقت والبلد والله اعلم

ولما كانت النسخة الخطية لشرح «العقيدة الطحاوية» التي جرى عليها الطبع كثيرة الغلط والتحريف حيث انها لم تصحح ولم يوجد لها اصل صحيح للمقابلة عليه . فقد اعتنى صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ «عبد الله ابن حسن بن حسين آل الشيخ» بتصحيحها . فشكل لجنة من المشائخ وطلبة العلم النجديين والحجازيين لا يقل عددهم عن العشرة، فقرئت على فضيلته بمسمع من المذكورين وصححت بقدر الطاقة والاجتهاد لتتم الفائدة ويعم النفع بها للمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه استعين

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئآت أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً

﴿أما بعد﴾ فانه لما كان علم اصول الدين اشرف العلوم اذ شرف العلم بشرف المعلوم وهو الفقه الاكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ، ولهذا سمى الامام أبو حنيفة رحمه الله تعالى ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين الفقه الاكبر وحاجة العباد اليه فوق كل حاجة وضرورتهم اليه فوق كل ضرورة لانه لاحياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون مع ذلك كله أحب اليها مما سواه ويكون سعيها فيما يقربها اليه دون غيره من سائر خلقه ومن المحال ان تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم ان بعث الرسل به معرفين واليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه [1] باسمائه وصفاته وافعاله إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها ، ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان (أحدهما) تعريف الطريق الموصل اليه وهي شريعته المتضمنة لامره ونهيه (والثاني) تعريف السالكين مالهم بعد الوصول اليه من النعيم المقيم

(١) لو قال معرفة المعبود بإلهيته واسمائه إلخ لكان أحسن

فأعرف الناس بالله عز وجل اتبعهم للطريق الموصل اليه وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه . ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله روحا لتوقف الحياة الحقيقية عليه . ونوراً لتوقف الهداية عليه فقال الله تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وقال تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) ولا روح إلا فيما جاء به الرسول ولا نور إلا في الاستضاء به وهو الشفاء كما قال تعالى (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ) فهو وان كان هدى وشفاء مطلقاً لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنون خصوا بالذكر والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق فلا هدى إلا فيما جاء به ولا ريب أنه يجب على كل احد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملا . ولا ريب أن معرفة ماجاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية فان ذلك داخل في تبليغ مابعث الله به رسوله وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه وعلم الكتاب والحكمة وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي احسن ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين فهو واجب على الكفاية منهم . وأما ما يجب على أعيانهم فهذا يتنوع بتنوع قدرهم[1] وحاجتهم ومعرفتهم وماأمر به أعيانهم ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم أو عن فهم دقيقه مايجب على القادر على ذلك ويجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل مالا يجب على من لم يسمعها . ويجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس

(١) لعله قدرتهم

كذلك . وينبغي أن يعرف ان عامة من ضل في هذا الباب أو عجز فيه عن معرفة الحق فانما هو لتفريطه في اتباع ما جاء به الرسول وترك النظر والاستدلال الموصل الى معرفته . فلما أعرضوا عن كتاب الله ضلوا كما قال تعالى (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) قال ابن عباس : رضي الله عنه تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ان لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ هذه الآية كما في الحديث الذى رواه الترمذي وغيره عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « انها ستكون فتن » قلت فما المخرج منها يارسول الله قال « كتاب الله فيه نبأ ماقبلكم وخبر مابعدكم وحكم مابينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره اضله الله . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا تلتبس به الألسن ولا تنقضي عجائبه ولا تشبع منه العلماء من قال به صدق ومن عمل به اجر ومن حكم به عدل ومن دعا اليه هدى الى صراط مستقيم » الى غير ذلك من الآيات والاحاديث الدالة على مثل هذا المعنى ولا يقبل الله من الاولين والآخرين دينا يدينون به الا ان يكون موافقا لدينه الذي شرعه على السنة رسله وقد نزه الله تعالى نفسه عما يصفه به العباد الا ما وصفه به المرسلون . بقوله سبحانه (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فنزه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ثم سلم على المرسلين لسلامة ماوصفوه به من النقائص والعيوب ثم حمد نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمال الحمد ومضي على ما كان عليه الرسول ﷺ خير

القرون وهم الصحابة والتابعون لهم باحسان يوصي به الأول للآخر ويقتدي فيه اللاحق بالسابق وهم في ذلك كله بنبيهم محمد ﷺ مقتدون وعلى منهاجه سالكون كما قال تعالى في كتابه العزيز (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) فان كان قوله (ومن اتبعني) معطوفا على الضمير في (ادعوا) فهو دليل على ان اتباعه هم الدعاة الى الله وان كان معطوفا على الضمير المنفصل فهو صريح ان اتباعه هم اهل البصيرة فيما جاء به دون غيرهم وكلا المعنيين حق وقد بلغ الرسول ﷺ البلاغ المبين واوضح الحجة للمستبصرين وسلك سبيله خير القرون ثم خلف من بعدهم خلف اتبعوا اهواءهم وافترقوا فاقام الله لهذه الامة من يحفظ عليها اصول دينها كما اخبر الصادق ﷺ «لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم» وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين الامام ابو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي تغمده الله برحمته بعد المائتين فان مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين ووفاته سنة احدى وعشرين وثلاثمائة . فاخبر رحمه الله عما كان عليه السلف ونقل عن الامام ابي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي وصاحبيه ابي يوسف يعقوب بن ابراهيم الحميري الانصاري ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنه ما كانوا يعتقدون من اصول الدين ويدينون به رب العالمين . وكل ما بعد العهد ظهرت البدع وكثر التحريف الذي سماه اهله تأويلا ليقبل وقل من يهتدي الى الفرق بين التحريف والتأويل اذ قد يسمى صرف الكلام عن ظاهره الى معنى آخر يحتمله اللفظ في الجملة تأويلا وان لم يكن ثم قرينة توجب ذلك ومن هنا حصل الفساد فاذا سموه تأويلا قبل وراج على من لا يهتدي الى الفرق بينهما فاحتاج المؤمنون بعد ذلك الى ايضاح الادلة ودفع الشبه الواردة عليها وكثر الكلام

والشغب وسبب ذلك اصغاؤهم الى شبه المبطلين وخوضهم في الكلام المذموم الذى عابه السلف ونهوا عن النظر فيه والاشتغال به والاصغاء اليه امتثالا لامر ربهم حيث قال (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ) فان معنى الآية يشملهم. وكل من التحريف والانحراف على مراتب فقد يكون كفرا وقد يكون فسقا وقد يكون معصية وقد يكون خطأ فالواجب اتباع المرسلين واتباع ما أنزله الله عليهم وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ فجعله آخر الانبياء وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء وانزل عليه الكتاب والحكمة وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين الجن والانس باقية الى يوم القيامة وانقطعت به حجة العباد على الله وقد بين الله به كل شيء واكمل له ولأمته الدين خبرا وامرا (١) وجعل طاعته طاعة له ومعصيته معصية له واقسم بنفسه انهم لا يؤمنون حتى يحكموه فيما شجر بينهم واخبر ان المنافقين يريدون ان يتحاكموا الى غيره وانهم اذا دعوا الى الله والرسول وهو الدعاء الى كتاب الله وسنة رسوله صدوا صدودا وانهم يزعمون انهم انما ارادوا احسانا وتوفيقا كما يقوله كثير من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم انما نريد ان نحسن الاشياء بحقيقتها اي ندركها ونعرفها ونريد التوفيق بين الدلائل التي يسمونها العقليات وهي في الحقيقة جهليات وبين الدلائل النقلية المنقولة عن الرسول. او نريد التوفيق بين الشريعة والفلسفة. وكما يقوله كثير من المبتدعة من المتنسكة والمتصوفة انما نريد الاعمال بالعمل الحسن والتوفيق بين الشريعة وبين مايدعونه من الباطل الذي يسمونه حقائق وهي جهل وضلال. وكما يقوله كثير من المتملكة والمتأثرة انما نريد الاحسان بالسياسة الحسنة

---

(١) قوله خبراً وامراً الخبر هو توحيد الربوبية وتوحيد الاسماء والصفات. والامر هو توحيد الالوهية. انتهى من تقرير شيخنا ووالدنا حسن بن حسين

والتوفيق بينها وبين الشريعة ، ونحو ذلك فكل من طلب ان يحكم في شيء من امر الدين غير ما جاء به الرسول ويظن ان ذلك حسن وان ذلك جمع بين ماجاء به الرسول وبين ما يخالفه فله نصيب من ذلك بل ما جاء به الرسول كاف كامل يدخل فيه كل حق وانما وقع التقصير من كثير من المنتسبين اليه فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الامور الكلامية الاعتقادية ولا في كثير من الاحوال العبادية ولا في كثير من الامارة السياسية اونسبوا الى شريعة الرسول بظنهم وتقليدهم ما ليس منها واخرجوا عنها كثيراً مما هو منها . فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم وَلَبْسِ عدوان اولئك وجهلهم ونفاقهم كثر النفاق ودرس كثير من علم الرسالة بل انما يكون البحث التام والنظر القوي والاجتهاد الكامل فيما جاء به الرسول ﷺ ليعلم ويعتقد ويعمل به ظاهرا وباطنا فيكون قد تلى حق تلاوته وان لا يهمل منه شيء وان كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك أو العمل به فلا ينهي عما عجز عنه مما جاء به الرسول بل حسبه ان يسقط عنه اللوم لعجزه لكن عليه ان يفرح بقيام غيره به ويرضى بذلك ويود ان يكون قائما به وان لا يؤمن ببعضه ويشرك ببعضه بل يؤمن بالكتاب كله وان يصان عن ان يدخل فيه ماليس منه من رواية او رأى اويتبع ماليس من عند الله اعتقادا اوعملا كما قال تعالى (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . وهذه كانت طريقة السابقين الأولين وهي طريقة التابعين لهم باحسان الى يوم القيامة واولهم السلف القديم من التابعين الأولين . ثم من بعدهم ومن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الأمة الوسط بالأمامة . فعن ابي يوسف رحمه الله تعالى انه قال لبشر المريسي العلم بالكلام هو الجهل والجهل بالكلام هو العلم واذا صار

الرجل رأسا في الكلام قيل زنديق او رمي بالزندقة اراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته فان ذلك علم نافع او اراد به الاعراض عنه او ترك الالتفات الى اعتباره فان ذلك يصون علم الرجال وعقله فيكون عليها بهذا الاعتبار والله أعلم . وعنه ايضا انه قال : من طلب العلم بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيميا أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب . وقال الامام الشافعي رحمه الله تعالى حكمي في اهل الكلام ان يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في العشائر والقبائل ويقال هـذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واقبل على الكلام . وقال ايضا رحمه الله تعالى شعرا .

كل العلوم بسوى القرآن مشغلة * الا الحديث والا الفقه في الدين
العلم ما كان فيـه قال حدثنـا * وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر الاصحاب في الفتاوى انه لو اوصي لعلماء بلده لايدخل المتكلمون واوصي انسان ان يوقف من كتبه ماهو من كتب العلم فافتى السلف ان يباع مافيها من كتب الكلام . ذكر ذلك بمعناه في الفتاوي الظهيرية فكيف يرام الوصول الى علم الاصول بغير اتباع ما جاء به الرسول ولقد احسن القائل .

ايهـا المقتـدي ليطلب علمـا * كل عـلم عبد لعـلم الرسول
تطلب الفرع كي تصحح اصلا * كيف اغفلت علم اصل الاصول

ونبينا ﷺ أوتي فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه فبعث بالعلوم الكلية والعلوم الأولية والاخروية على اتم الوجوه ولـكن كل ما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها فلذلك صار كلام المتأخرين كثيرا قليل البركة بخلاف كلام المتقدمين فأنه قليل كثير البركة لا كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلتهم

ان طريقة القوم اسلم وان طريقتنا احكم واعلم ولا كما يقوله من لم يقدرهم من المنتسبين الى الفقه انهم لم يتفرغوا لاستنباط الفقه وضبط قواعده واحكامه اشتغالا منهم بغيره . والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم افقه فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف وعمق علومهم وقلة تكلفهم وكال بصائرهم وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون الا بالتكلف والاشتغال بالاطراف التي كانت همة القوم مراعاة اصولها وضبط قواعدها وشد معاقدها وهممهم مشمرة الى المطالب العالية في كل شيء فالمتأخرون في شان والقوم في شان آخر وقد جعل الله لكل شيء قدرا . وقد شرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء ولكن رأيت بعض الشارحين قد اصغى الى اهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم بعباراتهم والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة كاصطلاح على الفاظ العلوم الصحيحة ولا كرهوا ايضا الدلالة على الحق والمحاجة لاهل الباطل بل كرهوه لاشتماله على امور كاذبة مخالفة للحق ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة . ولهذا لا تجد عند اهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلا عن علمائهم . ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل كثر الكلام وانتشر القيل والقال وتولد لهم عنها من الاقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال . وسيأتي لذلك الكتاب زيادة بيان عند قوله : فمن رام علم ما حظر عنه علمه . وقد احببت ان اشرحها سالكا طريق السلف في عباراتهم وانسج على منوالهم متطفلا عليهم لعلي ان انظم في سلكهم وادخل في عدادهم واحشر في زمرتهم (مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً) . ولما رأيت النفوس مائلة الى الاختصار آثرته على التطويل والاسهاب (وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) وهو حسبنا ونعم الوكيل قوله ﴿نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله ان الله واحد لاشريك له﴾ ش . اعلم ان التوحيد اول دعوة الرسل واول منازل الطريق واول مقام يقوم فيه السالك الى الله قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال هود عليه السلام لقومه (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال صالح عليه السلام لقومه (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال شعيب عليه السلام لقومه (اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ) وقال : ﷺ « أمرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » ولهذا كان الصحيح ان أول واجب يجب على المكلف شهادة ان لا إله إلا الله لا النظر ولا القصد الى النظر ولا الشك كما هي اقوال لارباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كلهم متفقون على ان اول مايؤمر به العبد الشهادتان ومتفقون على ان من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ او ميز عند من يرى ذلك ولم يوجب احد منهم على وليه ان يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين وان كان الاقرار بالشهادتين واجباً باتفاق المسلمين ووجوبه يسبق وجوب الصلاة لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك . وهنا مسائل تكلم فيها الفقهاء كمن صلى ولم يتكلم بالشهادتين أو أتى بغير ذلك من خصائص الاسلام ولم يتكلم بهما هل يصير مسلما أم لا ؟ فالصحيح انه يصير مسلماً بكل ما هو من

خصائص الاسلام فالتوحيد أول ما يدخل في الاسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي ﷺ « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وهو اول واجب وآخر واجب . فالتوحيد أول الامر وآخره اعنى توحيد الالهية فان التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع (احدها) الكلام في الصفات (والثاني) توحيد الربوبية وبيان ان الله وحده خالق كل شيء (والثالث) توحيد الالهية وهو استحقاقه سبحانه وتعالى ان يعبد وحده لاشريك له أما (الاول) فان نفاة الصفات ادخلوا نفي الصفات في مسمى التوحيد كالجهم بن صفوان ومن وافقه فانهم قالوا اثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب وهذا القول معلوم الفساد بالضرورة فان اثبات ذات مجردة عن جميع الصفات لا يتصور لها وجود في الخارج وانما الذهن قد يفرض المحال ويتخيله وهذا غاية التعطيل وهذا القول قد افضى بقوم الى القول بالحلول والاتحاد وهو اقبح من كفر النصارى، فان النصارى خصوه بالمسيح وهؤلاء عموا جميع المخلوقات . ومن فروع هذا التوحيد ان فرعون وقومه كاملو الايمان عارفون بالله على الحقيقة . ومن فروعه ان عباد الاصنام على الحق والصواب وانهم انما عبدوا الله لا غيره . ومن فروعه انه لا فرق في التحريم والتحليل بين الام والاخت والاجنبية ولا فرق بين الماء والخمر والزنا والنكاح الكل من عين واحدة لا بل هو العين الواحدة . ومن فروعه ان الانبياء ضيقوا على الناس تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وأما (الثاني) وهو توحيد الربوبية كالاقرار بانه خالق كل شيء وانه ليس للعالم صانعان متكافيان في الصفات والافعال وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من اهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية . وهذا التوحيد لم

يذهب الى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم بل القلوب مفطورة على الاقرار به اعظم من كونها مفطورة على الاقرار بغيره من الموجودات كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) واشهر من عرف تجاهله وتظاهره بانكار الصانع فرعون وقد كان مستيقنا به في الباطن كما قال موسى (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ) وقال تعالى عنه وعن قومه (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) ولهذا قال: وما رب العالمين على وجه الانكار له تجاهل العارف قال له موسى (رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) وقد زعم طائفة ان فرعون سأل موسى مستفهما عن الماهية وان المسئول عنه لما لم يكن له ماهية عجز موسى عن الجواب وهذا غلط وانما هذا استفهام انكار وجحد كما دل سائر آيات القرآن على ان فرعون كان جاحدا لله نافيا له لم يكن مثبتا له طالبا العلم بماهيته فلهذا بين لهم موسى انه معروف وان آياته ودلائل ربوبيته اظهر واشهر من ان يسأل عنه بما هو بل سبحانه اعرف واظهر وابين من ان يجهل بل معرفته مستقرة في الفطر اعظم من معرفة كل معروف ولم يعرف عن احد من الطوائف انه قال ان العالم له صانعان متماثلان في الصفات والافعال فان الثنوية من المجوس والمانوية القائلين بالاصلين النور والظلمة وان العالم صدر عنهما متفقون على ان النور خير من الظلمة وهو الاله المحمود وان الظلمة شريرة مذمومة وهم متنازعون في الظلمة هل هي قديمة او

محدثة فلم يثبتوا ربين متماثلين . وأما النصارى القائلون بالتثليث فانهم لم يثبتوا العالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض بل متفقون على أن صانع العالم واحد ويقولون باسم الابن والأب وروح القدس اله واحد وقولهم في التثليث متناقض في نفسه وقولهم في الحلول أفسد منه . ولهذا كانوا مضطربين في فهمه وفي التعبير عنه لا يكاد أحد منهم يعبر عنه بمعنى معقول ولا يكاد اثنان يتفقان على معنى واحد فانهم يقولون هو واحد بالذات ، ثلاثة بالاقنوم . و الاقانيم يفسرونها تارة بالخواص وتارة بالصفات وتارة بالاشخاص . وقد فطر الله العباد على فساد هذه الاقوال بعد التصور التام . وبالجملة فهم لا يقولون باثبات خالقين متماثلين . والمقصود هنا انه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين مع ان كثيرا من اهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في اثبات هذا المطلوب وتقريره . ومنهم من اعترف بالعجز عن تقريره هذا بالعقل وزعم انه يلتقي من السمع والمشهور عند اهل النظر اثباته بدليل التمانع وهو انه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل ان يريد احدهما تحريك جسم والآخر تسكينه او يريد احدهما احياءه والآخر اماتته . فاما ان يحصل مرادهما أو مراد احدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما والاول ممتنع لانه يستلزم الجمع بين الضدين . والثالث ممتنع لانه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع ويستلزم ايضا عجز كل منهما والعاجز لا يكون إلها واذا حصل مراد احدهما دون الآخر كان هذا هو الاله القادر والآخر عاجزا لا يصلح للالهية . وتمام الكلام على هذا الاصل معروف في موضعه وكثير من اهل النظر يزعمون ان دليل التمانع هو معنى قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) لاعتقادهم ان

توحيد الربوبية الذي قرروه يظن انه مناسب للكواكب من طباعها ، وشرك قوم ابراهيم عليه السلام كان فيما يقال من هذا الباب وكذلك الشرك بالملائكة والجن واتخاذ الاصنام لهم وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع وانه ليس للعالم صانعان ولكن اتخذوا هذه الوسائط شفعاء كما اخبر عنهم تعالى بقوله (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وكذلك كان حال الامم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل . كما حكي الله تعالى عنهم في قصة صالح عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله اي تحالفوا بالله لنبيتنه واهله فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم واهله وهذا يبين انهم كانوا مؤمنين بالله ايمان المشركين فعلم ان التوحيد المطلوب هو توحيد الالهية الذي يتضمن توحيد الربوبية . قال تعالى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) الى قوله (إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ) . وقال تعالى (أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه » ولا يقال ان معناه يولد ساذجا لا يعرف توحيدا ولا شركا كما قاله بعضهم لما تلوناولقوله ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل « خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين » ـ الحديث . وفي الحديث المتقدم ما يدل على ذلك حيث قال يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ولم يقل ويسلمانه وفي رواية يولد على الملة وفي اخرى على هذه الملة وهذا الذى اخبر به ﷺ هو الذى تشهد الادلة العقلية بصدقه منها ان يقال لا ريب ان الانسان

قد يحصل له من الاعتقادات والارادات ما يكون حقا وتارة ما يكون باطلا وهو حساس متحرك بالارادات ولا بد له من احدهما ولا بد له من مرجح لاحدهما ونعلم انه اذا عرض على كل احد ان يصدق وينتفع وان يكذب وينظر مال بفطرته الى ان يصدق وينتفع . وحينئذ فالاعتراف بوجود الصانع والايمان به هو الحق او نقيضه والثاني فاسد قطعا فتعين الأول فوجب ان يكون في الفطرة مايقتضي معرفة الصانع والايمان به وبعد ذلك اما ان يكون محبته انفع للعبد اولا . والثاني فاسد قطعا فوجب ان يكون في فطرته محبة ما ينفعه ومنها انه مفطور على جلب المنافع ودفع المضار بحسبه . وحينئذ لم تكن فطرة كل احد تستقل بتحصيل ذلك بل تحتاج الى سبب معين للفطرة كالتعليم ونحوه فاذا وجد الشرط وانتفى المانع استجابت لما فيها من المقتضي لذلك .

ومنها ان يقال من المعلوم ان كل نفس قابلة للعلم وارادة الحق ومجرد التعليم والتحضيض لايوجب العلم والارادة لولا ان فى النفس قوة تقبل ذلك والا فلو علم الجهال والبهائم وحضضا لم يقبلا . ومعلوم ان حصول اقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج ويكون الذات كافية في ذلك فاذا كان المقتضي قائما في النفس وقدر عدم المعارض فالمقتضي السالم عن المعارض يوجب مقتضاه فعلم ان الفطرة السليمة اذا لم يحصل لها من يفسدها كانت مقرة بالصانع عابدة له . ومنها ان يقال انه اذا لم يحصل المفسد الخارج ولا المصلح الخارج كانت الفطرة مقتضية للصلاح لأن المقتضى فيها للعلم والارادة قائم والمانع منتف . ويحكى عن ابى حنيفة رحمه الله ان قوما من اهل الكلام ارادوا البحث معه في تقرير توحيد الربوبية فقال لهم اخبروني قبل ان نتكلم

في هذه المسئلة عن سفينة في دجـله تذهب فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها وتعود بنفسها فترسي بنفسها وتفرغ وترجع كل ذلك من غير ان يدبرها احد فقالوا هذا محال لا يمكن ابدا فقال لهم اذا كان هـذا محالا فى سفينة فكيف في هذا العالم كله علوه وسفله . وتحكى هذه الحكاية ايضا عن غير ابى حنيفة فلو اقر الرجل بتوحيد الربوبيـة االذي يقر به هؤلاء النظار ويفنى فيه كثير من اهل التصوف ويجعلونه غاية السالكين كما ذكره صاحب منازل السائرين وغيره وهو مع ذلك ان لم يعبد الله وحده ويتبرأ من عبادة ماسواه كان مشركا من جنس امثاله من المشركين . والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الامثال له . ومن ذلك انه يقرر توحيد الربوبية ويبين انه لاخالق الا الله وان ذلك مستلزم ان لا يعبد الا الله فيجعل الاول دليلا على الثاني اذ كانوا يسلمون الأول وينازعون في الثاني فيبين لهم سبحانه انـكم اذا كنتم تعلمون انه لاخالق الا الله وحده وانه هو الذي ياتي العباد بما ينفعهم ويدفع عنهم مايضرهم لاشريك له فى ذلك فلم تعبدون غيره وتجعلون معه آلهة اخرى كقوله تعالى (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) الآيات . يقول الله تعالى في آخر كل آية (أَإِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ) اي آله مع الله فعل هذا وهذا استفهام انكار يتضمن نفي ذلك وهم كانوا مقرين بانه لم يفعل ذلك غير الله فاحتج عليهم بذلك وليس المعنى انه استفهام هل مع الله آله كما ظنه بعضهم لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام والقوم كانوا يجعلون مع الله

آلهة اخرى كما قال تعالى (أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ) وكانوا يقولون (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) وكانوا يقولون معه إله (أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً) بل هم مقرون بأن الله وحده فعل هذا وهكذا سائر الآيات وكذلك قوله تعالى (يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) وكذلك قوله في سورة الانعام (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ) وامثال ذلك . واذا كان توحيد الربوبية الذي يجعله هؤلاء النظار ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية في التوحيد داخلا في التوحيد الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب فليعلم ان دلائله متعددة كدلائل اثبات الصانع ودلائل صدق الرسول فان العلم كلما كان الناس اليه احوج كانت ادلته اظهر رحمة من الله بخلقه . والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كل مثل وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل فماذا بعد الحق الا الضلال وما كان من المقدمات معلومة ضرورية متفقا عليها استدل بها ولم يحتج الى الاستدلال عليها والطريقة الفصيحة في البيان ان تحذف وهي طريقة القرآن بخلاف مايدعيه الجهال الذين يظنون ان القرآن ليس فيه طريقة برهانية بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع فانه يبينه ويدل عليه ولما كان الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار اثبات خالقين متماثلين فى الصفات والأفعال وإنما ذهب بعض المشركين الى ان ثم خالق خلق بعض العالم كما يقوله الثنوية في الظلمة وكما يقوله القدرية في افعال الحيوان وكما يقوله الفلاسفة الدهرية في حركة

الافلاك او حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية فان هؤلاء يثبتون أمورا محدثة بدون احداث الله اياها فهم مشركون في بعض الربوبية وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئاً من نفع اوضر بدون ان يخلق الله ذلك فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجودا في الناس بين القرآن بطلانه كما في قوله تعالى (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ) فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز الظاهر فان الاله الحق لابد ان يكون خالقا فاعلا يوصل الى عابده النفع ويدفع عنه الضر فلو كان معه سبحانه اله آخر يشركه في ملكه لكان له خلق وفعل. وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة بل ان قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والالهية دونه فعل وان لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه اذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه فلابد من احد ثلاثة أمور: اما ان يذهب كل اله بخلقه وسلطانه. واما ان يعلو بعضهم على بعض. واما ان يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه بل يكون وحده هو الاله وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه. وانتظام امر العالم كله واحكام امره من ادل دليل على ان مدبره اله واحد وملك واحد ورب واحد لا اله للخلق غيره ولا رب لهم سواه كما قد دل دليل التمانع على ان خالق العالم واحد لا رب غيره ولا إله سواه فذلك تمانع في الفعل والايجاد وهذا تمانع في العبادة والالهية فكما يستحيل ان يكون للعالم ربان خالقان متكافيان كذلك يستحيل ان يكون لهم إلهان معبودان. فالعلم بان وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته مستقر

في الفطرة معلوم بصريح العقل بطلانه فكذا تبطل إلهية اثنين فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الالهية . وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) وقد ظن طوائف ان هذا دليل التمانع الذي تقدم ذكره وهو انه لو كان للعالم صانعان الخ . وغفلوا عن مضمون الآية فانه سبحانه أخبر انه لو كان فيهما آلهة غيره ولم يقل ارباب وايضا فان هذا انما هو بعد وجودهما وانه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا ، وايضا فانه قال لفسدتا وهذا فساد بعد الوجود ولم يقل لم يوجدا ودلت الآية على انه لا يجوز ان يكون فيهما آلهة متعددة بل لا يكون الا اله الا واحدا وعلى انه لا يجوز ان يكون هذا الا له الواحد الا الله سبحانه وتعالى وان فساد السموات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة ومن كون الا له الواحد غير الله وانه لا صلاح لهما الا بان يكون الا له فيهما هو الله وحده لا غيره فلو كان للعالم إلهان معبودان لفسد نظامه كله فان قيامه انما هو بالعدل وبه قامت السماوات والارض . وأظلم الظلم على الاطلاق الشرك وأعدل العدل التوحيد (١) وتوحيد الالهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس فمن لا يقدر على ان يخلق يكون عاجزا والعاجز لا يصلح ان يكون إلهاً قال تعالى (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ) وقال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ

---

(١) قوله و توحيد الالوهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس وقد تقدم من كلامه أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الالوهية فالمعنى أن الاستلزام غير التضمن فمن لازم الاقرار بتوحيد الربوبية وان الله هو الذى تفرد بالخلق والرزق والاحياء والاماتة الاقرار بتوحيد الالوهية وانه هو المعبود ، المرجو المسئول وحده دون من سواه ، وأما التضمن فلا يقال ان الاقرار بتوحيد الربوبية يتضمن توحيد الالوهية لا بالعكس . انتهى من تقرير شيخنا ووالدنا حسن بن حسين .

لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً) وفيها للمتأخرين قولان (احدهما) لاتخذوا سبيلا الى مغالبته (والثاني) وهو الصحيح المنقول عن السلف كقتادة وغيره وهو الذي ذكره ابن جرير لم يذكر غيره لاتخذوا سبيلا بالتقرب اليه كقوله تعالى (إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) وذلك انه قال : لو كان معه آلهة كما يقولون وهم يقولون ان العالم له صانعان بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء وقالوا مانعبدهم إلا ليقربونا الى الله زلفى بخلاف الآية الاولى

أنواع التوحيد الذي دعت اليه الرسل

ثم التوحيد الذي دعت اليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد في الاثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد (فالاول) هو اثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وافعاله واسمائه ليس كمثله شيء في ذلك كله كما اخبر به عن نفسه وكما اخبر رسوله ﷺ وقد افصح القرآن عن هذا النوع كل الافصاح كما في أول الحديد وطه وآخر الحشر واول الم تنزيل السجدة وأول آل عمران وسورة الاخلاص بكمالها وغير ذلك (والثاني) وهو توحيد الطلب والقصد مثل ما تضمنه سورة (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . وَقُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها وأول سورة يونس واوسطها وآخرها وأول سورة الاعراف وآخرها وجملة سورة الانعام . وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد بل كل سورة في القرآن . فان القرآن أما خبر عن الله واسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري . واما دعوة الى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد

من دونه فهو التوحيد الارادي الطلبي . واما امر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته . واما خبر عن اكرامه لاهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا ومايكرمهم به في الآخرة وهو جزاء توحيده . واما خبر عن اهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال ومافعل[1] بهم في العقبى من العذاب فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد . فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم . فالحمد لله رب العالمين توحيد الرحمن الرحيم توحيد اهدنا الصراط المستقيم توحيد متضمن لسؤال الهداية الى طريق اهل التوحيد الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد . وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وانبياؤه ورسله قال تعالى (شَهِدَ اللهُ أنَّهُ لاَ إِلَهَ إلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ) فتضمنت هذه الآية الكريمة اثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع طوائف الضلال فتضمنت أجل شهادة واعظمها واعدلها واصدقها من اجل شاهد بأجل مشهود به . وعبارات السلف في شهد تدور على الحكم والقضاء والاعلام والبيان والاخبار وهذه الاقوال كلها حق لا تنافي بينها ، فان الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره وتتضمن اعلامه واخباره وبيانه فلها اربع مراتب: (فأول مراتبها) علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته . (وثانيها) تكلمه بذلك وان لم يعلم به غيره بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها او يكتبها . (وثالثها) ان يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له (ورابعها) ان يلزمه بمضمونها ويأمره به فشهادة

(١) لعله وما يفعله

الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الاربع علمه بذلك سبحانه وتكلمه به واعلامه واخباره لخلقه به وامرهم والزامهم به .

فاما مرتبة العلم فان الشهادة تضمنتها ضرورة والا كان الشاهد شاهدا بما لا علم له به قال تعالى (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) . وقال ﷺ « على مثلها فاشهد » واشار الى الشمس واما مرتبة التكلم والخبر فقال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) فجعل ذلك منهم شهادة وان لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يؤدوها عند غيرهم .

واما مرتبة الاعلام والاخبار فنوعان : اعلام بالقول . واعلام بالفعل وهذا شأن كل معلم لغيره بامر تارة يعلمه به بقول وتارة بفعل . ولهذا كان من جعل داره مسجدا وفتح بابها وابرزها بطريقها واذن للناس بالدخول والصلاة فيها معلما انها وقف وان لم يتلفظ به وكذلك من وجد متقربا الى غيره بانواع المسار يكون معلما له ولغيره انه يحبه وان لم يتلفظ بقوله وكذلك بالعكس وكذلك شهادة الرب عز وجل وبيانه واعلامه يكون بقوله تارة وبفعله اخرى فالقول ما ارسل به رسله وانزل به كتبه . واما بيانه واعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان شهد الله بتدبيره العجيب واموره المحكمة عند خلقه انه لا إله إلا هو وقال آخر

وفي كل شيء له آية * تدل على انه واحد

ومما يدل على ان الشهادة تكون بالفعل قوله تعالى (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ) فهذه شهادة منهم على انفسهم بما يفعلونه . والمقصود انه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه ودلالتها انما هي بخلقه وجعله . واما مرتبة الأمر بذلك والالزام به وان مجرد الشهادة

لا يستلزمه لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه فانه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وامر والزم عباده به كما قال تعالى (وَقَضَى رَبُّكَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الأَ إِيَّاهُ) وقال الله تعالى (لاَ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ) وقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ — وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلٰهاً وَاحِداً) وقال تعالى (لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ) وقال تعالى (وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ) والقرآن كله شاهد بذلك ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك انه اذا شهد انه لا إله إلا هو فقد اخبر ونبأ واعلم وحكم وقضى ان ما سواه ليس باله وان الهية ما سواه باطلة فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الالهية لغيره وذلك يستلزم الامر باتخاذه وحده الهاً والنهي عن اتخاذ غيره معه الهاً وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والاثبات كما اذا رأيت رجلا يستفتي رجلا او يستشهده او يستطبه وهو ليس أهلا لذلك ويدع من هو اهل له فتقول هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب. المفتي فلان والشاهد فلان والطبيب فلان فان هذا أمر منه ونهي. وايضا فالآية دلت على انه وحده المستحق العبادة فاذا اخبر انه هو وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الاخبار امر العباد والزامهم باداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم وان القيام بذلك هو خالص حقه عليهم وايضا فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجملة الخبرية ويقال للجملة الخبرية قضية وحكم وقد حكم فيها بكذا قال تعالى (أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ — أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فجعل هذا الاخبار المجرد منهم حكما وقال تعالى (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) لكن هذا حكم لا الزام معه والحكم والقضاء بأنه لا اله إلا هو متضمن الالزام ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها ولم ينتفعوا بها ولم تقم عليهم بها الحجة

بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به كما ان الشاهد من العباد
اذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها لم ينتفع بها احد ولم تقم بها حجة
واذا كان لا ينتفع بها الا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة:
السمع، والبصر، والعقل. اما السمع فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرفنا اياه من
صفات كماله كلها الوحدانية وغيرها غاية البيان لا كما يزعمه الجهمية ومن وافقهم
من المعتزلة ومعطلة بعض الصفات من دعوى احتمالات توقع في الحيرة تنافي
البيان الذى وصف الله به كتابه العزيز ورسوله الكريم كما قال تعالى (حمٓ
وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ — الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ — الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ
وَقُرْآنٍ مُبِينٍ — هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ — فَاعْلَمُوا أَنَّمَا
عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ — وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ
وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وكذلك السنة تأتي مبينة ومقررة لما دل عليه القرآن لم
يحوجنا ربنا سبحانه وتعالى الى رأي فلان ولا الى ذوق فلان ووجده في اصول
ديننا ولهذا تجد من خالف الكتاب والسنة مختلفين مضطربين. بل قد قال تعالى
(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ
الْإِسْلَامَ دِينًا) فلا يحتاج في تكميله الى امر خارج عن الكتاب والسنة. والى
هذا المعنى اشار الشيخ ابو جعفر الطحاوي فيما يأتي من كلامه بقوله لا ندخل في
ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين باهوائنا فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز
وجل ولرسوله ﷺ. وأما آياته العيانية الخلقية فالنظر فيها والاستدلال بها يدل
على ما تدل عليه آياته القولية السمعية والعقل يجمع بين هذه وهذه فيجزم بصحة
ما جاءت به الرسل فتتفق شهادة السمع والبصر والعقل والفطرة فهو سبحانه
لكمال عدله ورحمته واحسانه وحكمته ومحبته للعذر واقامة الحجة لم يبعث نبيا

الا ومعه آية تدل على صدقه فيما اخبر به قال تعالى (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ) وقال تعالى (قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ) وقال تعالى (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) وقال تعالى (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ) حتى ان من اخفى آيات الرسل آيات هود حتى قال له قومه ياهود ماجئتنا ببينة ومع هذا فبينته من اوضح البينات لمن وفقه الله لتدبرها وقد اشار اليه بقوله (إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهذا من اعظم الآيات ان رجلا واحدا يخاطب امة عظيمة بهذا الخطاب غير جزع ولا فزع ولا خوار بل هو واثق بما قاله جازم به فأشهد الله اولا على براءته من دينهم وماهم عليه إشهاد واثق به معتمد عليه معلم لقومه أنه وليه وناصره وغير مسلط لهم عليه ثم اشهدهم اشهاد مجاهر لهم بالمخالفة انه برىء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليها ويعادون عليها ويبذلون دماءهم واموالهم في نصرتهم لها ثم اكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم واحتقارهم وازدرائهم و[1] لو يجتمعون كلهم على كيده وشفى غيظهم منه ثم يعاجلونه ولا يمهلونه لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه ثم قرر دعوتهم أحسن تقرير وبين ان ربه تعالى وربهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده وانه على صراط مستقيم فلا يخذل من توكل عليه وأقر به ولا يشمت به اعداءه

(١) لعله وانهم

فأي آية وبرهان احسن من آيات الانبياء وبراهينهم وأدلتهم وهي شهادة من الله سبحانه بينها لعباده غاية البيان . ومن اسمائه تعالى المؤمن وهو في احد التفسيرين المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم فانه لابد ان يرى العباد من الآيات الافقية والنفسية ما يبين لهم ان الوحى الذي بلغه رسله حق . قال تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) اي القرآن فانه المتقدم في قوله (قُلْ أَرَأَيْتُمْ انْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ) ثم قال (أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فشهد سبحانه لرسوله بقوله ان ما جاء به حق ووعد انه يرى العباد من آياته الفعلية الخلقية مايشهد بذلك ايضا ثم ذكر ما هو اعظم من ذلك كله واجل وهو شهادته سبحانه بانه على كل شيء شهيد فان من اسمائه الشهيد الذي لايغيب عنه شيء ولايعزب عنه بل هو مطلع على كل شيء مشاهدله عليم بتفاصيله وهذا استدلال باسمائه وصفاته والاول استدلال بقوله وكلماته واستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بافعاله ومخلوقاته (فان قلت) كيف يستدل باسمائه وصفاته فان الاستدلال بذلك لا يعهد في الاصطلاح (فالجواب) ان الله تعالى قد اودع في الفطرة التى لم تتنجس بالجحود والتعطيل ولا بالتشبيه والتمثيل انه سبحانه الكامل في اسمائه وصفاته وانه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله وماخفي عن الخلق من كماله اعظم واعظم مما عرفوه منه ومن كماله المقدس شهادته على كل شيء واطلاعه عليه بحيث لايغيب عنه ذرة فى السموات ولافي الارض باطنا وظاهرا ومن هذا شأنه كيف يليق بالعباد ان يشركوا به وان يعبدوا غيره ويجعلوا معه إلهاً آخر وكيف يليق بكماله ان يقر من يكذب عليه اعظم الكذب ويخبر عنه بخلاف ماالأمر عليه ثم ينصره على ذلك ويؤيده ويعلي شأنه ويجيب دعوته

ويهلك عدوه ويظهر على دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر . ومعلوم ان شهادته سبحانه على كل شيء وقدرته وحكمته وعزته وكماله المقدس يابي ذلك ومن جوز ذلك فهو من ابعد الناس عن معرفته والقرآن مملوء من هذه الطريق وهي طريق الخواص يستدلون بالله على افعاله ومايليق به ان يفعله ولا يفعله قال تعالى (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) . وسيأتي لذلك زيادة بيان ان شاء الله . ويستدل ايضا باسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بطلان الشرك كما في قوله تعالى (هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) واضعاف ذلك في القرآن وهذه الطريق قليل سالكها لا يهتدي اليها الا الخواص وطريقة الجمهور الاستدلال بالآيات الشاهدة لانها اسهل تناولا واوسع والله سبحانه يفضل بعض خلقه على بعض فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه مالم يجتمع في غيره فانه الدليل والمدلول عليه والشاهد والمشهود له قال تعالى لمن طلب آية تدل على صدق رسوله (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الآيات . واذا عرف ان توحيد الالهية هو التوحيد الذى ارسلت به الرسل وانزلت به الكتب كما تقدمت اليه الاشارة . فلا يلتفت الى قول من قسم التوحيد الى ثلاثة انواع وجعل هذا النوع توحيد العامة . والنوع الثاني توحيد الخاصة وهو الذي يثبت بالحقائق . والنوع الثالث توحيد قائم بالقدم وهو توحيد خاصة الخاصة فان اكمل الناس توحيداً الانبياء صلوات الله عليهم

والمرسلون منهم اكمل في ذلك . وأولوا العزم من الرسل اكملهم توحيدا وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم اجمعين وا كملهم توحيدا الخليلان محمد وابراهيم صلوات الله عليهما وسلامه فانهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما علما ومعرفة وحالا ودعوة الخلق وجهادا فلا توحيد اكمل من الذي قامت به الرسل ودعوا اليه وجاهدوا الأمم عليه . ولهذا امر سبحانه نبيه ان يقتدي بهم فيه كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة ابراهيم قومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الانبياء من ذريته (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) فلا اكمل من توحيد من امر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم وكان ﷺ يعلم اصحابه اذا اصبحوا أن يقولوا : اصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد وملة ابينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين فملة ابراهيم التوحيد ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا وكلمة الاخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله وفطرة الاسلام هي مافطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلا وانقيادا وإنابة فهذا توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء قال تعالى (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) وكل من له حس سليم وعقل يميز به لا يحتاج في الاستدلال الى اوضاع اهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة بل ربما يقع بسببها في شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة بالضلال والريبة فان التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك وهذا هو القلب السليم الذي لا يصلح الامن أتى

الله به ولاشك أن النوع الثاني والثالث من التوحيد الذي ادعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة ينتهي اي الى الفناء الذي يشمر اليه غالب الصوفية وهو درب خطر يفضي الى الاتحاد . الى ما انشد شيخ الاسلام ابو اسماعيل رحمه الله تعالى حيث يقول شعرا

ما وحد الواحد من واحد * إذ كل من وحده جاحد

توحيد من عن نعته ينطق * عارية ابطلها الواحد

توحيده إياه توحيده * ونعت من ينعته لاحد

وان كان قائله رحمه الله لم يرد به الاتحاد لكن ذكر لفظاً مجملا محتملا جذبه به الاتحادي اليه واقسم بالله جهد ايمانه انه معه وعليه لو سلك الالفاظ الشرعية التي لا اجمال فيها كان احق مع ان المعنى الذي حام حوله لو كان مطلوبا منا لنبه الشارع عليه ودعا الناس اليه وبينه فان على الرسول البلاغ المبين فاين قال الرسول هذا توحيد العامة وهذا توحيد الخاصة وهذا توحيد خاصة الخاصة أوما يقرب من هذا المعنى أواشار الى هذه النقول والعقول خطرة فهذا كلام الله المنزل على رسوله ﷺ وهذه سنة الرسول وهذا كلام خير القرون بعد الرسول وسادات العارفين من الائمة هل جاء ذكر الفناء وهذا التقسيم عن احد منهم وانما حصل هذا من زيادة الغلو في الدين المشبه لغلو الخوارج بل لغلو النصارى في دينهم . وقد ذم الله تعالى الغلو في الدين ونهى عنه فقال (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) وقال ﷺ «لا تشددوا فيشدد الله عليكم فان من كان قبلكم شددوا فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات

رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » رواه ابو داود قوله ﴿ ولا شيء مثله ﴾

اتفق اهل السنة على ان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من ان خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته ليس كمثله شيء رد على الممثلة المشبهة وهو السميع البصير رد على النفاة المعطلة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم ويراد به انه لا يثبت لله شيء من الصفات فلا يقال له قدرة ولا علم ولا حياة لان العبد موصوف بهذه الصفات ولازم هذا القول انه لا يقال له حي عليم ، قدير ، لان العبد يسمى بهذه الاسماء وكذلك كلامه وسمعه وبصره وارادته وغير ذلك وهم يوافقون اهل السنة على انه موجود عليم ، قدير حي والمخلوق يقال له موجود حي عليم قدير ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل ولا يخالف فيه عاقل فان الله مسمي نفسه باسماء وسمى بعض عباده بها وكذلك سمى صفاته باسماء وسمى ببعضها صفات خلقه وليس المسمى كالمسمى فسمى نفسه حيا عليما قديرا رؤوفا رحيما عزيزا حكيما سميعا بصيرا ملكا مؤمنا جبارا متكبرا وقد سمى بعض عباده بهذه الاسماء فقال (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ - وَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ - حَلِيمٍ . بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ - فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ - وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ - أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً - كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) ومعلوم انه لا يماثل

الحي الحي ولا العليم العليم ، ولا العزيز العزيز وكذلك سائر الاسماء وقال تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ . أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ . وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ . إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وعن جابر رضي الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الامور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول اذا هم احدكم بالامر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم اني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تعلم ولا اعلم وتقدر ولا اقدر وانت علام الغيوب اللهم ان كنت تعلم ان هذا الامر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة امري او قال عاجل امري وآجله فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وان كنت تعلم ان هذا الامر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة امرى او قال عاجل امري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به قال ويسمي حاجته » رواه البخاري وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره عن النبي ﷺ انه كان يدعو بهذا الدعاء « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم اني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الغنا والفقر وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضا وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين » فقد سمى الله ورسوله صفات الله علما وقدرة وقوة وقال تعالى (ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً . وَإِنَّهُ لَذُو

عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) ومعلوم انه ليس العلم كالعلم ولا القوة كالقوة ونظائر هذا كثيرة وهذا لازم لجميع العقلاء فان من نفى صفة من صفاته التي وصف الله بها نفسه كالرضا والغضب والحب والبغض ونحو ذلك وزعم ان ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم (قيل له) فانت تثبت له الارادة والكلام والسمع والبصر مع ان ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين فقل فيما نفيته واثبته الله ورسوله مثل قولك فيما اثبته إذ لا فرق بينهما فان قال: أنا لا أثبت شيئاً من الصفات قيل له: فانت تثبت له الأسماء الحسنى مثل حي، عليم، قدير. والعبد يسمى بهذه الاسماء وليس ما يثبت للرب من هذه الاسماء مماثلا لما يثبت للعبد فقل في صفاته نظير قولك في مسمى اسمائه (فان قال) وانا لا اثبت له الاسماء الحسنى بل أقول هي مجاز وهي اسماء لبعض مبتدعاته كقول غلاة الباطنية والمتفلسفة (قيل له) فلا بد ان تعتقد انه موجود [1] حق قائم بنفسه والجسم موجود قائم بنفسه وليس هو مماثلا له (فان قال) انا لا اثبت شيئاً بل انكر وجود الواجب (قيل له) معلوم بصريح العقل ان الموجود إما واجب بنفسه واما غير واجب بنفسه واما قديم أزلي وأما حادث كائن بعد ان لم يكن واما مخلوق مفتقر الى خالق واما غير مخلوق ولا مفتقر الى خالق وأما فقير الى ما سواه واما غني عما سواه وغير الواجب بنفسه لا يكون الا بالواجب بنفسه والحادث لا يكون الا بقديم والمخلوق لا يكون الا بخالق والفقير لا يكون الا بغني عنه فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق غني عما سواه وما سواه بخلاف ذلك. وقد علم بالحس والضرورة

(١) لعله حي

وجود موجود حادث كائن بعد ان لم يكن والحادث لا يكون واجباً بنفسه ولا قديماً أزلياً ولا خالقاً لماسواه ولا غنياً عماسواه، فثبت بالضرورة وجود موجودين احدهما واجب والاخر ممكن، احدهما قديم والآخر حادث احدهما غني والآخر فقير، احدهما خالق والآخر مخلوق وهما متفقان في كون كل منهما شيئاموجودا ثابتاً . ومن المعلوم ايضاً ان احدهما ليس مماثلاللآخر في حقيقته اذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع واحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه والآخر لا يجب قدمه ولاهو موجود بنفسه واحدهما خالق والآخر ليس بخالق واحدهما غني عما سواه والآخر فقير فلو تماثلا للزم ان يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم موجودا بنفسه غير موجود بنفسه خالقا ليس بخالق غنيا غير غني فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثلهما فعلم ان تماثلهما منتف بصريح العقل كما هو منتف بنصوص الشرع فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفي ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا للباطل ومن جعلهما متماثاين كان مشبها قائلا للباطل والله أعلم . وذلك لانهما وان اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته والعبد لا يشركه في شيء من ذلك والعبد ايضا مختص بوجوده وعلمه وقدرته والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه واذا اتفقا في مسمى الوجود والعلم والقدرة فهذا الشترك مطلق كلي يوجد في الاذهان لا في الاعيان والموجود في الاعيان مختص لا اشتراك فيه وهذا موضع اضطرب فيه كثير من النظار حيث توهموا انا الاتفاق في مسمى هذه الاشياء يوجب ان يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد

وطائفة ظنت ان لفظ الوجود يقال بالاشتراك اللفظي وكابروا عقولهم فان
هـذه الاسماء عامة قابلة للتقسيم كما يقال الموجود ينقسم الى واجب وممكن
وقديم وحادث ومورد التقسيم مشترك بين الاقسام واللفظ المشترك كلفظ
المشتري الواقع على المبتاع والكوكب لا ينقسم معناه ولكن يقال لفظ
المشتري يقال على كذا أو على كذا . ومثال هذه المقالات التي قد بسط الكلام
عليها في موضعه واصل الخطأ والغلط توهمهم ان هـذه الاسماء العامة الكلية
يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المعين وهذا المعين وليس
كذلك فان ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقا كليا بل لا يوجد الا معينا مختصا
وهذه الاسماء اذا سمي الله بها كان مسماها مختصا به فاذا سمى بها العبد كان مسماها
مختصا به فوجود الله وحياته لا يشاركه فيها غيره بل وجود هذا الوجود المعين
لا يشركه فيه غيره فكيف بوجود الخالق الا ترى انك تقول هذا هو ذاك
فالمشار اليه واحد لكن بوجهين مختلفين وبهذا ومثله يتبين لك ان المشبهة
اخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا وان المعطلة اخذوا نفي المماثلة
بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا . وان كتاب الله دل على
الحق المحض الذى تعقله العقول السليمة الصحيحة وهو الحق المعتدل الذي
لا انحراف فيه فالنفاة احسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من
خلقه ولكن اساؤا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى في نفس الامر . والمشبهة
احسنوا في اثبات الصفات ولكن اساؤا بزيادة التشبيه . واعلم ان المخاطب
لايفهم المعاني المعبر عنها باللفظ الا ان يعرف عينها اوما يناسب عينها ويكون
بينهما قدر مشترك ومشابهة في اصل المعنى والا فلا يمكن تفهيم المخاطبين

بدون هذا قط حتى في اول تعليم معاني الكلام بتعليم معاني الالفاظ المفردة مثل تربية الصبي الذي يُعلم البيان واللغة ينطق له بلفظ المفرد له ويشار له الى معناه ان كان مشهودا بالاحساس الظاهر والباطن فيقال له لبن ، خبز ، ام ، اب ، سماء ، ارض ، شمس ، قمر ، ماء ، ويشار له مع العبارة الى كل مسمى من هذه المسميات والا لم يفهم معنى اللفظ ومراد الناطق به وليس احد من بني آدم يستغنى عن التعليم السمعي كيف وآدم ابو البشر اول ما علمه الله تعالى اصول الادلة السمعية وهي الاسماء كلها وكلمه وعلمه بخطاب الوحي ما لم يعلمه بمجرد العقل فدلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم واراده وارادته وعنايته في قلبه ولايعرف باللفظ ابتداء ولكن لا يعرف المعنى بغير اللفظ حتى يعلم اولا ان هذا المعنى المراد هو الذي يراد بذلك اللفظ ويعنى به فاذا عرف ذلك ثم سمع اللفظ مرة ثانية عرف المعني المراد بلااشارة اليه وان كانت الاشارة الى ما يحس بالباطن مثل الجوع والشبع والري والعطش والحزن والفرح فانه لايعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه فاذا وجده استنزله اليه وعرف ان اسمه كذا والاشارة تارة تكون الى جوع نفسه او عطش نفسه مثل ان يراه انه قدجاع فيقول له جعت انت جائع فيسمع اللفظ ويعلم ما عينه بالاشارة اوما يجري مجراها من القرائن التى تعين المراد مثل نظر امه اليه في حال جوعه وادراكه ينظرها او نحوه انها تعني جوعه اويسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره اذا عرف ذلك فالمخاطب المتكلم اذا اراد بيان معان فلا يخلو اما ان يكون مما ادركها المخاطب المستمع باحساسه وشهوده او بمعقوله واما لايكون كذلك فان كانت من القسمين الاولين لم تحتج الا الى معرفة

اللغة بان يكون قد عرف معاني الالفاظ المفردة ومعني التركيب فاذا قيل له بعد ذلك (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ) اوقيل له (وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ونحو ذلك فهم المخاطب بما ادركه بحسه وان كانت المعاني التى يراد تعريفه بها ليست مما احسه وشهده بعينه ولا بحيث صار له معقول كلي يتناولها حتى يفهم به المراد بتلك الالفاظ بل هي مما يدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة ولا بد في تعريفه من طريق القياس والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التى شاهدها من التشابه والتناسب وكلما كان التمثيل اقوى كان البيان احسن والفهم اكمل . فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لما بين لنا امورا لم تكن معروفة قبل ذلك وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها اتى بالفاظ تناسب معانيها تلك المعاني وجعلها اسماء لها فيكون بينهما قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصوم والايمان والكفر وكذلك لما خبرنا بأمور تتعلق بالايمان بالله واليوم الآخر وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم الفاظ تدل عليها بعينها اخذ من اللغة الالفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية والمعاني الشهودية التى كانوا يعرفونها وقرن بذلك من الاشارة ونحوها مايعلم به حقيقة المراد كتعليم الصبي كما قال ربيعة بن ابي عبدالرحمن الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم . واما ما يخبر به الرسول من الامور الغائبة فقد يكون مما ادركوا نظره بحسهم وعقلهم كاخبارهم بان الريح اهلكت عاداً فان عاداً من جنسهم والريح من جنس ريحهم وان كانت اشد وكذلك غرق فرعون في البحر

وكذا بقية الاخبار عن الامم الماضية . ولهذا كان الاخبار بذلك فيه عبرة لنا كما قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ) وقد يكون الذي يخبر به الرسول مالم يدركوا مثله الموافق له في الحقيقي من كل وجه لكن في مفرداته ما يشبه مفرداتهم من بعض الوجوه كما اذا اخبرهم عن الامور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر فلا بد ان يعلموا معني مشتركا وتشبيها بين مفردات تلك الالفاظ وبين مفردات الالفاظ ما علموه في الدنيا بحسهم وعقلهم فاذا كان ذلك المعنى الذي في الدنيا لم يشهدوه بعد ويريدان يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعني الغائب اشهدهم اياه واشار لهم اليه وفعل قولا يكون حكاية له وشبها به يعلم المستمعون ان معرفتهم بالحقائق المشهورة هي الطريق التي يعرفون بها الامور الغائبة فينبغي ان يعرف هذه الدرجات. (اولها) ادراك الانسان المعاني الحسية المشاهدة. (وثانيها) عقله لمعانيها الكلية . (وثالثها) تعريف الالفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية. فهذه المراتب الثلاث لابد منها في كل خطاب فاذا اخبرنا عن الأمور الغائبة فلا بد من تعريفها المعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذي بينهما وذلك بتعريفنا الامور المشهودة ثم ان كانت مثلها لم تحتج الى ذكر الفارق كما تقدم في قصص الامم وان لم يكن مثلها بين ذلك بذكر الفارق بأن يقال ليس ذلك مثل هذا ونحو ذلك واذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الاضافة وحدها كافية في بيان الفارق وانتفاء التساوي لا يمنع منه وجود القدر المشترك الذي هو مدلول اللفظ المشترك ما امكن ذلك قط. قوله ﴿ ولا شيء يعجزه ﴾

لكمال قدرته قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

مُقْتَدِراً ـ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً ـ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) لا يؤده اي لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه فهذا النفي لثبوت كمال ضده وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة انما هو لكمال ثبوت ضده كقوله تعالى (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) لكمال عدله (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) لكمال علمه وقوله تعالى (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) لكمال قدرته (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) لكمال حياته وقيوميته (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) لكمال جلاله وعظمته وكبريائه والا فالنفي الصرف لا مدح فيه الا ترى ان قول الشاعر :

قبيِّلة لا يغدرون بذمة * ولا يظلمون الناس حبة خردل

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ماذكره قبل هذا البيت وبعده وتصغيرهم بقوله قبيلة علم ان المراد عجزهم وضعفهم لا كمال قدرتهم وقول الآخر

لكن قومي وان كانوا ذوي عدد * ليسوا من الشر في شيء وان هانا

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يدل على ذمهم علم ان المراد عجزهم وضعفهم ايضا ، ولهذا يأتي الاثبات للصفات في كتاب الله مفصلا والنفي مجملا عكس طريقة اهل الكلام المذموم فانهم يأتون بالنفي المفصل والاثبات المجمل يقولون ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا دم ولا لحم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا لون ولا رائحة ولا طعم ولا بجثة ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق ولا يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض وليس بذي ابعاض واجزاء وجوارح واعضاء

وليس بذي جهات ولا بذي يمين ولا شمال وامام وخلف وفوق وتحت ولا يحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ولا الحلول في الاماكن ولا يوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ولا يوصف بانه متناه ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات وليس بمحدود ولا والد ولا مولود ولا تحيط به الاقدار ولا تحجبه الأستار الخ ما نقله ابو الحسن الاشعرى رحمه الله عن المعتزلة وفي هذه الجملة حق وباطل ويظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة وهذا النفي المجرد مع كونه لامدح فيه اساءة ادب فانك لو قلت للسلطان انت لست بزبال ولا كساح ولاحجام ولاحائك لأدبك على هذا الوصف وان كنت صادقا وانما تكون مادحا اذا اجملت النفي فقلت انت لست مثل احد من رعيتك انت اعلى منهم واشرف واجل فاذا اجملت في النفي اجملت في الادب. والتعبير عن الحق بالالفاظ الشرعية النبوية الالهية هو سبيل اهل السنة والجماعة والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الاسماء والصفات ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والالفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده. واما اهل الحق والسنة والايمان فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده والذي قاله هؤلاء اما ان يعرضوا عنه اعراضا جمليا او يبينوا حاله تفصيلا ويحكم عليه بالكتاب والسنة لا يحكم به على الكتاب والسنة. والمقصود ان غالب عقائدهم السلوب ليس بكذا واما الاثبات فهو قليل وهي انه عالم قادر حي واكثر النفي المذكور ليس متلقى عن الكتاب والسنة ولا عن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من مثبتة الصفات فان الله تعالى قال (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

في هذا الاثبات ما يقرر معنى النفي ففهم ان المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله ليس كمثله شيء في صفاته ولا في اسمائه ولا في افعاله مما اخبرنا به من صفاته وله صفات لم يطلع عليها احد من خلقه ، كما قال رسوله الصادق ﷺ في دعاء الكرب « اللهم انى اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك او انزلته في كتابك او علمته احدا من خلقك او استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي . وسيأتي التنبيه على فساد طريقتهم في الصفات إن شاء الله تعالى وليس قول الشيخ رحمه الله ولا شيء يعجزه من النفي المذموم فان الله تعالى قال (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة فان العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريده الفاعل، وإما من عدم علمه به والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة وهو على كل شيء قدير وقد علم بيداية [1] العقول والفطر كمال قدرته وعلمه فانتفى العجز لما بينه وبين القدرة من التضاد ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا

قوله ﴿ ولا إله غيره ﴾ هذه كلمة التوحيد التي دعت اليها الرسل كلهم كما تقدم ذكره واثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والاثبات المقتضي للحصر. فان الاثبات المجرد قد يتطرق اليه الاحتمال . و لهذا والله اعلم لما قال تعالى (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) قال بعده (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) فانه قد يخطر

---

(١) لعله ببداهة العقول

ببال احد خاطر شيطاني هب ان الهنا واحد فلغيرنا إله غيره فقال تعالى (لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ)

وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين في تقدير الخبر في لا إله إلا هو فقالوا تقديره لا إله في الوجود إلا الله فقال يكون ذلك نفيا لوجود الا لَه . ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود فكان اجراء الكلام على ظاهره والاعراض عن هذا الاضمار أولى واجاب ابو عبدالله محمد بن ابي الفضل المرسي في رأي (١) الظمآن فقال هذا كلام من لا يعرف لسان العرب فان إله في موضع المبتدأ على قول سيبويه وعند غيره اسم لا . وعلى التقديرين فلا بد من خبر للمبتدأ والا فما قاله من الاستغناء عن الاضمار فاسد . وأما قوله اذا لم يضمر يكون نفيا للماهية فليس بشيء لأن نفي الماهية هو نفي الوجود لا تتصور الماهية إلا مع الوجود ولا فرق بين لا ماهية لا وجود وهذا مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة فانهم يثبتون ماهية عارية عن الوجود والا اللهُ مرفوع بدلا من إ لَه لا يكون خبرا للا ولا للمبتدا وذكر الدليل على ذلك وليس المراد هنا ذكر الاعراب بل المراد دفع الاشكال الوارد على النحاة في ذلك وبيان انه من جهة المعتزلة وهو فاسد فان قولهم في الوجود ليس تقييدا لان المراد ليس بشيء قال تعالى (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) ولا يقال ليس قوله غيره كقوله الا الله لان غير معرب باعراب الاسم الواقع بعد الا فيكون التقدير للخبر فيهما واحدا فلهذا ذكرت هذا الاشكال وجوابه هنا قوله ﴿ قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ﴾ قال الله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ)

---

(١) لعله ري الظمآن

«قال ﷺ اللهم أنت الاول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء»

فقول الشيخ قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء هو معنى اسمه الأول والآخر والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطرة فان الموجودات لابد ان تنتهي الى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل فانت تشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك وهذه الحوادث وغيرها ليس ممتنعة فان الممتنع لايوجد ولا واجبة الوجود بنفسها فان واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم وهذه كانت معدومة ثم وجدت فعدمها ينفي وجودها ووجودها ينفي امتناعها وما كان قابلا للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قال تعالى (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ) يقول سبحانه أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم . ومعلوم ان الشيء المحدث لا يوجد نفسه فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولاعدم لايكون موجودا بنفسه بل ان حصل مايوجده وإلا كان معدوما وكلما أمكن وجوده بدلا عن عدمه وعدمه بدلا عن وجوده فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم. وإذا تأمل المتأمل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية وجد الصواب منها ما يعود الى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأوضح عبارة واوجزها وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق مالايوجد عندهم مثله قال تعالى (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً) ولا نقول لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والادلة النظرية فان الخفاء والظهور من الامور النسبية فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره ويظهر للانسان الواحد في حال ماخفي عليه في حال اخرى وايضا فالمقدمات

وان كانت خفية فقد يسلمها بعض الناس وينازع فيما هو اجل منها وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر مالا تفرح بما علمته من الامور الظاهرة ولا شك ان العلم باثبات الصانع ووجوب وجوده امر ضروري فطرى وان كان يحصل لبعض النـاس من الشبه ما يخرجه الى الطرق النظرية . وقد ادخل المتكلمون في اسماء الله تعالى القديم وليس هو من اسماء الله تعالى الحسنى فان القديم في لغـة العرب التي نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره فيقال هـذا قديم للعتيق وهذا حديث للجديد ولم يستعمل هذا الاسم الا في المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم كما قال تعالى (حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) والعرجون القديم الذي يبقي الى حـين وجود العرجون الثاني فاذا وجد الحديث قيـل للأول قديم قال تعالى (وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ) اي متقدم في الزمان وقال تعالى (أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) فالاقدم مبالغـة في القديم ومنه القول القديم والجديد للشافعي رحمه الله تعالى وقال تعالى (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ) أي يتقدمهم ويستعمل منه الفعل لازما ومتعديا كما يقال اخذني ما قدم وما حدث ويقال هذا قدم هذا وهو يقدمه . ومنه سميت القدم قدما لانهـا تقدم بقية بدن الانسان . واما ادخال القديم في اسماء الله تعالى فهو مشهور عند اكثر اهل الـكلام وقد انكر ذلك كثير من السلف والخلف منهم ابن حزم . ولا ريب انه اذا كان مستعملا في نفس التقدم فان ما يقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره لـكن اسماء الله تعالى هي الاسماء الحسنى التى تدل على خصوص ما يمدح به والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها فلا يكون

من الاسماء الحسنى . وجاء الشرع باسمه الأول وهو احسن من القديم لانه يشعر بأن مابعده آئل اليه وتابع له بخلاف القديم والله تعالى له الاسماء الحسنى قوله ﴿ لا يفنى ولا يبيد ﴾ ش . اقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى قال عز من قائل (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ) والفنا والبيد متقاربان في المعنى والجمع بينهما في الذكر للتأكيد وهو ايضا مقرر ومؤكد لقوله دائم بلا انتهاء قوله ﴿ ولا يكون الا مايريد ﴾ هذا رد لقول القدرية والمعتزلة فانهم زعموا ان الله اراد الايمان من الناس كلهم والكافر اراد الكفر وقولهم فاسد مردود لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح وهي مسئلة القدر المشهورة وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى وسموا قدرية لانكارهم القدر وكذلك تسمى الجبرية المحتجون بالقدر قدرية ايضا والتسمية على الطائفة الأولى اغلب . واما اهل السنة فيقولون ان الله وان كان يريد المعاصي قدرا فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهي عنها وهذا قول السلف قاطبة فيقولون ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . ولهذا اتفق الفقهاء على ان الحالف لو قال والله لأفعلن كذا ان شاء الله لم يحنث اذا لم يفعله اذا كان واجبا او مستحبا ولو قال ان احب الله حنث اذا كان واجبا او مستحبا والمحققون من اهل السنة يقولون الارادة في كتاب الله نوعان ارادة قدرية كونية خلقية وارادة دينية امرية شرعية فالارادة الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا والكونية هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث وهذا كقوله تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقوله تعالى عن نوح عليه السلام (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ

إنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ) وقوله تعالى (وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) واما الارادة الدينية الشرعية الامرية فكقوله تعالى (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وقوله تعالى (يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ - وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً - يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً) وقوله تعالى (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ) وقوله تعالى (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) فهذه الارادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح هذا يفعل ما لا يريده الله اي لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به . واما الارادة الكونية فهي الارادة المذكورة في قول المسلمين ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن والفرق ثابت بين ارادة المريد ان يفعل وبين ارادته من غيره ان يفعل فاذا اراد الفاعل ان يفعل فعلا فهذه الارادة معلقة بفعله واذا اراد من غيره ان يفعل فعلا فهذه الارادة لفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس والامر يستلزم الارادة الثانية دون الاولى فالله تعالى اذا امر العباد بأمر فقد يريد اعانة المأمور على ما امر به وقد لا يريد ذلك وان كان مريدا منه فعله . وتحقيق هذا مما يبين فصل النزاع في امر الله تعالى هل هو مستلزم لارادته ام لا فهو سبحانه امر الخلق على السن رسله بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم ولكن منهم من اراد ان يخلق فعله فاراد سبحانه ان يخلق ذلك الفعل ويجعله فاعلا له ومنهم من لم يرد ان يخلق فعله فجهة خلقه سبحانه لافعال العباد وغيرها من المخلوقات غير جهة امره للعبد على وجه البيان لما هو مصلحة للعبد او مفسدة وهو سبحانه اذا امر فرعون

وابا لهب وغيرهما بالايمان كان قد بين لهم ما ينفعهم ويصلحهم اذا فعلوه ولا يلزم اذا امرهم ان يعينهم بل قد يكون في خلقه لهم ذلك الفعل واعانتهم عليه وجه مفسدة من حيث هو فعل له فانه يخلق ما يخلق لحكمة ولا يلزم اذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور اذا فعله ان يكون مصلحة للآمر اذا فعله هو او جعل المأمور فاعلا له فأين جهة الخلق من جهة الامر فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه مريدا النصيحة ومبينا لما ينفعه وان كان مع ذلك لايريد ان يعينه على ذلك الفعل اذ ليس كل ما كان مصلحتي في ان آمر به غيري وانصحه يكون مصلحتي في ان اعاونه انا عليه بل قد يكون مصلحتي ارادة ما يضاده فجهة امره لغيره نصحا غير جهة فعله لنفسه واذا امكن الفرق في حق المخلوقين فهو في حق الله اولى بالامكان . والقدرية تضرب مثلا بمن امر غيره بامره فانه لابد ان يفعل ما يكون المأمور اقرب الى فعله كالبشر والطلاقة وتهيئة المساند والمقاعد ونحو ذلك فيقال لهم هذا يكون على وجهين (احدهما) ان يكون مصلحة الآمر تعود الى الامر كأمر الملك جنده بما يؤيد ملكه وامر السيد عبده بما يصلح ملكه وامر الانسان شركاه بما يصلح الامر المشترك بينهما ونحو ذلك (الثاني) ان يكون الآمر يرى الاعانة للمأمور مصلحة له كالامر بالمعروف واذا اعان المأمور على البر والتقوى فانه قد علم ان الله يثيبه على اعانته على الطاعة وانه في عون العبد ما كان العبد في عون اخيه فأما اذا قدر ان الآمر انما امر المأمور لمصلحة المأمور لا لنفع يعود على الآمر من فعل المأمور كالناصح المشير وقدراى انه اذا اعانه لم يكن ذلك مصلحة للامر وان في حصول مصلحة المأمور مضرة على الآمر مثل الذي جاء من اقصى المدينة

يسعى وقال لموسى . ﴿ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾
فهذا مصلحته في ان يأمر موسى عليه السلام بالخروج لا في ان يعينه على ذلك اذ لو
اعانه لضر دقومه ومثل هذا كثير . واذا قيل ان الله امر العباد بما يصلحهم لم يلزم من
ذلك ان يعينهم على ما امرهم به لاسيما وعند القدرية لا يقدر ان يعين احداً على ما به
يصير فاعلا وإذا عللت افعاله بالحكمة فهي ثابتة في نفس الامر وان كنا نحن لا نعلمها
فلا يلزم اذا كان فى نفس الآمر له حكمة في الامر أن يكون في الاعانة على فعل
المأمور به حكمة بل قد تكون الحكمة تقتضي ان لا يعينه على ذلك فانه اذا امكن
في المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحة ان يأمر لمصلحة المأمور وان
تكون الحكمة والمصلحة للآمر ان لا يعينه على ذلك فامكان ذلك في حق
الرب أولى وأحرى . والمقصود انه يمكن في حق المخلوق الحكيم ان يأمر غيره
بأمر ولا يعينه عليه فالخالق أولى بامكان ذلك في حقه مع حكمته فمن امره واعانه
على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وامره انشاءه خلقاً
ومحبة فكان مرادا بجهة الخلق ومرادا بجهة الأمر ومن لم يعنه على فعل
المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق به امره ولم يتعلق به خلقه لعدم الحكمة
المقتضية لتعلق الخلق به ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده وخلق احد
الضدين ينافي خلق الضد الآخر فان خلق المرض الذي يحصل به ذل العبد
لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرق به قلبه ويذهب عنه الكبرياء والعظمة
والعدوان يضاد خلق الصحة التى لا تحصل معها هذه المصالح ولذلك
خلق ظلم الظالم الذي يحصل به للمظلوم من جنس ما يحصل بالمرض يضاد
خلق عدله الذي لا يحصل به هذه المصالح وان كانت مصلحته هو في أن يعدل

وتفصيل حكمة الله في خلقه وامره يعجز عن معرفتها عقول البشر والقدرية دخلوا في التعطيل على طريقة فاسدة مثلوا الله فيها بخلقه ولم يثبتوا حكمة تعود اليه . قوله ﴿ لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام ﴾ قال الله تعالى (وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) قال في الصحاح توهمت الشيء ظننته وفهمت الشيء علمته فمراد الشيخ رحمه الله انه لا ينتهي اليه وهم ولا يحيط به علم قيل الوهم مايرجى كونه اي يظن انه على صيغة كذا والفهم هو ما يحصله العقل ويحيط به والله تعالى لا يعلم كيف هو سبحانه الا هو سبحانه وتعالى وانما نعرفه سبحانه بصفاته وهو انه احد ، صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد ، (اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ـ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) قوله ﴿ ولا يشبه الأنام ﴾ هذا رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالى قال عز وجل (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وليس المراد نفي الصفات كما يقول اهل البدع فمن كلام ابي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر: لا يشبه شيئاً من خلقه ثم قال بعد ذلك وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا انتهى . وقال نعيم بن حماد : من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ومن انكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه . وقال اسحاق ابن راهويه : من وصف الله بشيء فشبه صفاته بصفات احد من خلق الله فهو

كافر بالله العظيم وقال علامة جهم وأصحابه : دعواهم على أهل السنة و الجماعة ما أولعوا به من الكذب انهم مشبهة بل هم المعطلة . و كذلك قال خلق كثير من أئمة السلف علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة فانه ما من احد من نفاة شيء من الاسماء والصفات الا يسمى المثبت لها مشبهاً فمن انكر اسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة القرامطة والفلاسفة وقال : ان الله لا يقال له عالم ولا قادر يزعم ان من سماه بذلك فهو مشبه لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه ومن اثبت الاسم وقال هو مجاز كغالية الجهمية يزعم أن من قال ان الله عالم حقيقة ؛ قادر حقيقة فهو مشبه ومن أنكر الصفات وقال : إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة قال لمن اثبت الصفات انه مشبه و انه مجسم ولهذا كتب نفاة الصفات من الجهمية المعتزلة و الرافضة و نحوهم كلها مشحونة بتسمية مثبتي الصفات مشبهة و مجسمة ويقولون في كتبهم ان من جملة المجسمة قوما يقال لهم المالكية ينسبون الى رجل يقال له مالك بن انس وقوم يقال لهم الشافعية ينسبون الى رجل يقال له محمد بن ادريس حتى الذين يفسرون القرآن منهم كعبد الجبار والزمخشري وغيرهما يسمون كل من اثبت شيئاً من الصفات وقال بالرؤية مشبها وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين انهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات ولا يصفون به كل من اثبت الصفات بل مرادهم انه لا يشبه المخلوق في اسمائه وصفاته وافعاله كما تقدم من كلام ابي حنيفة انه تعالى يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرى لا كرؤيتنا وهذا معنى قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) فنفى المثل

واثبت الوصف . وسيأتي في كلام الشيخ اثبات الصفات تنبيها على انه ليس
نفي التشبيه مستلزما لنفي الصفات . ومما يوضح هذا ان العلم الالهي لا يجوز
ان يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوى فيه الاصل والفرع ولا بقياس شمولى
يستوى افراده فان الله سبحانه ليس كمثله شيء فلا يجوز ان يمثل بغيره
ولا يجوز ان يدخل هو وغيره بحيث [1] قضية كلية يستوى افرادها ولهذا
لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الاقيسة في المطالب الالهية
لم يصلوا بها الى اليقين بل تناقضت ادلتهم وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة
والاضطراب لما يرونه من فساد أدلتهم او تكافيها ولكن يستعمل في ذلك
قياس الاولى سواء كان تمثيلا او شمولا كما قال تعالى (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) مثل ان
يعلم ان كل كمال ثبت للممكن او للمحدث لا نقص فيه بوجه من الوجوه
وهو ما كان كمالا للوجود غير مستلزم للعدم بوجه فالواجب القديم اولى به
وكل كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر
فانما استفاده من خالقه وربه ومدبره وهو احق به منه وان كل نقص وعيب
في نفسه وهو ما تضمن سلب هذا الكمال اذ اوجب نفيه عن شيء من انواع
المخلوقات والممكنات والمحدثات فانه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الاولى
ومن اعجب العجب ان من غلاة نفاة الصفات الذين يستدلون بهذه الآية
الكريمة على نفي الصفات أو الاسماء ويقولون واجب الوجود لا يكون كذا ولا
يكون كذا ثم يقولون اصل الفلسفة هي التشبه بالاله على قدر الطاقة ويجعلون
هذا غاية الحكمة ونهاية الكمال الانساني ويوافقهم على ذلك بعض من يطلق

(١) لعله تحت

هذه العبارة ويروي عن النبي ﷺ انه قال « تخلقوا باخلاق الله » فاذا كانوا ينفون الصفات فبأى شيء يتخلق العبد على زعمهم وكما انه لايشبه شيئا من مخلوقاته تعالى لايشبهه شيء من مخلوقاته لكن المخالف في هذا النصارى والحلولية والاتحادية لعنهم الله ونفى مشابهة شيء من مخلوقاته له مستلزم لنفى مشابهته لشيء من مخلوقاته فلذلك اكتفى الشيخ رحمه الله بقوله ولايشبه الانام والانام الناس وقيل الخلق وقيل كل ذي روح وقيل الثقلان وظاهر قوله تعالى (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ) يشهد للأول اكثر من الباقي والله أعلم قوله « حي لا يموت قيوم لا ينام » ش. قال تعالى (اللهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) فنفى السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته وقال تعالى (الٓمٓ اللهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) وقال تعالى (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ) وقال ﷺ « ان الله لا ينام ولا ينبغى له ان ينام » الحديث لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه اشار الى ماتقع به التفرقة بينه وبين خلقه بما يتصف به تعالى دون خلقه فمن ذلك انه حي لايموت لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه فانهم يموتون ومنه انه قيوم لا ينام اذ هو مختص بعدم النوم والسنة دون خلقه فانهم ينامون وفي ذلك اشارة الى ان نفى التشبيه ليس المراد به نفى الصفات بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال لكمال ذاته فالحي بحياة باقية لايشبه الحي بحياة زائلة ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا وان الدار الآخرة لهي الحيوان فالحياة الدنيا كالمنام والحياة الآخرة كاليقظة ولا يقال فهذه الحياة الآخرة

كاملة وهي للمخلوق لأنا نقول الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها
هو الذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة فهي دائمة بادامة الله لها لان الدوام
وصف لازم لها لذاتها بخلاف حياة الرب تعالى وكذلك سائر صفاته فصفات
الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به واعلم ان هذين الاسمين اعني
الحي القيوم مذكوران في القرآن معاً في ثلاث سور كما تقدم وهما من اعظم
اسماء الله الحسنى حتى قيل انهما الاسم الاعظم فانهما يتضمنان اثبات صفات
الكمال اكمل تضمن واصدقه ويدل القيوم على معنى الازلية والابدية ما لا يدل
عليه لفظ القديم ويدل ايضا على كونه موجودا بنفسه وهو معنى كونه واجب
الوجود والقيوم ابلغ من القيام لأن الواو اقوى من الالف ويفيد قيامه
بنفسه باتفاق المفسرين واهل اللغة وهو معلوم بالضرورة وهل تفيد اقامته
لغيره وقيامه عليه فيه قولان اصحها انه يفيد ذلك وهو يفيد دوام قيامه وكل
قيامه لما فيه من المبالغة فهو سبحانه لا يزول ولا يأفل فان الآفل قد زال قطعاً
اي لا يغيب ولا ينقص ولا يفنى ولا يعدم بل هو الدائم الباقي الذي لم يزل ولا
يزال موصوفا بصفات الكمال واقترانه بالحي يستلزم سائر صفات الكمال ويدل
على بقائها ودوامها وانتفاء النقص والعدم عنها ازلا وابدا ولهذا كان قوله
(اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّوم) اعظم آية في القرآن كما ثبت ذلك في الصحيح عن
النبي ﷺ فعلا هذين الاسمين مدار الاسماء الحسنى كلها واليها يرجع معانيها
فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ولا يتخلف عنها صفة منها الا لضعف
الحياة فاذا كانت حياته تعالى اكمل حياة واتمها استلزم اثباتها اثبات كل كمال
يضاد نفيه كمال الحياة . واما القيوم فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته فانه

القويم بنفسه فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه لغيره فلا قيام لغيره الا باقامته فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال اتم انتظام قوله ﴿ خالق بلا حاجة رازق بلا مؤنة ﴾ ش. قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ - وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ) وقال ﷺ من حديث ابي ذر رضي الله عنه « ياعبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على اتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على افجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً يا عبادي لو ان اولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فاعطيت كل انسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي الا كما ينقص المخيط اذا ادخل البحر » الحديث رواه مسلم وقوله بلا مؤنة بلا ثقل ولا كلفة قوله ﴿ مميت بلا مخافة باعث بلا مشقة ﴾ ش. الموت صفة وجودية خلافا للفلاسفة ومن وافقهم قال تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) والعدم لايوصف بكونه مخلوقا وفي الحديث انه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش املح فيذبح بين الجنة والنار وهو وان كان عرضا فالله تعالى يقلبه عينا كما ورد في العمل الصالح انه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن والعمل القبيح على اقبح صورة وورد في القرآن انه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون. الحديث اي قراءة القاري، وورد في الاعمال انها توضع في الميزان والاعيان هي التي تقبل الوزن دون الاعراض وورد في

سورة البقرة وآل عمران انهما يوم القيامة يظلان صاحبهما كأنهما غمامتان او غيابتان او فرقان من طير صواف وفي الصحيح ان اعمال العباد تصعد الى السماء . وسيأتي الكلام على البعث والنشور ان شاء الله تعالى قوله ﴿ مازال بصفاته قديما قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته ازليا كذلك لا يزال عليها ابديا ﴾ ش . اي ان الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفا بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل ولا يجوز ان يعتقد ان الله وصف بصفة بعد ان لم يكن متصفا بها لان صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص ولا يجوز ان يكون قد حصل له الكمال بعد ان كان متصفاً بضده ولا يرد على هذا صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير والاحياء والاماتة والقبض والبسط والطي والاستواء والاتيان والمجيء والنزول والغضب والرضى ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله وان كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التي هي تأويله ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ولكن اصل معناه معلوم لنا كما قال الامام مالك رضي الله عنه . لما سئل عن قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ) كيف استوى فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول وان كانت هذه الاحوال تحدث في وقت دون وقت كما في حديث الشفاعة « ان ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله لان هذا الحدوث بهذا الاعتبار غير ممتنع ولا يطلق عليه انه حدث بعد ان لم يكن ، الا ترى ان من تكلم اليوم وكان متكلما بالامس لا يقال انه حدث له الكلام ولو كان غير متكلم لانه كالصغير والخرس ثم تكلم يقال حدث له الكلام فالساكت لغير آفة يسمى متكلما بالقوة

بمعنى انه يتكلم اذا شاء وفي حال تكلمه يسمى متكلما بالفعل وكذلك الكاتب
في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ولا يخرج عن كونه كاتبا في حال عدم مباشرته
للكتابة وحلول الحوادث بالرب تعالى المنفي في علم الكلام المذموم لم يرد نفيه
ولا اثباته في كتاب ولا سنة وفيه اجمال فان اريد بالنفي انه سبحانه لا يحل في
ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثة ولا يحدث له وصف متجدد لم يكن
فهذا نفي صحيح وان اريد به نفي الصفات الاختيارية من انه لا يفعل ما يريد
ولا يتكلم بما شاء اذا شاء ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ولا
يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتيان كما يليق بجلاله
وعظمته فهذا نفي باطل واهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث
فيسلم السني المتكلم ذلك على ظن انه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله فاذا
سلم له هذا النفي الزمه نفي الصفات الاختيارية وصفات الفعل وهو غير لازم له
وانما اتى السني من تسليم هذا النفي المجمل والا فلو استفسر واستفصل له لم
ينقطع معه وكذا مسألة الصفة هل هي زائدة على الذات ام لا لفظها مجمل
وكذلك لفظ الغير فيه اجمال فقد يراد به ما ليس هو اياه وقد يراد به ما جاز
مفارقته له . ولهذا كان أئمة السنة لا يطلقون على صفات الله وكلامه انه
غيره ولا انه ليس غيره لان اطلاق الاثبات قد يشعر ان ذلك مباينا
له واطلاق النفي قد يشعر بانه هو اذ كان لفظ الغير فيه اجمال فلا يطلق
إلا مع البيان والتفصيل فان اريد به ان هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها منفصلة
عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح وان اريد به ان الصفات زائدة على
الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق ولكن

ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا ينفصل عنها وانما يعرض للذهن ذات وصفة كل وحده ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة فان هذا محال ولو لم يكن الا صفة الوجود فانها لا تنفك عن الوجود وان كان الذهن يفرض ذاتا ووجودا يتصور هذا وحده وهذا وحده لكن لا ينفك احدهما عن الآخر في الخارج وقد يقول بعضهم : الصفة لاعين الموصوف ولاغيره وهذا له معنى صحيح وهو أن الصفة ليست عين ذات الموصوف الذي يفرضها الذهن مجردة بل هي غيرها وليست غير الموصوف بل الموصوف بصفاته واحد غير متعدد فاذا قلت : أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسة الموصوف بصفات الكمال المقدس الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه . و إذا قلت : أعوذ بعزة الله فقد عذت بصفة من صفات الله ولم تعذ بغير الله وهذا المعنى يفهم من لفظ الذات فان ذات في أصل معناها لا تستعمل الا مضافة اي ذات وجود ، ذات قدرة ، ذات عز ، ذات علم ، ذات كرم الى غير ذلك من الصفات فذات كذا بمعنى صاحبة كذا تأنيث ذو هذا اصل معنى الكلمة فعلم ان الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه وان كان الذهن قد يفرض ذاتا مجردة عن الصفات كما يفرض المحال . وقد قال ﷺ « اعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما اجد واحاذر » وقال ﷺ «اعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» ولا يعوذ ﷺ بغير الله وكذا قال ﷺ « اللهم اني اعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك واعوذ بك منك » وقال ﷺ « ونعوذ بعظمتك ان نغتال من تحتنا » وقال ﷺ «اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات»

وكذلك قولهم الاسم عين المسمى وغيره وطالما غلط كثير من الناس في ذلك
وجهلوا الصواب فيه فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه
اخرى فاذا قلت قال الله كذا او سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به
المسمى نفسه واذا قلت الله اسم عربي والرحمن اسم عربي والرحمن من اسماء
الله ونحو ذلك فالاسم هاهنا هو المراد لا المسمى ولا يقال غيره لما في لفظ الغير
من الاجمال فان اريد بالمغايرة ان اللفظ غير المعنى فحق وان اريد ان الله سبحانه
كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه اسما او حتى سماه خلقه باسماء من صنعهم
فهذا من اعظم الضلال والالحاد في اسماء الله تعالى . والشيخ رحمه الله اشار
بقوله ما زال بصفاته قديما قبل خلقه الى آخر كلامه الى الرد على المعتزلة
والجهمية ومن وافقهم من الشيعة فانهم قالوا ان الله تعالى صار قادرا على الفعل
والكلام بعد ان لم يكن قادراً عليه لكونه صار الفعل والكلام ممكنا بعد
ان كان ممتنعا وانه انقلب من الامتناع الذاتي الى الامكان الذاتي وابن كلاب
والاشعري ومن وافقهما فانهم قالوا ان الفعل صار ممكنا له بعد ان كان ممتنعا
منه . واما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة بل هو شيء واحد
لازم لذاته واصل هذا الكلام من الجهمية فانهم قالوا ان دوام الحوادث
ممتنع وانه يجب ان يكون الحوادث مبدء لامتناع حوادث لا اول لها فيمتنع
ان يكون الباري عز وجل لم يزل فاعلا متكلما بمشيئة بل يمتنع ان يكون
قادراً على ذلك لأن القدرة على الممتنع ممتنعة وهذا فاسد فانه يدل على امتناع
حدوث العالم وهو حادث والحادث اذا حدث بعد ان لم يكن محدثا فلا بد ان
يكون ممكنا والامكان ليس له وقت محدود ومامن وقت يقدر الا والامكان

ثابت فيه فايس لامكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهي اليه فيجب انه لم يزل الفعل ممكنا جائزاً صحيحا فيلزم انه لم يزل الرب قادرا عليه فيلزم جواز حوادث لا نهاية لأولها قالت الجهمية ومن وافقهم نحن لا نسلم أن امكان الحوادث لا بداية له لكن نقول امكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا بداية له وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع ان تكون قديمة النوع بل يجب حدوث نوعها ويمتنع قدم نوعها لكن لا يجب الحدوث في وقت بعينه فامكان الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لأوله بخلاف جنس الحوادث فيقال لهم هب انكم تقولون ذلك لكن يقال امكان جنس الحوادث عندكم له بداية فانه صار جنس الحدوث عندكم ممكناً بعد أن لم يكن ممكناً وليس لهذا الامكان وقت معين بل مامن وقت يفرض الا والامكان ثابت قبله فيلزم دوام الامكان والا لزم انقلاب الجنس من الامتناع الى الامكان من غير حدوث شيء . ومعلوم ان انقلاب حقيقي جنس الحدوث او جنس الحوادث او جنس الفعل او جنس الاحداث او ما اشبه هذا من العبارات من الامتناع الى الامكان هو مصيِّر ذلك ممكنا جائزا بعد ان كان ممتنعا من غير سبب تجدد وهذا ممتنع في صريح العقل وهو ايضا انقلاب الجنس من الامتناع الذاتي الى الامكان الذاتي فان ذات جنس الحوادث عندهم تصير ممكنة بعد ان كانت ممتنعة وهذا الانقلاب لا يختص بوقت معين فانه مامن وقت يقدر الا والامكان ثابت قبله فيلزم انه لم يزل هذا الانقلاب ممكنا فيلزم انه لم يزل الممتنع ممكنا وهذا ابلغ في الامتناع من قولنا لم يزل الحادث ممكنا فقد لزمهم فيما فروا اليه ابلغ مما لزمهم فيما فروا منه فانه يعقل كون الحادث

ممكنا ويعقل ان هذا الامكان لم يزل واما كون الممتنع ممكنا فهو ممتنع في نفسه فكيف اذا قيل لم يزل امكان هذا الممتنع وهذا مبسوط في موضعه ٠ فالحاصل أن نوع الحوادث هل يمكن دوامها في المستقبل والماضي ام لا او في المستقبل فقط والماضي فقط فيه ثلاثة اقوال معروفة لاهل النظر من المسلمين وغيرهم اضعفها قول من يقول لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المستقبل كقول جهم ابن صفوان وابي الهذيل العلاف . وثانيها قول من يقول يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي كقول كثير من اهل الكلام ومن وافقهم من الفقهاء وغيرهم . والثالث قول من يقول يمكن دوامها في الماضي والمستقبل كما يقوله ائمة الحديث وهي من المسائل الكبار ولم يقل احد يمكن دوامها في الماضي دون المستقبل ولا شك ان جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون ان كل ماسوى الله تعالى مخلوق كائن بعد ان لم يكن وهذا قول الرسل واتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم . ومن المعلوم بالفطرة ان كون المفعول مقارنا لفاعله لم يزل ولا يزال معه ممتنع محال ، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع ان يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع ان يكون سبحانه وتعالى هو الاول الذي ليس قبله شيء فان الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعل مايشاء ويتكلم اذا يشاء قال تعالى (كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) وقال تعالى (وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) وقال تعالى (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ) وقال تعالى (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ

رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)والمثبت انما هو الكلام الممكن الوجود ، وحينئذ
فاذا كان النوع دائما فالممكن هو القديم على كل فرد من الافراد بحيث لايكون
في اجزاء العالم شيء يقارنه بوجه من الوجوه ، واما دوام الفعل فهو ايضا من الكمال
فان الفعل اذا كان صفة كمال فدوامه دوام الكمال . قالوا والتسلسل لفظ مجمل لم
يرد بنفيه ولا اثباته كتاب ولا سنة ليجب مراعاة لفظه وهو ينقسم الى
واجب وممتنع وممكن التسلسل في المؤثرين محال ممتنع لذاته وهو ان يكون
مؤثرون كل واحد منهم استفاد تاثيره مما قبله لا إلى غاية والتسلسل الواجب
ما دل عليه العقل والشرع من دوام افعال الرب تعالى في الأبد وانه كلما
انقضى لاهل الجنة نعيم احدث لهم نعيما آخر لا نفاد له وكذلك التسلسل
في افعاله سبحانه من طرف الازل وان كل فعل مسبوق بفعل آخر فهذا
واجب في كلامه فانه لم يزل متكلما اذا شاء ولم تحدث له صفة الكلام في وقت
وهكذا افعاله التي هي من لوازم حياته فان كل حي فعال والفرق بين الحي
والميت بالفعل ولهذا قال غير واحد من السلف الحي الفعال وقال عثمان بن
سعيد كل حي فعال ولم يكن ربنا تعالى قط في وقت من الاوقات معطلا عن
كماله من الكلام والارادة والفعل . واما التسلسل الممكن فالتسلسل في مفعولاته
من هذا الطرف كما تتسلسل في طرف الأبد فانه اذا لم يزل حيا قادرا مريدا
متكلما وذلك من لوازم ذاته فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له وان
يفعل اكمل من ان لايفعل ولا يلزم من هذا انه لم يزل الخلق معه فانه سبحانه
متقدم على كل فرد فرد من مخلوقاته تقدما لا اول له فلكل مخلوق اول والخالق
سبحانه لا اول له فهو وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق كائن بعد ان لم يكن

قالوا وكل قول سوى هذا فصريح العقل يرده ويقضي ببطلانه وكل من اعترف
بان الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل لزمه احد امرين لابد له منهما. اما ان
يقول بان الفعل لم يزل ممكنا . واما ان يقول لم يزل واقعا والا تناقض تناقضا
بينا حيث زعم ان الرب تعالى لم يزل قادرا على الفعل والفعل محال ممتنع لذاته
لو اراده لم يمكن وجوده بل فرض ارادته عنده محال وهو مقدور له وهذا قول
ينقض بعضه بعضا . والمقصود ان الذي دل عليه الشرع والعقل ان كل ماسوى الله
تعالى محدث كائن بعد ان لم يكن . اما كون الرب تعالى لم يزل معطلا عن الفعل ثم
فعل فليس في الشرع ولا في العقل ما يثبته بل كلاهما يدل على نقيضه وقد اورد ابو
المعالى فى ارشاده وغيره من النظار على التسلسل في الماضي فقالوا : الا انك
لو قلت لا اعطيك درهما الا اعطيك بعده درهما كان هذا ممكنا ، ولو قلت
لا اعطيك درهما حتى اعطيك قبله درهما كان هذا ممتنعا وهذا التمثيل والموازنة
غير صحيحة بل الموازنة الصحيحة ان تقول : ما اعطيتك درهما الا اعطيتك
قبله درهما فتجعل ماضيا قبل ماض كما جعلت هناك مستقبلا بعد مستقبل واما
قول القائل لا اعطيك حتى اعطيك قبله فهو نفي للمستقبل حتى يحصل في المستقبل
ويكون قبلي فقد نفى المستقبل حتى يوجد المستقبل وهذا ممتنع لم ينف الماضي
حتى يكون قبله ماضي فان هذا ممكن والعطاء المستقبل ابتداؤه من المعطي
والمستقبل الذى له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله ما لا نهاية له فان ما لا نهاية له
فيما يتناهى ممتنع قوله ﴿ ليس بعد خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا باحداثه
البرية استفاد اسم الباري ﴾ ظاهر كلام الشيخ رحمه الله انه يمنع تسلسل الحوادث
في الماضي ويأتي في كلامه ما يدل على انه لا يمنعه في المستقبل وهو قوله والجنة

والنار مخلوقتان لا تفنيان ابدا ولا تبيدان . وهذا مذهب الجمهور كما تقدم ولاشك في فساد قول من منع ذلك في الماضي والمستقبل كما ذهب اليه الجهم واتباعه وقال بفناء الجنة والنار لما يأتي من الادلة ان شاء الله تعالى وأما قول من قال بجواز حوادث لا اول لها من القائلين بحوادث لا آخر لها فاظهر في الصحة من قول من فرق بينهما فانه سبحانه لم يزل حياً والفعل من لوازم الحياة فلم يزل فاعلا لما يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول (ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) والآية تدل على امور (احدها) انه تعالى يفعل بارادته ومشيئته (الثاني) انه لم يزل كذلك لانه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه وان ذلك من كماله سبحانه ولا يجوز ان يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الاوقات . وقد قال تعالى (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) ولما كان من اوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثا بعد ان لم يكن (الثالث) أنه اذا اراد شيئاً فعله فان (ما) موصولة عامة اي يفعل كل ما يريد ان يفعله وهذا في ارادته المتعلقة بفعله واما ارادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر فان اراد فعل العبد ولم يرد من نفسه ان يعينه عليه ويجعله فاعلا لم يوجد الفعل وان أراده حتى يريد من نفسه ان يجعله فاعلا وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية وخبطوا في مسئلة القدر لغفلتهم عنها وفرق بين ارادته ان يفعل العبد وارادة ان يجعله فاعلا . وسيأتي الكلام على مسئلة القدر في موضعه ان شاء الله تعالى (الرابع) ان فعله وارادته متلازمان فما اراد ان يفعل فعل وما فعله فقد أراده بخلاف المخلوق فانه يريد ما لا يفعل وقد يفعل ما لا يريده . فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده (الخامس) اثبات ارادة متعددة بحسب الافعال

وان كل فعل له ارادة تخصه هذا هو المعقول في الفطر فشأنه سبحانه انه يريد على الدوام ويفعل مايريد (السادس) ان كل ما صح ان يتعلق به ارادته جاز فعله فاذا اراد ان ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا وان يجيء يوم القيامة لفصل القضاء وأن يري عباده نفسه وان يتجلى لهم كيف شاء ويخاطبهم ويضحك اليهم وغير ذلك مما يريد سبحانه لم يمتنع عليه فعله فانه تعالى فعال لما يريد وانما يتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به فاذا امر [1] وكذلك محو ما يشاء واثبات مايشاء كل يوم هو في شان سبحانه وتعالى والقول بان الحوادث لها اول يلزم منه التعطيل قبل ذلك وان الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا ولا يلزم من ذلك قدم العالم لان كل ما سوى الله محدث ممكن الوجود موجود بايجاد الله تعالى له ليس له من نفسه إلا العدم والفقر والاحتياج وصف ذاتى لازم لكل ماسوى الله تعالى والله تعالى واجب الوجود لذاته غني لذاته والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى وللناس قولان فى هذا العالم هل هو مخلوق من مادة ام لا . واختلفوا في اول هذا العالم ما هو وقد قال تعالى (وَهُوَ الَّذِيْ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الْمَاءِ) وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين قال قال اهل اليمن لرسول الله ﷺ جئناك لنتفقه في الدين ونسألك عن هذا الأمر فقال « كان الله ولم يكن شيء قبله » وفي رواية « ولم يكن شيء معه » وفي رواية غيره « وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض » وفي لفظ « ثم خلق السموات والأرض » فقوله كتب في الذكر يعني اللوح المحفوظ كما قال تعالى (وَلَقَدْ

---

(١) بياض بالاصل

كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) يسمي مايكتب في الذكر ذكراً كما يسمى ما يكتب في الكتاب كتاباً والناس في هذا الحديث على قولين : منهم من قال ان المقصود اخباره بأن الله كان موجودا وحده ولم يزل كذلك دائما ثم ابتدأ احداث جميع الحوادث بجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم وان جنس الزمان حادث لا في زمان وان الله صار فاعلا بعد ان لم يكن يفعل شيئاً من الأزل الى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكنا .والقول الثاني المراد اخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة ايام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ انه قال « قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء » فاخبر ﷺ « أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة ايام كان قبل خلق السموات بخمسين الف سنة وأن عرش الرب تعالى حينئذ على الماء » . دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه (احدها) ان قول اهل اليمن جئنا لنسألك عن اول هذا الأمر وهو اشارة الى حاضر مشهود موجود والأمر هنا بمعنى المأمور اي الذي كونه الله بامره . وقد اجابهم النبي ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات لأنهم لم يسألوه عنه وقد اخبرهم عن خلق السموات و الأرض حال كون عرشه على الماء لم يخبرهم عن خلق العرش وهو مخلوق قبل خلق السموات والأرض وايضاً فانه قال « كان الله ولم يكن شيء قبله » وقد روي معه وروي غيره والمجلس كان واحدا فعلم انه قال احد الالفاظ والآخران رويا بالمعنى ولفظ القبل ثبت عنه في غير هذا الحديث . ففي صحيح مسلم عن ابي هريرة عن النبي ﷺ انه

كان يقول في دعائه « اللهم انت الاول فليس قبلك شيء » الحديث واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما في موضع آخر ولهذا كان كثير من اهل الحديث انما يرويه بلفظ القبل كالحميدي والبغوي وابن الأثير واذا كان كذلك لم يكن في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث ولا لاول مخلوق وايضا فانه قال « كان الله ولم يكن شيء قبله او معه او غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء » فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو وخلق السموات والارض روي بالواو وبثم فظهر ان مقصوده اخباره اياهم ببدء خلق السموات والارض وما بينهما وهي المخلوقات التى خلقت في ستة ايام لا لابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقهما وذكر ماقبلهما بمايدل على كونه ووجوده ولم يتعرض لابتداء خلقه وايضاً فانه اذا كان الحديث قد ورد بهذا وهذا فلا يجزم باحدهما الا بدليل فاذا رجح احدهما فمن جزم بان الرسول اراد المعنى الآخر فهو مخطيء قطعاً ولم يأت في الكتاب ولا في السنة ما يدل على المعنى الآخر فلا يجوز اثباته بما يظن انه معنى الحديث ولم يرد كان الله ولا شيء معه مجرداً وانما ورد على السياق المذكور ولا يظن ان معناه الاخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السموات والأرض وايضا فقوله ﷺ « كان الله ولم يكن شيء قبله او معه او غيره وكان عرشه على الماء » لا يصح ان يكون المعنى انه تعالى موجود وحده لا مخلوق معه اصلا لأن قوله « وكان عرشه على الماء » يرد ذلك فان هذه الجملة وهي كان عرشه على الماء اما حالية او معطوفة وعلى كلا التقديرين فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت فعلم ان المراد ولم يكن شيء من العالم المشهود قوله ﴿ له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق ولا

مخلوق ﴾ ش . يعني ان الله تعالى موصوف بانه الرب قبل ان يوجد مربوب وموصوف بانه خالق قبل ان يوجد مخلوق قال بعض المشائخ الشارحين وانما قال له معنى الربوبية ومعنى الخالق دون الخالقية لان الخالق هو المخرج للشيء من العدم الى الوجود لاغير والرب يقتضي معاني كثيرة وهي الملك والحفظ والتدبير والتربية وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج فلا جرم اتى بلفظ يشمل هذه المعاني وهي الربوبية انتهى . وفيه نظر لان الخلق يكون بمعنى التقدير ايضا قوله ﴿ وكما انه محي الموتى بعد ما احيى استحق هذا الاسم قبل احيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل انشائهم ﴾ ش . يعني انه سبحانه وتعالى موصوف بانه محي الموتى قبل احيائهم فكذلك يوصف بانه خالق قبل خلقهم الز اماللمعتزلةومن قال بقولهم كماحكيناعنهم فيماتقدم وتقدم تقرير انه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء قوله ﴿ ذلك بانه على كل شيء قدير وكل شيء اليه فقير وكل امر اليه يسير لايحتاج الى شيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ش. ذلك اشارة الى ثبوت صفاته في الازل قبل خلقه والكلام على كل وشمولها وشمول كل في كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن يأتي في مسألة الكلام ان شاءالله تعالى وقد حرفت المعتزلة المعنى المفهوم من قوله تعالى (وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فقالوا انه قادر على كل ما هو مقدور له واما نفس افعال العباد فلا يقدر عليها عندهم وتنازعوا هل يقدر على مثلها ام لا ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة ان يقال هو عالم بكل ما يعلمه وخالق لكل ما يخلقه ونحو ذلك من العبارات التي لافائدة فيها فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء واما اهل السنة فعندهم ان الله على كل شيء قدير وكل ممكن فهو مندرج في

هذا . واما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال واحدة فهذا لا حقيقة له ولا يتصور وجوده ولا يسمى شيئاً باتفاق العقلاء ومن هذا الباب خلق مثل نفسه واعدام نفسه وامثال ذلك من المحال وهذا الاصل هو الايمان بربوبيته العامة التامة فانه لايؤمن بانه رب كل شيء الا من آمن انه قادر على تلك الاشياء ولايؤمن بتمام ربوبيته وكمالها الامن آمن بانه على كل شيء قدير وانما تنازعوا في المعدوم الممكن هل هو شيء ام لا والتحقيق ان المعدوم ليس بشيء في الخارج ولكن الله يعلم ما يكون قبل ان يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالى (إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ) فيكون شيء في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج كما قال تعالى (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) قال تعالى (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) اي لم تكن شيئا في الخارج وان كان شيئا في علمه تعالى وقال تعالى (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) وقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) رد على المشبهة وقوله تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) رد على المعطلة فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبه فالمخلوق وان كان يوصف بانه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ولا يلزم من اثبات الصفة تشبيه اذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به ولا تنفي عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به اعرف الخلق بربه وما يجب له وما يمتنع عليه وأنصحهم لامته وافصحهم وأقدرهم على البيان فانك ان نفيت شيئاً من ذلك كنت كافرا بما انزل على محمد ﷺ واذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه فليس كمثله شيء فاذا شبهته بخلقه كنت كافرا

به . قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري من شبه الله بخلقه فقد كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها ، وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه . وقد وصف الله تعالى نفسه بان له المثل الاعلى فقال تعالى (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ)وقال تعالى (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم واخبر أن المثل الأعلى المتضمن لاثبات الكمال كله لله وحده فمن سلب صفات الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت اكثر في الموصوف واكمل كان بها اكمل واعلى من غيره ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى اكثر واكمل كان له المثل الأعلى وكان احق به من كل ماسواه بل يستحيل ان يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان لأنهما ان تكافآ من كل وجه لم يكن احدهما اعلى من الآخر وان لم يتكافآ فالموصوف به احدهما وحده فيستحيل ان يكون لمن له المثل الأعلى مثل اونظير .

واختلفت عبارات المفسرين في المثل الأعلى ووفق بين اقوالهم بعض من وفقه الله وهداه فقال : المثل الاعلى يتضمن الصفة العليا وعلم العالمين بها و وجودها العلمي والخبر عنها وذكرها وعبادة الرب تعالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوب عابديه و ذاكريه فههنا امور اربعة : ثبوت الصفات العليا لله

سبحانه وتعالى سواء علمها العباد اولا وهذا معنى قول من فسرها بالصفة (الثاني) وجودها في العلم والشعور وهذا معنى قول من قال من السلف والخلف انه ما في قلوب عابديه وذاكريه من معرفته وذكره ومحبته وجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والانابة اليه وهذا الذي في قلوبهم من المثل الأعلى لا يشركه فيه غيره اصلا بل يختص به في قلوبهم كما اختص به في ذاته وهذا معنى قول من قال من المفسرين ان معناه اهل السموات يحبونه ويعظمونه ويعبدونه واهل الأرض كذلك وان اشرك به من اشرك وعصاه من عصاه وجحد صفاته من جحدها فاهل الأرض معظمون له، مجلون، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته وجبروته قال تعالى (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) (الثالث) ذكر صفاته والخبر عنها وتنزهها من العيوب والنقائص والتمثيل (الرابع) محبة الموصوف بها وتوحيده والاخلاص له والتوكل عليه والانابة اليه وكلما كان الايمان بالصفات اكمل كان هذا الحب والاخلاص أقوى فعبارات السلف كلها تدل على هذه المعاني الأربعة. فمن اضل ممن يعارض بين قوله تعالى (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) وبين قوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ويستدل بقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) على نفي الصفات ويعمى عن تمام الآية وهو قوله (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) حتى افضى هذا الضلال ببعضهم وهو احمد بن ابي دواد القاضي الى ان اشار على الخليفة المأمون ان يكتب على ستر الكعبة ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم حرف كلام الله بنفي وصفه تعالى بانه السميع البصير كما قال الضال الآخر جهم بن صفوان: وددت اني احك من المصحف قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) فنسأل الله العظيم السميع البصير

ان يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة بمنه وكرمه وفي اعراب قوله كمثله وجوه . (احدها) ان الكاف صلة زيدت للتأكيد وقال اوس بن حجر

ليس كمثل الفتى زهير * خلق يوازيه في الفضائل

وقال آخر ما أن كمثلهم في الناس من بشر *

وقال آخر ومثلي كمثل جذوع النخيل *

فيكون مثله خبر ليس شيء وهذا وجه قوي حسن تعرف العرب معناه في لغتها ولا يخفى عنها اذا خوطبت به وقد جاء عن العرب ايضا زيادة الكاف للتأكيد في قول بعضهم وصاليات ككما يؤثفين (١)

وقول الآخر فأصبحت مثل كعصف ماكول *

(الوجه الثاني) ان الزائد مثل اي ليس كهو شيء وهذا القول بعيد لأن مثل اسم والقول بزيادة الحرف للتأكيد اولى من القول بزيادة الاسم الواحد. (الثالث) انه ليس ثم زيادة اصلا بل هذا من باب قولهم مثلك لا يفعل كذا اي انت لا تفعله واتى بمثل للمبالغة و قالوا في معنى المبالغة هنا اي ليس كمثله مثل لو فرض المثل فكيف ولا مثل له وقيل غير ذلك والاول اظهر قوله ﴿خلق الخلق بعلمه﴾ ش. خلق اي أوجد وانشأ وابدع ويأتي خلق ايضاً بمعنى قدر والخلق مصدر وهو هنا بمعنى المخلوق وقوله بعلمه في محل نصب على الحال أي خلقهم عالماً بهم قال تعالى (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) وقال تعالى ((وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ

---

(١) قوله صاليات هي الحجارة المحترقة . قوله يؤثفين بمثناة تحتية مضمومة فهمزة مفتوحة فمثلثة ساكنة ففاء اثافي القدر يوضع عليها عند الطبخ . حاشية المغني

مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَاجَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ) وفي ذلك رد على المعتزلة . قال الامام عبدالعزيز المكي صاحب الامام الشافعي وجليسه : في كتاب الحيدة الذي حكى فيه مناظرته بشرا المريسي عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى فقال بشر اقول لايجهل فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم تقريرا له وبشر يقول لا يجهل ولايعترف له انه عالم بعلم فقال الامام عبدالعزيز نفي الجهل لايكون صفة مدح فان هذه الاسطوانة لا تجهل وقد مدح الله الانبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم لا بنفي الجهل فمن اثبت العلم فقد نفى الجهل ومن نفى الجهل لم يثبت العلم وعلى الخلق ان يثبتوا ما اثبته الله تعالى لنفسه وينفوا مانفاه ويمسكوا عما امسك عنه والدليل العقلي على علمه تعالى انه يستحيل ايجاده الاشياء مع الجهل ولأن ايجاده الاشياء بارادته والارادة تستلزم تصور المراد وتصور المراد هو العلم بالمراد فكان الايجاد مستلزما للارادة والارادة مستلزمة للعلم فالايجاد مستلزم للعلم ولأن المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان مايستلزم علم الفاعل لها لان الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ولان من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ويمتنع ان لا يكون الخالق عالما وهذا له طريقان : (احدهما) ان يقال : نحن نعلم بالضرورة ان الخالق اكمل من المخلوق وان الواجب اكمل من الممكن ونعلم ضرورة ان لو فرضنا شيئين : احدهما عالم والآخر غير عالم كان العالم أكمل فلولم يكن الخالق عالما لزم ان يكون الممكن اكمل منه وهو ممتنع . (الثاني) ان يقال : كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ومن الممتنع ان يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا

منه بل هو احق به والله تعالى له المثل الأعلى ولا يستوي هو والمخلوق لا في قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي بل كلما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به احق وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه أولى . قوله ﴿ وقدر لهم اقداراً ﴾ قال تعالى (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) وقال تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقال تعالى (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً) وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ انه قال « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء . قوله ﴿ وضرب لهم آجالا ﴾ ش يعني ان الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قال تعالى (إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) وقال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً) وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود قال قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ « اللهم امتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية » قال فقال النبي ﷺ قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئاً قبل اجله ولن يؤخر شيئاً عن اجله ولو كنت سألت الله ان يعيذك من عذاب في النار وعذاب في القبر كان خيراً وافضل » فالمقتول ميت بأجله فعلم الله تعالى وقدر وقضى ان هذا يموت بسبب المرض وهذا بسبب القتل وهذا بسبب الهدم وهذا بسبب الحرق وهذا بالغرق الى غير ذلك من الأسباب والله سبحانه خلق الموت والحياة وخلق سبب الموت والحياة وعند المعتزلة المقتول مقطوع عليه اجله ولو لم يقتل لعاش الى اجله فكان له اجلان وهذا باطل لأنه لا يليق

ان ينسب الى الله تعالى انه جعل له اجلا يعلم انه لا يعيش اليه البتة او يجعل اجله احد الأمرين كفعل الجاهل بالعواقب واوجب القصاص والضمان على القاتل لارتكابه المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور وعلى هذا يخرج قوله ﷺ صلة الرحم تزيد في العمر اي سبب طول العمر وقد قدر الله ان هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب الى هذه الغاية ولولا ذلك السبب لم يصل الى هذه الغاية هي ولكن قدر هذا السبب وقضاه وكذلك قدر ان هذا يقطع رحمه فيعيش الى كذا كما قلنا في القتل وعدمه فان قيل هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك ام لا (فالجواب) ان ذلك غير لازم لقوله ﷺ لام حبيبة «قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة» الحديث كما تقدم فعلم ان الاعمار مقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها بخلاف النجاة من عذاب الآخرة فان الدعاء مشروع له نافع فيه الاترى ان الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الاخروى شرع في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ انه قال «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق احيني ما كانت الحياة خيرا لى وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي» الى آخر الدعاء. ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في صحيحه من حديث ثوبان عن النبي ﷺ «لايرد القدر الا الدعاء ولايزيد في العمر الا البر وان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وفي الحديث رد على من يظن ان النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ انه نهى عن النذر وقال «انه لايأتي بخير وانما يستخرج به من البخيل» واعلم ان الدعاء يكون مشروعا نافعاً في بعض الاشياء دون بعض وكذلك هو ولهذا لا يحب الله المعتدين في الدعاء. وكان

الامام احمد يكره ان يدعى له بطول العمر ويقول هذا امر قد فرغ منه .
وأما قوله تعالى (وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ) فقد
قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى من عمره انه بمنزلة قولهم عندى درهم
ونصفه أي ونصف درهم آخر فيكون المعنى ولا ينقص من عمر معمر آخر
وقيل الزيادة والنقصان في الصحف التي في ايدي الملائكة وحمل قوله تعالى
(لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ) على ان
المحو والاثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة وان قوله (وعنده ام الكتاب)
اللوح المحفوظ ويدل على هذا الوجه سياق الآية وهو قوله (لكل أجل
كتاب) ثم قال (يمحو الله مايشاء ويثبت) اي من ذلك الكتاب (وعنده
ام الكتاب) اي اصله وهو اللوح المحفوظ وقيل يمحو الله مايشاء من الشرائع
وينسخه ويثبت مايشاء فلا ينسخه والسياق ادل على هذا الوجه من الوجه
الاول وهو قوله تعالى (وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ
أَجَلٍ كِتَابٌ) فأخبر تعالى ان الرسول لا يأتي بالايات من قبل نفسه بل
من عند الله ثم قال (لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ) اي ان
الشرائع لها اجل وغاية تنتهي اليها ثم تنسخ بالشريعة الأخرى فينسخ الله
مايشاء من الشرائع عند انقضاء الأجل ويثبت مايشاء وفي الآية اقوال أخرى
والله اعلم بالصواب . قوله ﴿ لم يخف عليه شيء قبل ان يخلقهم وعلم ما هم عاملون

قبل ان يخلقهم ﴾ ش . فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون ومالم يكن ان لو كان
كيف يكون كما قال تعالى (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ) وان كان يعلم انهم
لا يردون ولكن اخبر انهم لو ردوا لعادوا كما قال تعالى (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ

خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) وفي ذلك رد على الرافضة والقدرية الذين قالوا : انه لا يعلم الشيء قبل ان يخلقه ويوجده وهو من فروع مسئلة القدر وسيأتي لها زيادة بيان ان شاء الله تعالى . قوله ﴿ وامرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ﴾ ش. ذكر الشيخ الأمر والنهي بعد ذكر الخلق والقدر اشارة الى ان الله تعالى خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ) وقال تعالى (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) قوله ﴿ وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد الا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن ﴾ ش. قال تعالى (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً) وقال (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ) وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) وقال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً) وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ وَلا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) وقال تعالى (مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الى غير ذلك من الأدلة على انه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء ومن اضل سبيلا واكفر ممن يزعم ان الله شاء الايمان من الكافر والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . فان قيل يشكل على هذا قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا) الآية . وقوله تعالى (وَقَالَ

الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ) الآية وقوله تعالى (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله وكذلك ذم ابليس حيث اضاف الاغواء الى الله تعالى إذ قال (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُم فِي الأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُم أَجْمَعِينَ) قيل قد اجيب عن هذا بأجوبة من احسنها انه انكر عليهم ذلك لانهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه فجعلوا مشيئته دليل رضاه فرد الله عليهم ذلك اوانه انكر عليهم اعتقادهم ان مشيئة الله دليل على امره به اوانه انكر عليهم معارضته شرعه وامره الذي ارسل به رسله وانزل به كتبه بقضائه وقدره فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد وانما ذكروها معارضين بها لأمره دافعين بها لشرعه كفعل الزنادقة والجهال اذا امروا او نهوا احتجوا بالقدر ، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر فقال وانا اقطع يدك بقضاء الله وقدره يشهد لذلك قوله تعالى في الآية (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) فعلم ان مرادهم التكذيب فهو من قبل الفعل من اين له ان الله لم يقدره اطلع الغيب ، فان قيل فما يقولون في احتجاج آدم على موسى بالقدر إذ قال له اتلومني على امر قد كتبه الله علي قبل ان اخلق باربعين عاما ، وشهد النبي ﷺ ان آدم حج موسى اي غلب عليه بالحجة قيل نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة لصحته عن رسول الله ﷺ ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه كما فعلت القدرية ولا بالتأويلات الباردة بل الصحيح ان آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب وهو كان اعلم بربه وذنبه بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر فانه باطل

وموسى كان اعلم بابيه وبذنبه من ان يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه وانما وقع اللوم على المصيبة التي اخرجت اولاده من الجنة فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة فان القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب وهذا المعنى احسن ما قيل في الحديث فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فانه من تمام الرضى بالله ربا واما الذنب فليس للعبد ان يذنب واذا اذنب فعليه ان يستغفر ويتوب فيتوب من المعائب ويصبر على المصائب قال تعالى (فَاصبِرْ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَق وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) وقال تعالى (وَإنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً) واما قول ابليس رب بما اغويتني انما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالمقدر واثباته له الم تسمع قول نوح عليه السلام (وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أرَدْتُ أنْ أنْصَحَ لَكُمْ إنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ هوَ رَبُّكُمْ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ولقد احسن القائل

فما شئت كان وان لم أشأ ＊ وما شئت ان لم تشأ لم يكن

وعن وهب بن منبه انه قال نظرت في القدر فتحيرت ثم نظرت فيه فتحيرت ووجدت اعلم الناس بالقدر اكفهم عنه واجهل الناس بالقدر انطقهم به قوله

﴿ يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلا ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا ﴾

ش. هذا رد على المعتزلة قولهم بوجوب فعل الاصلح للعبد على الله وهي مسئلة الهدي والضلال قالت المعتزلة الهدي من الله بيان طريق الصواب والاضلال تسمية العبد ضالا وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه وهذا مبني على اصلهم الفاسد : ان افعال العباد مخلوقة لهم والدليل على ما قلناه قوله تعالى (إنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ولو كان الهدي بيان

الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه لانه ﷺ بين الطريق لمن احب وابغض وقوله تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كل نَفْسٍ هُدَاهَا - يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) ولو كان الهدي من الله البيان وهو عام في كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة . وكذا قوله تعالى (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) وقوله (وَمَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) قوله ﴿ وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله ﴾ ش. فانهم كما قال تعالى (وَاللهُ خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ) فمن هداه الى الايمان فبفضله وله الحمد ومن اضله فبعدله وله الحمد . وسيأتي لهذا المعنى زيادة ايضاح ان شاء الله تعالى فان الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد بل فرقه فاتيت به على ترتيبه قوله ﴿ وهو متعال عن الاضداد والانداد ﴾ ش. الضد المخالف والند المثل وهو سبحانه لا معارض له بل ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ولا مثل له كما قال تعالى (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ويشير الشيخ رحمه الله بنفي الضد والند الى الرد على المعتزلة في زعمهم ان العبد يخلق فعله قوله ﴿ لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لامره ﴾ ش. اي لا يرد قضاء الله راد ولا يعقب اى لا يؤخر حكمه مؤخر ولا يغلب امره غالب بل هو الله الواحد القهار قوله ﴿ آمنا بذلك كله وايقنا ان كلا من عنده ﴾ اما الايمان فسيأتي الكلام عليه ان شاء الله تعالى والايقان الاستقرار من قر الماء في الحوض اذا استقر والتنوين في كلا بدل اضافي اي كل كاين محدث من عند الله اي بقضائه وقدره وارادته ومشيئته وتكوينه وسيأتي الكلام على ذلك في موضعه ان شاء الله تعالى . قوله ﴿ و ان محمداً عبده المصطفى و نبيه المجتبي و رسوله

المرتضى ﴾ الاصطفاء والاجتباء والارتضاء متقارب المعنى واعلم ان كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ومن توهم ان المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه وان الخروج عنها اكمل فهو من اجهل الخلق واضلهم قال تعالى (وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ) الى غير ذلك من الآيات وذكر الله نبيه ﷺ باسم العبد في اشرف المقامات فقال في ذكر الاسرا (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ) وقال تعالى (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ) وقال تعالى (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى) وقال تعالى (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة ولذلك يقول المسيح عليه السلام يوم القيامة اذا طلبوا منه الشفاعة بعد الانبياء عليهم السلام «اذهبوا الى محمد عبد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر » فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى . وقوله وإن محمداً بكسر الهمزة عطفاً على قوله : إن الله وحده لا شريك له لأن الكل معمول القول اعني قوله نقول في توحيد الله والطريقة المشهورة عند اهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات لكن كثير منهم لايعرف نبوة الانبياء الا بالمعجزات وقد روي ذلك بطرق مضطر به والتزم كثير منهم انكار خرق العادات لغير الانبياء حتى انكروا كرامات الأولياء والسحر ونحو ذلك . ولاريب ان المعجزات دليل صحيح لكن الدليل غير محصور في المعجزات فان النبوة يدعيها اصدق الصادقين او اكذب الكاذبين ولا يلتبس هذا الا على اجهل الجاهلين بل قرائن احوالها تعرب عنهما وتعرب

بهما و التمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة فكيف بدعوى النبوة . وما احسن ما قال حسان رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تاتيك بالخبر

ومامن احد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ماظهر لمن له ادنى تمييز فان الرسول لابد ان يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولابد ان يفعل امورا يبين بها صدقه . والكاذب ينظر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة والصادق ضده بل كل شخصين ادعيا امرا احدهما صادق والآخر كاذب لا بد ان يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة اذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور كما في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة ولايزال الرجل يصدق حتى يكتب عندالله صديقا واياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار ولايزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ولهذا قال تعالى (هَلْ أُنَبِّئُكُم عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ) فالكهان ونحوهم وان كانوا احيانا يخبرون بشيء من المغيبات ويكون صدقا فمعهم من الكذب والفجور ما يبين ان الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بانبياء ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد « قد خبأت لك خبأ فقال هو الدخ » قال له النبي ﷺ « اخسأ فلن تعدو قدرك » يعني انما انت كاهن

وقد قال النبي ﷺ «يأتيني صادق وكاذب» وقال «أرى عرشا على الماء وذلك هو عرش الشيطان» وبين ان الشعراء يتبعهم الغاوون والغاوي الذي يتبع هواه وشهوته وان كان ذلك مضراله في العاقبة فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لعامه علم علما يقينا انه ليس بشاعر ولا كاهن والناس يميزون بين الصادق والكاذب بانواع من الأدلة هي في المدعي للصناعات والمقالات كمن يدعي الفلاحة والفصاحة والكتابة او علم النحو والطب والفقه وغير ذلك والنبوة مشتملة على علوم واعمال لابد ان يتصف الرسول بها وهي اشرف العلوم واشرف الاعمال فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب، ولا ريب ان المحققين على ان خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن مايحصل معه العلم الضروري كما يعرف الرجل رضى الرجل وحبه وبغضه وفرحه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه بامور تظهر على وجهه قد لا يمكن التعبير عنها كما قال تعالى (وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ) ثم قال (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) وقد قيل ما اسر احد سريرة الا اظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه فاذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن فكيف بدعوى المدعي انه رسول الله كيف يخفى صدق هذا من كذبه وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الادلة، ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ انه الصادق البار قال لها لما جاءه الوحي اني قد خشيت على عقلي فقالت كلا والله لايخزيك الله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق فهو لم يخف من تعمد الكذب فهو يعلم من نفسه ﷺ انه لم يكذب وانما خاف ان يكون

قد عرض له عارض سوء وهو المقام الثاني فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو
ما كان مجبولا عليه من مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم وقد علم من سنة الله
ان من جبله على الاخلاق المحمودة ونزهه عن الاخلاق المذمومة فانه لايخزيه ،
وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه
ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة وكذلك ورقة بن نوفل
لما اخبره النبي ﷺ بما رآه وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الانجيل بالعربية
فقالت له خديجة اي عم اسمع من ابن اخيك ما يقول فاخبره النبي ﷺ بما
رأى فقال هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وكذلك هرقل ملك الروم
فان النبي ﷺ لما كتب اليه كتابا يدعوه فيه الى الاسلام طلب من كان هناك
من العرب ، وكان ابو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة الى الشام
وسألهم عن احوال النبي ﷺ ، فسأل ابا سفيان وامر الباقين ان كذب ان
يكذبوه فصاروا بسكوتهم موافقين له في الاخبار سألهم هل كان في آبائه
من ملك فقالوا لا قال هل قال هذا القول احد قبله فقالوا لا وسألهم اهو
ذو نسب فيكم فقالوا نعم ، وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول
ما قال فقالوا لا ما جربنا عليه كذبا ، وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس ام اشرافهم
فذكروا ان الضعفاء اتبعوه ، وسألهم هل يزيدون ام ينقصون فذكروا أنهم
يزيدون ، وسألهم هل يرجع احد منهم عن دينه سخطة له بعد ان يدخل فيه
فقالوا لا ، وسألهم هل قاتلتموه قالوا نعم ، وسألهم عن الحرب بينهم وبينه
فقالوا يدال علينا مرة وندال عليه اخرى ، وسألهم هل يغدر فذكروا انه
لايغدر ، وسألهم بما ذا يأمركم فقالوا يأمرنا ان نعبد الله وحده لا نشرك به

شيئا وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .
وهذه اكثر من عشر مسائل ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الادلة فقال
سألتكم هل كان في آبائه من ملك فقلتم لا ، قلت لو كان في آبائه من ملك لقلت
رجل يطلب ملك ابيه ، وسألتكم هل قال هذا القول فيكم احد قبله فقلتم لا
فقلت لو قال هذا القول احد قبله لقلت رجل ائتم بقول قيل قبله ، وسألتكم
هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال فقلتم لا ، فقلت قد علمت
انه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ، وسألتكم
أضعفاء الناس يتبعونه أم اشرافهم ، فقلتم ضعفاؤهم وهم اتباع الرسل يعني
في أول امرهم ثم قال ، وسألتكم ايزيدون ام ينقصون فقلتم بل يزيدون
وكذلك الايمان حتى يتم ، وسألتكم هل يرتد احد منهم عن دينه سخطة له
بعد ان يدخل فيه فقلتم لا وكذلك الايمان اذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه
احد وهذا من اعظم علامات الصدق والحق فان الكذب والباطل لابد ان
ينكشف في آخر الامر فيرجع عنه صاحبه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه والكذب
لا يروج الا قليلا ثم ينكشف ، وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه فقلتم انها
دول ، وكذلك الرسل تبتلي وتكون العاقبة لها ، قال وسألتكم هل يغدر فقلتم لا
وكذلك الرسل لا تغدر وهو لما كان عنده من علمه بعادة الرسل وسنة الله
فيهم انه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وانهم لا يغدرون علم ان هذه علامات
الرسل وان سنة الله في الانبياء والمؤمنين ان يبتليهم بالسراء والضراء لينالوا
درجة الشكر والصبر . كما في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « والذي نفسي
بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك لاحد الا للمؤمن

ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له»
والله تعالى قد بين في القرآن ما في ادالة العدو عليهم يوم احد من الحكمة
فقال (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) الآيات وقال تعالى
(الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ) الآيات
الى غير ذلك من الآيات والاحاديث الدالة على سنته في خلقه وحكمته التي
بهرت العقول قال، وسألتكم عما يأمر به فذكرتم انه يأمركم ان تعبدوا الله ولا
تشركوا به شيئا ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصلة وينهاكم عما كان
يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي وقد كنت اعلم ان نبيا يبعث ولم اكن اظنه منكم
ولوددت اني اخلص اليه ولولا ما انا فيه من الملك لذهبت اليه وان يكن
ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين وكان المخاطب بذلك ابو سفيان بن
حرب وهو حينئذ كافر من اشد الناس بغضا وعداوة للنبي ﷺ، قال ابو
سفيان بن حرب فقلت لاصحابي ونحن خروج لقد امر امر ابن ابي كبشة
انه ليعظمه ملك بني الاصفر وما زلت موقنا بان امر النبي ﷺ سيظهر حتى
ادخل الله على الاسلام وانا كاره. ومما ينبغي ان يعرف ان مايحصل في القلب
بمجموع امور قد لايستقل بعضها به بل مايحصل للانسان من شفيع ووزير
وشكر وفرح وغم بامور مجتمعة لا يحصل ببعضها لكن ببعضها قد يحصل
بعض الامر وكذلك العلم بخبر من الاخبار فان خبر الواحد يحصل للقلب نوع
ظن ثم الآخر يقويه الى ان ينتهي الى العلم حتى يتزايد ويقوى وكذلك الادلة
على الصدق والكذب ونحو ذلك، وايضا فان الله سبحانه ابقى في العالم الآثار
الدالة على ما فعله بانبيائه والمؤمنين من الكرامة وما فعله بمكذبيهم من العقوبة

كثبوت الطوفان واغراق فرعون وجنوده ، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيا بعد نبي في سورة الشعراء كقصة موسى وابراهيم ونوح ومن بعده يقول في آخر كل قصة (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) وبالجملة فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول انه رسول الله وان اقواما اتبعوهم وان اقواما خالفوهم وان الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب اعداءهم هو من اظهر العلوم المتواترة واجلاها ونقل اخبار هذه الأمور اظهر واوضح من نقل اخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب كبقراط وجالينوس وبطليموس وسقراط وافلاطون وارسطو واتباعه ونحن اليوم اذا علمنا بالتواتر من احوال الأنبياء واوليائهم واعدائهم علمنا يقينا انهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة : منها انهم اخبروا الامم بما سيكون من انتصارهم وخذلان اولئك وبقاء العاقبة لهم . ومنها ما احدثه الله لهم من نصرهم واهلاك عدوهم اذا عرف الوجه الذي حصل عليه كغرق فرعون وغرق قوم نوح وبقية احوالهم عرف صدق الرسل . ومنها ان من عرف ماجاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل احوالها تبين له انهم اعلم الخلق وانه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل وان فيما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعهم ومنع ما يضرهم ما يبين انه لا يصدر الا عن راحم بر يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق . ولذكر دلائل نبوة محمد ﷺ من المعجزات وبسطها موضع آخر وقد افردها الناس بمصنفات كالبيهقي وغيره بل انكار رسالته ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى ونسبة له الى الظلم والسفه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل جحد

للرب بالكلية وانكار. وبيان ذلك انه اذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق بل ملك ظالم فقد تهيأ له ان يفترى على الله و يتقول عليه و يستمر حتى يحلل و يحرم و يفرض الفرائض و يشرع الشرائع و ينسخ الملل و يضرب الرقاب ويقتل اتباع الرسل وهم اهل الحق ويسبي نساءهم ويغنم اموالهم وديارهم ويتم له ذلك حتى تفتح الأرض وينسب ذلك كله الى امر الله له به ومحبته له والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثا وعشرين سنة وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ويعلي امره ويمكن له من اسباب النصر الخارجة عن عادة البشر وابلغ من ذلك انه يجيب دعواته ويهلك اعداءه ويرفع له ذكره هذا وهو عندهم في غاية الكذب والافتراء والظلم فانه لا اظلم ممن كذب على الله وابطل شرائع انبيائه وبدلها وقتل اولياءه واستمرت نصرته عليهم دائما والله تعالى يقره على ذلك ولا يأخذ منه باليمين ولا يقطع منه الوتين فيلزمهم ان يقولوا لا صانع للعالم ولا مدبر ولو كان له مدبر قدير حليم لاخذ على يديه ولقابله اعظم مقابلة وجعله نكالا للصالحين اذ لا يليق بالملوك غير ذلك فكيف بملك الملوك واحكم الحاكمين. ولا ريب ان الله تعالى قد رفع له ذكره واظهر دعوته والشهادة له بالنبوة على رءوس الاشهاد في سائر البلاد ونحن لا ننكر ان كثيرا من الكذابين قام في الوجود وظهرت له شوكة ولكن لم يتم امره ولم تطل مدته بل يسلط الله عليه رسله واتباعهم وقطعوا دابره واستأصلوه. هذه سنة الله التي قد خلت من قبل حتى ان الكفار يعلمون ذلك. قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ) افلا تراه يخبر ان كماله وحكمته وقدرته تأبى ان يقر من تقول عليه بعض الأقاويل لابد ان

يجعله عبرة لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقولين عليه . وقال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأ اللهُ يَخْتِمْ على قَلْبِكَ) . وهنا انتهى جواب الشرط ثم اخبر خبراً جازماً غير معلق انه يمحق الباطل ويحق الحق وقال تعالى (وَمَا قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) فأخبر سبحانه ان من نفى عنه الارسال والكلام لم يقدره حق قدره . وقد ذكروا فروقا بين النبي ﷺ والرسول واحسنها ان من نباه الله بخبر السماء ان امره ان يبلغ غيره فهو نبي رسول وان لم يأمره ان يبلغ غيره فهو نبي وليس برسول فالرسول اخص من النبي فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ولكن الرسالة اعم من جهة نفسها فالنبوة جزء من الرسالة اذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف الرسل فأنهم لا يتناولون الانبياء وغيرهم بل الامر بالعكس فالرسالة اعم من جهة نفسها واخص من جهة اهلها وارسال الرسل من اعظم نعم الله على خلقه وخصوصاً محمدا ﷺ كما قال تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) قوله ﴿وانه خاتم الانبياء﴾ قال تعالى (وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) وقال ﷺ «مثلي ومثل الانبياء كمثل قصر احسن بناؤه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه الا موضع تلك اللبنة لا يعيبون سواها فكنت انا سددت موضع تلك اللبنة ختم بي البنيان وختم بي الرسل» اخرجاه في الصحيحين وقال ﷺ «ان لي اسماء انا محمد وانا احمد وانا الماحي يمحو الله بي الكفر وانا الحاشر الذي يحشر الناس

على قدمي وانا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي » وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ «وانه سيكون في امتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم انه نبي وانا خاتم النبيين لا نبي بعدي» الحديث ، ولمسلم ان رسول الله ﷺ قال «فضلت على الانبياء بست : اعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب واحلت لي الغنائم وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا وارسلت الى الخلق كافة وختم بي النبيون » قوله ﴿ وامام الاتقياء ﴾ الامام الذى يؤتم به اي يقتدون به والنبي ﷺ انما بعث للاقتداء به لقوله تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ) وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الاتقياء. قوله ﴿ وسيد المرسلين ﴾ ش. قال ﷺ «انا سيد ولد آدم يوم القيمة واول من ينشق عنه القبر واول شافع واول مشفع» رواه مسلم وفي اول حديث الشفاعة «انا سيد الناس يوم القيمة» وروى مسلم والترمذي عن واثلة بن الاسقع قال قال رسول الله ﷺ «ان الله اصطفى كنانة من ولد اسمعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى بنى هاشم من قريش واصطفانى من بنى هاشم » فان قيل يشكل على هذا قوله ﷺ « لا تفضلوني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيمة فاكون اول من يفيق فاجد موسى باطشا بساق العرش فلا ادري هل افاق قبلى او كان ممن استثنى الله» خرجاه في الصحيحين فكيف يجمع بين هذا وبين قوله انا سيد ولد آدم ولا فخر . (فالجواب) ان هذا كان له سبب فانه كان قد قال يهودي لا والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه مسلم وقال اتقول هذا ورسول الله ﷺ بين اظهرنا فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه فقال النبي ﷺ هذا لأن التفضيل اذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموماً بل

نفس الجهاد اذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموما فان الله حرم الفخر وقد قال تعالى (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ) وقال تعالى (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) فعلم ان المذموم انما هو التفضيل على وجه الفخر او على وجه الانتقاص بالمفضول وعلى هذا يحمل ايضا قوله ﷺ « لا تفضلوا بين الانبياء » ان كان ثابتا فان هذا قد روي في نفس حديث موسى وهو في البخاري وغيره لكن بعض الناس يقول ان فيه علة بخلاف حديث موسى فانه صحيح لا علة فيه باتفاقهم ، وقد اجاب بعضهم بجواب آخر وهو ان قوله ﷺ « لا تفضلوني على موسى » وقوله لا تفضلوا بين الانبياء نهي عن التفضيل الخاص اي لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه بخلاف قوله انا سيد ولد آدم ولا فخر فانه تفضيل عام فلا يمنع منه وهذا كما لو قيل فلان افضل اهل البلد لا ينصب على افرادهم بخلاف مالو قيل لأحدهم : فلان افضل منك . ثم اني رأيت الطحاوي قد اجاب بهذا الجواب في شرح معاني الآثار . واما ما يروى ان النبي ﷺ قال « لا تفضلوني على يونس ابن متى » وان بعض الشيوخ قال : لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يعطى مالا جزيلا فلما اعطوه فسره بأن قرب يونس من الله وهو في بطن الحوت كقربي من الله ليلة المعراج وعدوا هذا تفسيراً عظيما وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظاً ومعنى فان هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه احد من اهل الكتب التي يعتمد عليها وانما اللفظ الذي في الصحيح « لا ينبغي لعبد ان يقول انا خير من يونس بن متى » . وفي رواية « من قال اني خير من يونس بن متى فقد كذب » وهذا اللفظ يدل على العموم اي لا ينبغي لأحد ان يفضل نفسه على يونس بن

متى ليس فيه نهي المسلمين ان يفضلوا محمداً على يونس وذلك لان الله تعالى قد اخبر عنه ان التقمه الحوت وهو مليم اي فاعل ما يلام عليه . وقال تعالى (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فقد يقع في نفس بعض الناس انه اكمل من يونس فلا يحتاج الى هذا المقام اذ لا يفعل ما يلام عليه ومن ظن هذا فقد كذب بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس ان لا إله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين كما قال اول الأنبياء وآخرهم فأولهم آدم قد قال : ربنا ظلمنا انفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . وآخرهم وافضلهم وسيدهم محمد ﷺ قال في الحديث الصحيح حديث الاستفتاح من رواية علي بن ابي طالب وغيره بعد قوله وجهت وجهي الى آخره « اللهم انت الملك لا إله إلا انت ، انت ربي وانا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا لا يغفر الذنوب الا انت » الى آخر الحديث . وكذا قال موسى عليه السلام : رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم . وايضا فيونس ﷺ لما قيل فيه فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت فنهى نبينا عن التشبه به وامره بالتشبه بأولي العزم حيث قيل فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل فقد يقول من يقول : انا خير من يونس . للأفضل ان يفخر على من دونه فكيف اذا لم يكن افضل فان الله لا يحب كل مختال فخور وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ انه قال « اوحى الي ان تواضعوا حتى لا يفخر احد على احد ولا يبغي احد على احد » فالله تعالى نهى ان يفخر على عموم المؤمنين فكيف على نبي كريم . فلهذا قال لا ينبغي لأحد ان يقول : انا خير من يونس

ابن متى فهذا نهي عام لكل احد ان يفضل ويفتخر على يونس وقوله من قال اني خير من يونس بن متى فقد كذب فانه لو قدر انه كان افضل فهذا الكلام يصير نقصاً فيكون كاذبا وهذا لايقوله نبي كريم بل هو تقدير مطلق اي من قال هذا فهو كاذب وان كان لايقوله نبي كما قال تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) وان كان ﷺ معصوماً من الشرك لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال . وانما اخبر ﷺ انه سيد ولد آدم لأنا لا يمكننا ان نعلم ذلك الا بخبره اذ لانبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عندالله كما اخبرنا هو بفضائل الانبياء قبله صلى الله عليهم وسلم اجمعين . ولهذا اتبعه بقوله ولافخر كما جاء في رواية وهل يقول « من يؤمن بالله واليوم الآخر ان مقام الذي اسرى به الى ربه وهو مقرب معظم مكرم كمقام الذي التقى في بطن الحوت وهو مليم » واين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب فهذا في غاية التقريب وهذا في غاية التأديب فانظر الى هذا الاستدلال لان بهذا المعنى المحرف اللفظ لم يقله الرسول وهل يقاوم هذا الدليل على نفي علو الله تعالى على خلقه للأدلة الصحيحة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه التي تزيد على الف دليل كما يأتي الاشارة اليها عند قول الشيخ رحمه الله محيط بكل شيء وفوقه ان شاء الله تعالى . قوله ﴿ وحبيب رب العالمين ﴾ ش.

ثبت له ﷺ اعلى مراتب المحبة وهي الخلة كما صح عنه ﷺ انه قال « ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا » وقال « ولو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الرحمن » والحديثان في الصحيح وهما يبطلان قول من قال الخلة لابراهيم والمحبة لمحمد فابراهيم خليل الله ومحمد حبيبه ، وفي الصحيح ايضا اني ابرأ الى كل خليل من خلته والمحبة قد ثبتت

لغيره قال تعالى (وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ - فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ - إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) فبطل قول من خص الخلة بابراهيم والمحبة بمحمد بل الخلة خاصة بهما والمحبة عامة وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه ان ابراهيم خليل الله الا وانا حبيب الله ولا فخر لم يثبت والمحبة مراتب . (اولها) العلاقة وهي تعلق القلب بالمحبوب . (والثانية) الارادة وهي ميل القلب الى محبوبه وطلبه له (الثالثة) الصبابة وهي انصباب القلب اليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدور (الرابعة) الغرام وهي الحب اللازم للقلب ومنه الغريم لملازمته ومنه ان عذابها كان غراما (الخامسة) المودة والود وهي صفو المحبة وخالصها ولبها قال تعالى (سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (السادسة) الشغف وهي وصول المحبة الى شغاف القلب (السابعة) العشق وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه ولكن لا يوصف به الرب تعالى ولا العبد في محبة ربه وان كان قد اطلقه بعضهم واختلف في سبب المنع فقيل عدم التوقيف وقيل غير ذلك ولعل امتناع اطلاقه ان العشق محبة مع شهوة (الثامنة) التقسيم وهو بمعنى التعبد (التاسعة) التعبد (العاشرة) الخلة وهي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه وقيل في ترتيبها غير ذلك وهذا الترتيب تقريب حسن لا يعرف حسنه الا بالتأمل في معانيه . واعلم ان وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته كسائر صفاته تعالى وانما يوصف الله تعالى من هذه الانواع بالارادة والود والمحبة والخلة حيثما ورد النص ، وقد اختلف في تحديد المحبة على اقوال نحو ثلاثين قولا ولا تحد المحبة بحد اوضح منها فالحدود لا تزيدها الا خفاء وهذه الاشياء الواضحة لا تحتاج الى تحديد كالماء والهواء

والتراب والجوع ونحو ذلك قوله ﴿ وكل دعوة النبوة بعده فغي وهوى ﴾ ش.
لما ثبت انه خاتم النبيين علم ان من ادعى بعده النبوة فهو كاذب ولا يقال فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه لانا نقول هذا لا يتصور ان يوجد وهو من باب فرض المحال لأن الله تعالى لما اخبر انه خاتم النبيين . فمن المحال ان يأتي مدع يدعي النبوة ولا يظهر امارة كذبه في دعواه والغي ضد الرشاد والهوى عبارة عن شهوة النفس اي ان تلك الدعوى بسبب هوى النفس لا عن دليل فتكون باطلة قوله ﴿ وهو المبعوث الى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى وبالنور والضياء ﴾ اما كونه مبعوثا الى عامة الجن فقال تعالى حكاية عن قول الجن (يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ) الآية وكذا سورة الجن تدل على انه ارسل اليهم ايضا قال مقاتل لم يبعث الله رسولا الى الانس والجن قبله وهذا قول بعيد فقد قال تعالى (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ) الآية والرسل من الانس فقط وليس من الجن رسول كذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف ، وقال ابن عباس الرسل من بني آدم ومن الجن نذر وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن (إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى) الآية يدل على ان موسى مرسل اليهم ايضا والله اعلم . وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم انه زعم ان في الجن رسلا واحتج بهذه الآية الكريمة ، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر لانها محتملة وليست بصريحة وهي والله اعلم كقوله (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ) والمراد من احدهما واما كونه مبعوثا الى كافة الورى فقد قال (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) وقد قال تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) وقال تعالى

(وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) أي وأنذر من بلغه وقال تعالى (وأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً) وقال تعالى (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ) الآية وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) وقد قال تعالى (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ) وقال ﷺ « اعطيت خمسا لم يعطهن احد من الانبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الارض مسجدا وطهورا فايما رجل من امتي ادركته الصلاة فليصل واحلت لي الغنائم ولم تحل لاحد قبلي واعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث الى قومه خاصة وبعثت الى الناس عامة » اخرجاه في الصحيحين وقال ﷺ « لا يسمع بي رجل من هذه الامة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي الا دخل النار » رواه مسلم وكونه ﷺ مبعوثا الى الناس كافة معلوم من دين الاسلام بالضرورة . واما قول النصارى انه رسول الى العرب خاصة فظاهر البطلان فانهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به . وقد قال انه رسول الله الى الناس عامة والرسول لا يكذب فلزم تصديقه حتما فقد ارسل رسله وبعث كتبه في اقطار الارض الى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر ملوك الاطراف يدعو الى الاسلام وقوله وكافة الورى في جر كافة نظر، فانهم قالوا لم تستعمل كافة في كلام العرب الا حالا واختلفوا في اعرابها في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ) على ثلاثة اقوال . (احدها) انها حال من الكاف في ارسلناك وهي اسم فاعل والتاء فيها للمبالغة اي الا كافا للناس عن الباطل وقيل هي مصدر كف فيه بمعنى كفا اي الا تكف الناس كفا ووقوع المصدر حالا كثير (الثاني)

انها حال من الناس واعترض بان حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور واجيب بانه قد جاء عن العرب كثيرا فوجب قبوله وهو اختيار ابن مالك اى (وما ارسلناك الا للناس بما كافة) (الثالث) انها صفة لمصدر محذوف اي ارسالة كافة واعترض بما تقدم انها لم تستعمل الا حالا . وقوله بالحق والهدى وبالنور والضياء هذه اوصاف ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين والشرع المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الادلة والضياء اكمل من النور قال تعالى (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً) قوله ﴿ وان القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا وانزله على رسوله وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقا وايقنوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر وقد ذمه الله وعابه واوعده بسقر حيث قال تعالى (سَأُصْلِيهِ سَقَرَ) فلما أوعد الله بسقر لمن قال (ان هذا الا قول البشر) علمنا وايقنا انه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر ﴾ ش . هذه قاعدة شريفة واصل كبير من اصول الدين ضل فيه طوائف كثيرة من الناس وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الادلة من الكتاب والسنة لمن تدبرها وشهدت به الفطرة السليمة التى لم تغير بالشبهات والشكوك والاراء الباطلة وقد افترق الناس في مسئلة الكلام على تسعة اقوال . (احدها) ان كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني اما من العقل الفعال عند بعضهم او من غيره وهذا قول الصابئة والمتفلسفة . (وثانيها) انه مخلوق خلقه الله منفصلا عنه وهذا قول المعتزلة . (وثالثها) انه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار وان عبر عنه بالعربية كان قرآنا وان عبر عنه بالعبرانية

كان توراة وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالاشعري وغيره . (ورابعها) انه حروف واصوات ازلية مجتمعة في الازل وهذا قول طائفة من اهل الكلام ومن اهل الحديث . (وخامسها) انه حروف واصوات لكن تكلم الله بها بعد ان لم يكن متكلما وهذا قول الكرامية وغيرهم . (وسادسها) ان كلامه يرجع الى ما يحدثه من علمه وارادته القائم بذاته وهذا يقوله صاحب المعتبر ويميل اليه الرازي في المطالب العالية . (وسابعها) ان كلامه يتضمن معنى قائما بذاته هو ماخلقه في غيره وهذا قول ابي منصور الماتريدي . (وثامنها) انه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الاصوات وهذا قول ابي المعالي ومن تبعه. (وتاسعها) انه تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وان نوع الكلام قديم وان لم يكن الصوت المعين قديما وهذا المأثور عن ائمة الحديث والسنة وقول الشيخ رحمه الله وان القرآن كلام الله ان بكسر الهمزة عطف على قوله ان الله واحد لاشريك له ثم قال وان محمدا عبده المصطفى وكسر همزة ان في المواضع الثلاثة لانها معمول القول اعني قوله في اول كلامه نقول في توحيد الله . وقوله كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا رد على المعتزلة وغيرهم فان المعتزلة تزعم ان القرآن لم يبد منه كما تقدم حكاية قولهم قالوا واضافته اليه اضافة تشريف كبيت الله وناقة الله يحرفون الكلام عن مواضعه وقولهم باطل فان المضاف الى الله تعالى معان واعيان فاضافة الاعيان الى الله للتشريف وهي مخلوقة له كبيت الله وناقة الله بخلاف اضافة المعاني كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه وحياته وعلوه وقهره فان هذا كله من صفاته لا يمكن ان يكون شيء من ذلك

مخلوقا والوصف بالتكلم من اوصاف الكمال وضده من اوصاف النقص قال تعالى (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلا) فكان عباد العجل مع كفرهم اعرف بالله من المعتزلة فانهم لم يقولوا لموسى وربك لا يتكلم ايضا وقال تعالى عن العجل ايضا (أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراً وَلاَ نَفْعاً) فعلم ان نفي رجوع القول ونفي التكلم نقص يستدل به على عدم الوهية العجل وغاية شبهتهم انهم يقولون يلزم منه التشبيه والتجسيم فيقال لهم اذا قلنا انه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله انتفت . الاترى انه تعالى قال (الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ) فنحن نؤمن انها تكلم ولا نعلم كيف تتكلم وكذا قوله تعالى (وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) وكذلك تسبيح الحصا والطعام وسلام الحجر كل ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد من لديه المعتمد على مقاطع الحروف ، والى هذا اشار الشيخ رحمه الله بقوله منه بدا بلا كيفية قولا اي ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به واكد هذا المعنى بقوله قولا اتى بالمصدر المعرف الحقيقة كما اكد الله تعالى الكلام بالمصدر المثبت النافي للمجاز في قوله (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيما) فما ذا بعد الحق الا الضلال ، ولقد قال بعضهم لابي عمرو بن العلا احد القراء السبعة اريد ان تقرأ وكلم الله موسى بنصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله فقال له ابو عمرو هب اني قرأت هذه الآية كذا فكيف تصنع بقوله تعالى (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) فبهت المعتزلي وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكلم الله تعالى لاهل الجنة وغيرهم قال تعالى

سَلَامٌ قَوْلاً مِن رَبٍّ رَحِيمٍ) عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ . « بينا اهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا ابصارهم فاذا الرب جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وهو قول الله تعالى (سلام قولا من رب رحيم) فلا يلتفتون الى شيء مما هم فيه من النعيم ماداموا ينظرون اليه حتى يحتجب عنهم وتبقى بركته ونوره » رواه ابن ماجه وغيره ففي هذا الحديث اثبات صفة الكلام واثبات الرؤية واثبات العلو وكيف يصح مع هذا ان يكون كلام الرب كله معنى واحدا وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ) فاهانهم بترك تكليمهم والمراد انه لا يكلمهم تكليم تكريم هو الصحيح اذ قد اخبر في الآية الاخرى انه يقول لهم في النار اخسأوا فيها ولا تكلمون فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا في ذلك هم واعداؤه سواء ولم يكن في تخصيص اعدائه بانه لا يكلمهم فائدة اصلا وقال البخاري في صحيح باب كلام الرب تبارك وتعالى مع اهل الجنة وساق فيه عدة احاديث فافضل نعيم اهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم فانكار ذلك انكار لروح الجنة واعلى نعيمها وافضله الذي ماطابت لاهلها الا به . واما استدلالهم بقوله تعالى (اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) والقرآن شيء فيكون داخلا في عموم كل فيكون مخلوقا فمن اعجب العجب . وذلك ان افعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى وانما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها الله فاخرجوها من عموم كل وادخلوا كلام الله في عمومها مع انه صفة من صفاته به تكون الاشياء المخلوقة اذ بأمره تكون المخلوقات قال تعالى (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

ففرق بين الخلق والأمر فلو كان الأمر مخلوقا للزم ان يكون مخلوقا بأمر آخر والآخر بآخر الى ما لانهاية له فيلزم التسلسل وهو باطل وطرد باطلهم ان تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة كالعلم والقدرة وغيرهما وذلك صريح الكفر فان علمه شيء وقدرته شيء وحياته شيء فيدخل ذلك في عموم كل فيكون مخلوقا بعد ان لم يكن، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وكيف يصح ان يكون متكلما بكلام يقوم بغيره ولو صح ذلك للزم ان يكون ما احدثه من الكلام في الجمادات كلامه وكذلك ايضا ما خلقه في الحيوانات ولا يفرق حينئذ بين نطق وانطق وانما قالت الجلود انطقنا الله ولم تقل نطق الله بل يلزم ان يكون متكلما بكل كلام خلقه في غيره زورا كان او كذبا او كفرا وهذيانا تعالى الله عن ذلك. وقد طرد ذلك الاتحادية فقال ابن عربي

وكل كلام في الوجود كلامه * سواء علينا نثره و نظامه

ولو صح ان يوصف احد بصفة قامت بغيره لصح ان يقال للبصير اعمى وللأعمى بصير لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره والأعمى قد قام وصف البصر بغيره ولصح ان يوصف الله تعالى بالصفات التى خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ونحو ذلك. وبمثل ذلك الزم الامام عبد العزيز المكي بشرا المريسي بين يدي المأمون بعد ان تكلم معه ماتزما ان لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة فقال بشر: ياامير المؤمنين ليدع مطالبتي بنص التنزيل ويناظرني بغيره فان لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة والا فدمى حلال قال عبد العزيز: تسألني أم اسألك فقال بشر انت وطمع في. فقلت له: يلزمك واحدة من ثلاث لابد منها. اما ان

تقول ان الله خلق القرآن وهو عندي انا كلامه في نفسه او خلقه قائما بذاته ونفسه او خلقه في غيره قال اقول : خلقه كما خلق الأشياء كلها و حاد عن الجواب فقال المأمون : اشرح انت هذه المسئلة ودع بشرا فقد انقطع فقال عبد العزيز : ان قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال لأن الله لا يكون محلا للحوادث المخلوقة ولايكون منه شيء مخلوقا وان قال خلقه في غيره فهو كلامه وان قال خلقه قائما بنفسه وذاته فهذا محال لايكون الكلام الامن متكلم كما لاتكون الارادة الامن مريد ولاالعلم الا من عالم ولايعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته فلما استحال من هذه الجهات ان يكون مخلوقا علم انه صفة لله هذا مختصر من كلام الامام عبد العزيز في الحيدة وعموم كل في كل موضع بحسبه ويعرف ذلك بالقرائن الا ترى الى قوله تعالى (تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ) ومساكنهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح وذلك لأن المراد تدمر كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير وكذا قوله تعالى حكاية عن بلقيس (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) المراد من كل شيء يحتاج اليه الملوك وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام اذ مراد الهدهد انها ملكة كاملة في امر الملك غير محتاجة الى ما يكمل به امر ملكها . ولهذا نظائر كثيرة والمراد من قوله تعالى خالق كل شيء اي كل شيء مخلوق وكل موجود سوى الله فهو مخلوق فدخل في هذا العموم افعال العباد حتما ولم يدخل في العموم الخالق تعالى وصفاته ليست غيره لانه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال وصفاته ملازمة لذاته المقدسة لايتصور انفصال صفاته عنه كما تقدم الاشارة الى هذا المعنى عند قوله مازال بصفاته قديما قبل خلقه بل نفس ما استدلوا

به يدل عليهم فاذا كان قوله تعالى (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) مخلوقا لا يصلح ان يكون دليلا
واما استدلالهم بقوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً) فما افسده من استدلال
فان جعل اذا كان بمعنى خلق يتعدى الى مفعول واحد كقوله تعالى (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور) وقوله تعالى (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ - وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ - وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً) واذا تعدى الى مفعولين لم يكن بمعنى خلق
قال تعالى (وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً)
وقال تعالى (وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُم) وقال تعالى (الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ) وقال تعالى (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) وقال تعالى (وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ) وقال تعالى (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنَاثاً)
ونظائره كثيرة فكذا قوله تعالى (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً) . وما افسد استدلالهم بقوله تعالى (نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) على ان الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة فسمعه موسى منها وعموا عما قبل هذه الكلمة وما بعدها فان الله تعالى قال (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ) والنداء هو الكلام من بعد فسمع موسى النداء من حافة الوادي ثم قال (فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ) اى ان النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة كما يقول سمعت كلام زيد من البيت يكون من البيت لابتداء الغاية لا ان البيت هو المتكلم ولو كان الكلام مخلوقا في الشجرة لكانت الشجرة هي القائلة يا موسى اني انا الله رب العالمين . وهل قال اني انا الله رب العالمين غير رب العالمين ولو كان هذا الكلام بدا من غير

الله لكان قول فرعون انا ربكم الاعلى صدقا اذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله وقد فرقوا بين الكلامين على اصولهم الفاسدة ان ذاك كلام خلقه الله في الشجرة وهذا كلام خلقه فرعون فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالقا غير الله . وسيأتي الكلام على مسئلة افعال العباد ان شاء الله تعالى فان قيل فقد قال تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وهذا يدل على ان الرسول احدثه اما جبرائيل او محمد قيل ذكر الرسول معرف انه مبلغ عن مرسله لانه لم يقل انه قول ملك اونبي فعلم انه بلغه عمن ارسله به لا انه انشاه من جهة نفسه وايضا فالرسل في احدى الآيتين جبرائيل وفي الاخرى محمد فاضافته الى كل منهما تبين ان الاضافة للتبليغ اذ لو احدثه احدهما امتنع ان يحدثه الآخر . وايضا فقوله رسول امين دليل على انه لا يزيد في الكلام الذي ارسل بتبليغه ولاينقص منه بل هو امين على ما ارسل به يبلغه عن مرسله وايضا فان الله قد كفر من جعله قول البشر ومحمد ﷺ بشر فمن جعله قول محمد بمعنى انه انشأ فقد كفر ولافرق بين ان يقول انه قول بشر اوجني او ملك والكلام كلام من قاله مبتديا لا من قاله مبلغا ومن سمع قائلا يقول

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

قال هذا شعر امرىء القيس ومن سمعه يقول « انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء مانوى » قال هذا كلام الرسول وان سمعه يقول (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ - الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ - مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ - إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال هذا كلام الله ان كان عنده خبر ذلك والا قال لا ادري من كلام من هذا ولو انكر عليه احد ذلك لكذب . ولهذا من سمع من غيره نظما ونثرا

يقول له هذا كلام من هذا كلامك او كلام غيرك . وبالجملة فاهل السنة كلهم من اهل المذاهب الاربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على ان كلام الله غير مخلوق ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في ان كلام الله هل هو معنى واحد بالذات او انه حروف واصوات تكلم الله بها بعد ان لم يكن متكلما او انه لم يزل متكلما اذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وان نوع الكلام قديم وان يطلق بعض المعتزلة على القرآن انه غير مخلوق ومرادهم انه غير مختلق مفترى مكذوب بل هو حق وصدق ، ولا ريب ان هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين والنزاع بين اهل القبلة انما هو في كونه مخلوقا خلقه الله او هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته واهل السنة انما سئلوا عن هذا والا فكونه مكذوبا مفترى مما لا ينازع مسلم في بطلانه ولاشك ان مشائخ المعتزلة وغيرهم من اهل البدع معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا سنة ولا عن ائمة الصحابة والتابعين لهم باحسان وانما يزعمون ان العقل دلهم عليه وانما يزعمون انهم تلقوا من الائمة الشرع ولو ترك الناس على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع ولكن القى الشيطان الى بعض الناس اغلوطة من اغاليطه فرق بها بينهم وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد والذي يدل عليه كلام الطحاوي رحمه الله انه تعالى لم يزل متكلما اذا شاء كيف شاء وان نوع كلامه قديم وكذلك ظاهر كلام الامام ابي حنيفة رحمه الله في الفقه الاكبر فانه قال والقرآن في المصاحف مكتوب وفي القلوب محفوظ وعلى الالسن مقروء وعلى النبي ﷺ منزل ولفظنا بالقرآن مخلوق والقرآن غير مخلوق وما ذكر الله في القرآن عن موسى عليه

السلام وغيره وعن فرعون وابليس فان ذلك كلام الله اخبارا عنهم وكلام
موسى وغيره من المخلوقين مخلوق والقرآن كلام الله لا كلامهم وسمع موسى
عليه السلام كلام الله تعالى فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم
يزل وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا
ويرى لا كرؤيتنا ويتكلم لا ككلامنا انتهى . فقوله ولما كان موسى كلمه بكلامه
الذي هو من صفاته يعلم منه انه حين جاء كلمه لأنه لم يزل ولا يزال ازلا وابدا
يقول يا موسى كما يفهم ذلك من قوله تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾
ففهم منه الرد على من يقول من اصحابه انه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور ان
يسمع وانما يخلق الله الصوت في الهواء كما قاله ابو منصور الماتريدي وغيره
وقوله الذي هو من صفاته لم يزل رد على من يقول انه حدث له وصف الكلام
بعد ان لم يكن متكلما . وبالجملة فكل ما تحتج به المعتزلة مما يدل على انه كلام
متعلق بمشيئته وقدرته وانه يتكلم اذا شاء وانه يتكلم شيئا بعد شيء فهو
حق يجب قبوله وما يقوله به من يقول ان كلام الله قائم بذاته وانه صفة له
والصفة لا تقوم الا بالموصوف فهو حق يجب قبوله والقول به فيجب الاخذ
بما في قول كل من الطائفتين من الصواب والعدول عما يرده الشرع والعقل من
قول كل منهما فاذا قالوا لنا فهذا يلزم ان تكون الحوادث قامت به قلنا هذا
القول مجمل ومن انكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة
ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك ونصوص الائمة ايضا مع صريح العقل . ولا
شك ان الرسل الذين خاطبوا الناس واخبروهم ان الله قال ونادى وناجى ويقول
لم يفهموهم ان هذه مخلوقات منفصلة عنه بل الذين افهموهم اياه ان الله نفسه هو

الذي تكلم والكلام قائم به لا بغيره وانه هو الذي تكلم به وقاله كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الافك . ولشأني في نفسي كان احقر من ان يتكلم الله في بوحي يتلى ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه لوجب بيانه اذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ولا يعرف في لغة ولا عقل قائل متكلم لايقوم به القول والكلام وانما قام الكلام بغيره وان زعموا انهم فروا من ذلك حذرا من التشبيه فلا يثبتوا صفة غيره فانهم اذا قالوا يعلم لا كعلمنا قلنا ويتكلم لا كتكلمنا وكذلك سائر الصفات وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة او حي لا تقوم به الحياة وقد قال صلى الله عليه وسلم « اعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » فهل يقول عاقل انه ﷺ عاذ بمخلوق بل هذا كقوله « اعوذ برضاك من سخطك واعوذ بمعافاتك من عقوبتك » وكقوله « اعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما اجد واحاذر » وكقوله « واعوذ بعظمتك ان نغتال من تحتنا » كل هذه من صفات الله تعالى وهذه المعاني مبسوطة في مواضعها وانما اشير اليها هنا اشارة وكثير من متأخري الحنفية على انه معنى واحد والتعدد والتكثر والتجزئ والتبعض في الحاصل في الدلالات لا في المدلول وهذه العبارات مخلوقة وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديه بها فان عبر بالعربية فهو قرآن وان عبر بالعبرانية فهو توراة فاختلفت العبارات لا الكلام قالوا : وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازا وهذا الكلام فاسد فان لازمه ان معنى قوله ﴿ولا تقربوا الزنى﴾ هو معنى قوله ﴿ واقيموا الصلاة ﴾ ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين ومعنى سورة الاخلاص هو معنى تبت يدا ابي لهب وكلما تأمل الانسان هذا القول تبين له فساده وعلم

انه مخالف لكلام السلف والحق ان التوراة والانجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة وكلام الله تعالى لايتناهى فانه لم يزل يتكلم بما شاء اذا شاء كيف شاء ولايزال كذلك قال تعالى ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾ وقال تعالى ﴿ولو انما في الأرض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه ولو كان ما يقرأ القاريء ليس كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه بل كلام الله محفوظ في الصدور، مقروء بالألسن، مكتوب في المصاحف كما قاله ابو حنيفة في الفقه الأكبر وهو في هذه المواضع كلها حقيقة واذا قيل المكتوب في المصحف كلام الله فهم منه معنى صحيح حقيقي واذا قيل فيه خط فلان وكتابته فهم منه معنى صحيح حقيقي واذا قيل فيه مداد قد كتب به فهم منه معنى صحيح حقيقي واذا قيل المداد في المصحف كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل فيه السموات والأرض وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل فيه خط فلان الكاتب وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل فيه كلام الله ومن لم يتنبه للفروق بين هذه المعاني ضل ولم يهتد للصواب وكذلك الفرق بين القراءة التي هي فعل القاريء والمقروء الذي هو قول الباري من لم يهتد له فهو ضال ايضا ولو ان انسانا وجد في ورقة مكتوبا ألا كل شيء ما خلا الله باطل من خط كان معروفا لقال: هذا من كلام لبيد حقيقة وهذا خط فلان حقيقة وهذا كل شيء حقيقة وهذا خبر حقيقة ولاتشتبه هذه الحقيقة

بالأخرى والقرآن في الأصل مصدر فتارة يذكر ويراد به القراءة قال تعالى ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ وقال ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم » وتارة يذكر ويراد به المقروء قال تعالى ﴿ فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون ﴾ وقال ﷺ « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » الى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي ولكن الأعيان تعلم ثم تذكر ثم تكتب فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة واما الكلام فانه ليس بينه و بين المصحف واسطة بل هو الذي يكتب بلا واسطة ذهن ولا لسان والفرق بين كونه في زبر الأولين وبين كونه في رق منشور اولوح محفوظ اوفي كتاب مكنون واضح فقوله عن القرآن وانه لفي زبر الأولين اي ذكره ووصفه والأخبار عنه كما ان محمدا مكتوب عندهم اذ القرآن انزله الله على محمد لم ينزله على غيره اصلا ولهذا قال في الزبر ولم يقل في الصحف ولا في الرق لأن الزبر جمع زبور والزبر هو الكتابة والجمع فقوله وانه لفي زبر الاولين اي مزبور الأولين ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس وهذا مثل قوله الذي يجدونه مكتوبا عندهم اي ذكره بخلاف قوله في رق منشور ولوح محفوظ وكتاب مكنون لان العامل في الظرف اما ان يكون من الأفعال العامة مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك اويقدر مكتوب في كتاب اوفي رق والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب وكتابة الاعيان

الموجود في الخارج فيه فان تلك انما يكتب ذكرها وكلما تدبر الانسان هذا المعنى وضح له الفرق وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية هي ما يسمع منه او من المبلغ عنه فاذا سمعه السامع علمه وحفظه فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ فاذا قاله السامع فهو مقروء له متلو فان كتبه فهو مكتوب له مرسوم وهو حقيقة في هذه الوجوه لا يصح نفيه والمجاز يصح نفيه فلا يجوز ان يقال ليس في المصحف كلام الله ولا ماقرأ القارىء كلام الله وقدقال تعالى ﴿ وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ﴾ وهو لا يسمع كلام الله من الله وانما يسمعه من مبلغه عن الله والآية تدل على فساد قول من قال : ان المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله فانه تعالى قال ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله والاصل الحقيقة ومن قال ان المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله او حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة وكفى بذلك ضلالا وكلام الطحاوي يرد قول من قال انه معنى واحد لا يتصور سماعه منه وان المسموع المنزل المقدر والمكتوب ليس كلام الله وانما هو عبارة عنه قال الطحاوي رحمه الله يقول كلام الله منه بدا وكذلك قال غيره من السلف ويقولون منه بدا واليه يعود وانما قالوا منه بدا لان الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون انه خلق الكلام في محل فبدا الكلام من ذلك المحل فقال السلف منه بدا اي هو المتكلم به فمنه بدا لا من بعض المخلوقات كما قال تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم – ولكن حق القول مني – قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ ومعنى قولهم واليه

يعود يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف كما جاء ذلك في عدة آثار وقوله بلا كيفية اي لا تعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز وانزله على رسوله وحيا اي انزله اليه على لسان الملك فسمعه الملك جبرائيل من الله وسمعه الرسول محمد ﷺ من الملك وقرأ على الناس قال تعالى ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ وفي ذلك اثبات صفة العلو لله تعالى وقد اورد على ذلك ان انزال القرآن نظير انزال المطر أو انزاله الحديد وانزال ثمانية ازواج من الانعام . والجواب ان انزال القرآن فيه مذكور انه انزال من الله قال تعالى ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ وقال تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ وقال تعالى ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقال تعالى ﴿ انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم امراً من عندنا انا كنا مرسلين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين ﴾ وقال تعالى ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق ﴾ وقال تعالى ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ وانزال المطر مقيد بانه منزل من السماء قال تعالى ﴿ انزل من السماء ماء ﴾ والسماء العلو وقد جاء في مكان آخر انه منزل من المزن والمزن السحاب . وفي مكان آخر انه منزل من المعصرات وانزال الحديد والانعام مطلق فكيف يشبه هذا الانزال بهذا الانزال فالحديد انما يكون من المعادن التي في الجبال وهي عالية على الارض وقد قيل انه كل ما كان معدنه اعلى كان حديده اجود والانعام تخلق بالتوالد المستلزم انزال

الذكور الماء من اصلابها الى ارحام الاناث ولهذا يقال انزل ولم ينزل ثم الاجنة تنزل من بطون الامهات الى وجه الارض . ومن المعلوم ان الانعام تعلو فحولها اناثها عند الوطيء وينزل ماء الفحل من علو الى رحم الانثى وتلقى ولدها عند الولادة من علو الى اسفل وعلى هذا فيحتمل قوله ﴿ وانزل لكم من الانعام ﴾ وجهين (احدهما) ان يكون من لبيان الجنس. (الثاني) ان يكون من لابتداء الغاية وهذان الوجهان يحتملان في قوله ﴿ جعل لكم من انفسكم ازواجا ومن الانعام ازواجا ﴾ وقوله وصدقه المؤمنون على ذلك حقا الاشارة الى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وانزاله اي هذا قول الصحابة والتابعين لهم باحسان وهم السلف الصالح وان هذا حق وصدق . وقوله وايقنوا انه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر ، وفي قوله بالحقيقة رد على من قال انه معنى واحد قام بذات الله لم يسمع منه وانما هو الكلام النفساني لانه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به ان هذا كلام حقيقة والا لازم ان يكون الاخرس متكلما ولزم ان لا يكون الذي في المصحف عند الاطلاق هو القرآن ولا كلام الله ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله كما لو اشار اخرس الى شخص باشارة فهم بها مقصوده فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي اوحاه اليه ذلك الأخرس فالمكتوب هي عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه وان كان الله تعالى لا يسميه احد اخرس لكن عندهم ان الملك فهم منه معنى قائما بنفسه لم يسمع منه حرفا ولا صوتا بل فهم معنى مجردا ثم عبر عنه فهو الذي احدث نظم القرآن وتأليفه العربي وان الله خلق في بعض

الاجسام كالهوى الذي هو دون الملك هذه العبارة ويقال لمن قال انه معنى واحد هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى او بعضه فان قال سمعه كله فقد زعم انه سمع جميع كلام الله وفساد هذا ظاهر وان قال بعضه فقد قال يتبعض وكذلك كل من كلمه الله او انزل اليه شيئا من كلامه ، ولما قال تعالى للملائكة ﴿ اني جاعل في الارض خليفة ﴾ ولما قال لهم ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ وامثال ذلك هل هذا جميع كلامه او بعضه فان قال انه جميع فهذا مكابرة وان قال بعضه فقد اعترف بتعدده . وللناس في مسمى الكلام والقول عند الاطلاق اربعة اقوال (احدها) انه يتناول اللفظ والمعنى جميعا كما يتناول لفظ الانسان للروح والبدن معا وهذا قول السلف (الثاني) اسم اللفظ فقط والمعنى ليس جزء مسماه بل هو مدلول مسماه وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم (الثالث) انه اسم للمعنى فقط واطلاقه على اللفظ مجاز لانه دال عليه وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه (الرابع) انه مشترك بين اللفظ والمعنى وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية . ولهم قول ثالث . يروى عن ابي الحسن انه مجاز في كلام الله حقيقة في كلام الآدميين لان حروف الآدميين تقوم بهم فلا يكون الكلام قائما بغير المتكلم بخلاف كلام الله فانه لا يقوم عنده بالله فيمتنع ان يكون كلامه وهذا مبسوط في موضعه واما من قال انه معنى واحد واستدل عليه بقول الاخطل

ان الكلام لفي الفؤاد وانما * جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فاستدلال فاسد. ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقالوا هذا خبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به فكيف وهذا البيت قد قيل انه موضوع منسوب الى الاخطل وليس هو في ديوانه

وقيل انما قال ان البيان لفي الفؤاد وهذا اقرب الى الصحة وعلى تقدير صحته عنه فلا يجوز الاستدلال به فان النصارى قد ضلوا في معنى الكلام وزعموا ان عيسى عليه السلام نفس كلمة الله واتحذ اللاهوت بالناسوت اي شيء من الاله بشيء من الناس افيستدل بقول نصراني قد ضل في معنى الكلام على معنى الكلام ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب وايضا فمعناه غير صحيح اذ لازمه ان الاخرس يسمى متكلما لقيام الكلام بقلبه وان لم ينطق به ولم يسمع منه والكلام على ذلك مبسوط في موضعه وانما اشير اليه اشارة ، وهنا معنى عجيب وهو ان هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت فانهم يقولون كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه واما النظم المسموع مخلوق فافهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام فانظر الى هذا الشبه ما اعجبه ويرد قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس قوله ﷺ «ان صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس » وقال « ان الله يحدث من امره ما يشاء وانما احدث أن لا تكلموا في الصلاة » واتفق العلماء على ان المصلى اذا تكلم في الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته واتفقوا كلهم على ان ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة وانما يبطلها التكلم بذلك فعلم اتفاق المسلمين على ان هذا ليس بكلام . وايضا في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال « ان الله تجاوز لامتي عما حدثت به انفسها مالم تتكلم به او تعمل به » فقد اخبر ان الله عفى عن حديث النفس إلا ان تتكلم ففرق بين حديث النفس وبين الكلام واخبر انه لا يؤاخذ به حتى تتكلم به والمراد حتى ينطق به اللسان

باتفاق العلماء فعلم ان هذا هو الكلام في اللغة لان الشارع انما خاطبنا بلغة العرب . وايضاً ففي السنن ان معاذاً رضي الله عنه قال يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال « وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصايد ألسنتهم » فبين ان الكلام انما هو باللسان فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل وانما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب اذا كان لفظاً ومعنى ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم باحسان وانما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء اهل البدع ثم انتشر . ولاريب ان مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه الى قول شاعر فان هذا مما تكلم به الاولون والآخرون من اهل اللغة وعرفوا معناه كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك. ولاشك ان من قال أن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وان المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارىء حكاية كلام الله وهو مخلوق فقد قال بخلق القرآن وهو لايشعر فان الله يقول ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ أفتراه سبحانه وتعالى يشير الى ما في نفسه او الى المتلو المسموع . ولاشك ان الاشارة انما هي الى هذا المتلو المسموع اذ ما في ذات الله غير مشار اليه ولا منزل ولا متلو ولا مسموع وقوله لا يأتون بمثله افتراه سبحانه يقول لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه وما في نفس الله عز وجل لا حيلة الى الوصول اليه ولا الى الوقوف عليه فان قالوا انما اشار الى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلو المكتوب المسموع فاما ان يشير الى ذاته فلا فهذا صريح القول بان القرآن مخلوق بل هم في ذلك اكفر من

المعتزلة فان حكاية الشيء بمثله وشبهه . وهذا تصريح بان صفات الله محكية ولو
كانت هذه التلاوة حكاية لـكان الناس قد اتوا بمثل كلام الله فأين عجزهم
ويكون التالي في زعمهم قد حكي بصوت وحرف ماليس بصوت وحرف وليس
القرآن الاسورا مسورة وآيات مسطرة في صحف مطهرة قال تعالى ﴿ فأتوا
بعشر سور مثله مفتريات — بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم
وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون — في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ﴾ ويكتب
لمن قرأ بكل حرف منه عشر حسنات . قال ﷺ « اما اني لا اقول الم حرف
ولـكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » وهو المحفوظ في صدور الحافظين
المسموع من ألسن التالين . قال الشيخ حافظ الدين النسفي رحمه الله في المنار ان
القرآن اسم للنظم والمعنى وكذا قال غيره من اهل الاصول وما ينسب الى ابي
حنيفة رحمه الله ان من قرأ في الصلاة بالفارسية اجزاه فقد رجع عنه وقال لايجوز
القراءة مع القدرة بغير العربية وقالوا لو قرأ بغير العربية فاما ان يكون مجنونا
فيداوى أو زنديقا فيقتل لان الله تـكلم به بهذه اللغة والاعجاز حصل
بنظمه ومعناه وقوله ومن سمعه وقال انه كلام البشر فقد كفر لاشك في تكفير
من انكر ان القرآن كلام الله بل قال انه كلام محمد أو غيره من غير الخلق
ملكا كان أو بشرا وأما إذا اقر انه كلام الله ثم أول وحرف فقد وافق
قول من قال : ان هذا إلا قول البشر في بعض ما به كفروا وأولئك الذين
استزلهم الشيطان وسيأتي الـكلام عليه عند قول الشيخ ولا نكفر احدا
من اهل القبلة بذنب ما لم يستحله ان شاء الله تعالى . وقوله ولا يشبه قول البشر
يعني انه اشرف وافصح واصدق قال تعالى ﴿ ومن اصدق من الله حديثا ﴾

وقال تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله ﴾ وقال تعالى ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ فلما عجزوا وهم فصحاء العرب مع شدة العداوة عن الاتيان بسورة مثله تبين صدق الرسول ﷺ انه من عند الله وإعجازه من جهة نظمه ومعناه لا من جهة احدهما فقط هذا مع انه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين اى بلغة العربية فنفى المشابهة من حيث التكلم ومن حيث التكلم به ومن حيث النظم و المعنى لا من حيث الكلمات والحروف . والى هذا وقعت الاشارة بالحروف المقطعة في اوائل السور اي انه في اسلوب كلامهم وبلغتهم التي يخاطبون بها الا ترى انه يأتي بعد الحروف المقطعة بذكر القرآن كما في قوله تعالى ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه — الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ الآية ﴿ المص كتاب انزل اليك ﴾ - الآية ﴿ الر تلك ايات الكتاب الحكيم ﴾ وكذلك الباقي ينبههم ان هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه بل خاطبكم بلسانكم ولكن اهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا الى نفي تكلم الله به وسماع جبرائيل منه كما يتذرعون بقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ الى نفي الصفات و في الآية ما يرد عليهم قولهم وهو قوله تعالى ﴿ وهو السميع البصير ﴾ كما في قوله تعالى ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ ما يرد على من ينفي الحرف فانه قال فأتوا بسورة ولم يقل فأتوا بحرف او بكلمة واقصر سورة في القرآن ثلاث آيات ولهذا قال ابو يوسف ومحمد : ان ادنى ما يجزي في الصلاة ثلاث آيات قصار أو آية طويلة لانه لا يقطع الاعجاز بدون ذلك والله اعلم . قوله ﴿ ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد

كفر، من ابصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار انزجر، علم انه بصفاته ليس كالبشر ﴾ ش . لما ذكر فيما تقدم ان القرآن كلام الله حقيقة منه بدا نبه بعد ذلك على انه تعالى بصفاته ليس كالبشر نفيا للتشبيه عقيب الاثبات يعني ان الله تعالى وان وصف بانه متكلم لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الانسان بها متكلما فان الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وما احسن المثل المضروب للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل باللبن الخالص السايغ للشاربين يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه والمعطل يعبد عدما والمشبه يعبد صنما وسيأتي في كلام الشيخ ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه وكذا قوله وهو بين التشبيه والتعطيل اي دين الاسلام ولا شك ان التعطيل شر من التشبيه بما سأذكره ان شاء الله تعالى وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله تشبيها بل صفات الخالق كما يليق به وصفات المخلوق كما يليق به . وقوله فمن ابصر هذا اعتبر اي من نظر بعين بصيرته فيما قاله من اثبات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار . قوله ﴿ والرؤية حق لأهل الجنة بغير احاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ وتفسيره على ما اراد الله تعالى وعلمه وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال ومعناه على ما اراد لا ندخل في ذلك متأولين بارائنا ولا متوهمين باهوائنا فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه ﴾ ش . المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من

الخوارج والامامية وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الاسلام المعروفون بالأمامة في الدين واهل الحديث وسائر طوائف اهل الكلام المنسوبون الى السنة والجماعة وهذه المسئلة من اشرف مسائل اصول الدين واجلها وهي الغاية التي شمر اليها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون وعن بابه مردودون وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الادلة قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ﴾ وهي من اظهر الادلة واما من ابى الا تحريفها بما يسميه تأويلا فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب اسهل من تأويلها على ارباب التأويل ولا يشاء مبطل ان يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها الا وجد الى ذلك من السبيل ما وجده متأول بهذه النصوص وهذا الذي افسد الدنيا والدين وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والانجيل وحذرنا الله ان نفعل مثلهم وابى المبطلون الا سلوك سبيلهم وكم جنى التأويل الفاسد على الدين واهله من جناية فهل قتل عثمان رضي الله عنه الا بالتأويل الفاسد وكذا ماجرى في يوم الجمل وصفين ومقتل الحسين والحرة وهل خرجت الخوارج واعتزلت المعتزلة ورفضت الروافض وافترقت الامة على ثلاث وسبعين فرقة الا بالتأويل الفاسد واضافة النظر الى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته باداة الى الصريحة في نظر العين واخلاء الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقة موضوعة في ان الله اراد بذلك نظر العين التي في الوجه الى الرب جل جلاله فان النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه فان عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار كقوله ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وان

عدى بفي فمعناه التفكر والاعتبار كقوله ﴿ اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض ﴾ وان عدى بالى فمعناه المعاينة بالابصار كقوله تعالى ﴿ انظروا الى ثمره اذا أثمر ﴾ فكيف اذا اضيف الى الوجه الذي هو محل البصر . وروى ابن مردويه بسنده الى ابن عمر و قال قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ قال من البهاء والحسن الى ربها ناظرة قال في وجه الله عزوجل عن الحسن قال نظرت الى ربها فنظرت بنوره ، وقال ابو صالح عن ابن عباس الى ربها ناظرة قال تنظر الى وجه ربها عزوجل وقال عكرمة وجوه يومئذ ناضرة قال من النعيم الى ربها ناظرة قال تنظر الى ربها نظرا ، ثم حكى عن ابن عباس مثله وهذا قول المفسرين من اهل السنة والحديث وقال تعالى ﴿ لهم مايشاؤن فيها ولدينا مزيد ﴾ وقال الطبري : قال علي بن ابي طالب وانس بن مالك هو النظر الى وجه الله عز وجل و قال تعالى ﴿ للذين احسنوا الحسنى وزيادة ﴾ فالحسنى الجنة والزيادة هي النظر الى وجه الكريم فسرها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال قرأ رسول الله ﷺ ﴿ للذين احسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال « اذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد ان ينجزكموه فيقولون : ما هو الم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما اعطاهم شيئا احب اليهم من النظر اليه وهي الزيادة » ورواه غيره باسانيد متعددة والفاظ أخر معناها ان الزيادة النظر الى وجه الله عزوجل وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم . روى

ابن جرير عن جماعة منهم ابو بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة وابو موسى الاشعري وابن عباس رضي الله عنهم . وقال تعالى ﴿ كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الائمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي . وقال الحاكم : حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرت محمد بن ادريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ماتقول في قول الله عزوجل ﴿ كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فقال الشافعي : لما ان حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على ان اولياءه يرونه في الرضاء . واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى ﴿ لن تراني ﴾ وبقوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فالآيتان دليل عليهم أما الآية الاولى فالاستدلال منها على ثبوت الرؤية من وجوه : (احدها) انه لايظن بكليم الله ورسوله الكريم واعلم الناس بربه في وقته ان يسأل ما لا يجوز عليه بل هو عندهم من اعظم المحال . (الثاني) ان الله لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه انكر سؤاله وقال ﴿ انى اعظك ان تكون من الجاهلين ﴾ (الثالث) انه تعالى قال : لن تراني ولم يقل : اني لا أرى او لا يجوز رؤيتي او لست بمرئي والفرق بين الجوابين ظاهر الاترى ان من كان في كمه حجر فظنه رجل طعاما فقال اطعمنيه . فالجواب الصحيح انه لا يؤكل اما اذا كان طعاما صح ان يقال انك لن تأكله وهذا يدل على انه سبحانه مرئي ولكن موسى لاتحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى يوضحه : (الوجه الرابع) وهو قوله ﴿ ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني ﴾ فاعلمه ان الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار

فكيف بالبشر الذى خلق من ضعف . (الخامس) ان الله سبحانه قادر على ان يجعل الجبل مستقرا وذلك ممكن وقدعلق به الرؤية ولو كانت محالا لكان نظير ان يقول ان استقر الجبل فسوف اكل واشرب وانام والكل عندهم سواء . (السادس) قوله تعالى ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ﴾ فاذا جاز ان يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب فكيف يمتنع ان يتجلى لرسوله واوليائه في دار كرامته ولكن الله تعالى اعلم موسى ان الجبل اذالم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر اضعف . (السابع) ان الله كلم موسى وناداه وناجاه ومن جاز عليه التكلم والتكليم وان يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته اولى بالجواز . ولهذا لا يتم انكار رؤيته الا بانكار كلامه وان جمعوا بينهما . واما دعواهم تأبيد النفي بلن وان ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففاسد فانها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة فكيف اذا اطلقت قال تعالى ﴿ ولن يتمنوه ابدا ﴾ مع قوله ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك ﴾ ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها وقد جاء ذلك قال تعالى ﴿ فلن ابرح الأرض حتى يأذن لي ابي ﴾ فثبت ان لن لا تقتضي النفي المؤبد . قال الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله

ومن رأى النفي بلن مؤبدا * فقوله اردد وسواه فاعضدا

واما الآية الثانية فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف وهو ان الله تعالى انما ذكرها في سياق التمدح . ومعلوم ان المدح انما يكون بالصفات الثبوتية واما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح به وانما يمدح الرب تعالى بالنفي اذا تضمن امرا وجوديا كمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن

كمال القيومية ونفي الموت المتضمن كمال الحياة ونفي اللغوب والاعياء المتضمن كمال القدرة ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال الربوبية والالوهية وقهره ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه واحاطته ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته . ولهذا لم يتمدح بعدم محض لم يتضمن امرا ثبوتيا فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه فان المعنى انه يرى ولا يدرك ولا يحاط به فقوله لا تدركه الابصار يدل على كمال عظمته وانه اكبر من كل شيء وانه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به فان الادراك هو الاحاطة بالشيء وهو قدر زائد على الرؤية كما قال تعالى ﴿ فلما تراء الجمعان ﴾ قال اصحاب موسى : انا لمدركون قال كلا فلم ينف موسى الرؤية وانما نفى الادراك فالرؤية والادراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه فالرب تعالى يرى ولا يدرك كما يعلم ولا يحاط به علما وهذا هو الذي فهمه الصحابة والائمة من الآية كما ذكرت اقوالهم في تفسير الآية بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من ادراكها على ماهي عليه . واما الأحاديث عن النبي ﷺ واصحابه الدالة على الرؤية فمتواترة رواها اصحاب الصحاح والمسانيد والسنن . فمنها حديث ابي هريرة ان ناسا قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ « هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يارسول الله قال : هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا قال فانكم ترونه كذلك » الحديث اخرجاه في الصحيحين بطوله ، وحديث ابي سعيد الخدري ايضا في الصحيحين نظيره ، وحديث

جرير بن عبد الله البجلي قال كنا جلوسا مع النبي ﷺ فنظر الى القمر ليلة اربع عشرة فقال «انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا لاتضامون في رؤيته» الحديث اخرجاه في الصحيحين وحديث صهيب المتقدم رواه مسلم وغيره ، وحديث ابي موسى عن النبي ﷺ قال « وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان يروا ربهم تبارك وتعالى الارداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » اخرجاه في الصحيحين ومن حديث عدي بن حاتم « وليلقين الله احدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له فيقول الم ابعث اليك رسولا فيبلغك فيقول بلى يا رب فيقول الم اعطك مالا وافضل عليك فيقول بلى يا رب » اخرجه البخاري في صحيحه ، وقد روى احاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابيا ومن احاط بها معرفة يقطع بان الرسول قالها ولولا اني التزمت الاختصار لسقت مافي الباب من الاحاديث . ومن اراد الوقوف عليها فاليواظب سماع الاحاديث النبوية فان فيها مع اثبات الرؤية انه يكلم من شاء اذا شاء وانه يأتي لفصل القضاء يوم القيامة وانه فوق العالم وانه يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب وانه يتجلى لعباده وانه يضحك الى غير ذلك من الصفات التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق وكيف تعلم اصول دين الاسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله وكيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره به رسوله ﷺ واصحابه رضوان الله عليهم الذين نزل القرآن بلغتهم . وقد قال ﷺ « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » وفي رواية « من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » وسئل ابو بكر رضي الله عنه عن قوله تعالى ﴿وفاكهة

وابا ﴾ ما الأ ب فقال أي سماء تظلني وأي ارض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لا اعلم وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيها لله بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئى بالمرئى ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه والا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ومن قال يرى لا في جهة فليراجع عقله فاما ان يكون مكابرا لعقلها وفي عقله شيء والا فاذا قال يرى لا امام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة . ولهذا الزم المعتزلة من نفي العلو بالذات بنفي الرؤية وقالوا كيف تعقل رؤية بغير جهة وانما لم نره في الدنيا لعجز ابصارنا لا لامتناع الرؤية فهذه الشمس اذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي بل لعجز الرائي فاذا كان في الدار الآخرة اكمل الله قوى الآدميين حتى اطاقوا رؤيته ولهذا لما تجلى الله للجبل خر موسى صعقا فلما افاق قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين بانه لا يراك حي الامات ولا يابس الا تدهده ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته الا من ايده الله كما ايد نبينا قال تعالى ﴿ وقالوا لولا انزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ﴾ قال غير واحد من السلف لا يطيقون ان يروا الملك في صورته فلو انزلنا عليهم ملكا لجعلناه في صورة بشر وحينئذ يشتبه عليهم هل هو بشر او ملك ومن تمام نعمة الله علينا ان بعث فينا رسولا منا وما الزمهم المعتزلة هذا الالزام الا لما وافقوهم على انه لا داخل العالم ولا خارجه لكن قول من اثبت موجودا يرى لا في جهة اقرب الى العقل في قول من اثبت موجودا قائما بنفسه لا يرى ولا في جهة ويقال لمن قال بنفي الرؤية

لانتفاء لازمها وهو الجهة اتريد بالجهة امرا وجوديا اوامرا عدميا فان اردبها
امراوجوديا كان التقرير كماليس في شيء موجود لا يرى وهذه المقدمة ممنوعة
ولادليل على اثباتها بل هي باطلة فان سطح العالم يمكن ان يرى وليس العالم في عالم
آخر وان اردت بالجهة امرا عدميا المقدمة الثانية ممنوعة فلا نسلم انه ليس فى
جهة بهذا الاعتبار وكيف يتكلم في اصول الدين من لايتلقاه من الكتاب
والسنة وانما يتلقاه من قول فلان واذا زعم انه يأخذه من كتاب الله لا يتلق
تفسير كتاب الله من احاديث الرسول ولا ينظر فيها ولا فيما قاله الصحابة والتابعون
لهم باحسان المنقول الينا عن الثقات النقلة الذين تخيرهم النقاد فانهم لم ينقلوا نظم
القرآن وحده بل نقلوا نظمه ومعناه ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان
بل يتعلمونه بمعانيه ومن لا يسلك سبيلهم فانما يتكلم برأيه ومن يتكلم برأيه
وما يظنه دين الله ولم يتلق ذلك من الكتاب فهو مأثوم وان اصاب ومن
أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور وان اخطأ لكن ان اصاب يضاعف
أجره . وقوله والرؤية حق لاهل الجنة تخصيص اهل الجنة بالذكر يفهم منه
نفي الرؤية عن غيرهم ولاشك في رؤية اهل الجنة لربهم في الجنة وكذلك يرونه
في المحشر قبل دخولهم الجنة كما ثبت ذلك في الصحيحين عن رسول الله ﷺ
ويدل عليه قوله تعالى ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ واختلف في رؤية اهل
المحشر على ثلاثة اقوال (احدها) انه لايراه إلا المؤمنون (الثاني) يراه اهل
الموقف مؤمنهم وكافرهم ثم يحتجب عن الكفار ولايرونه بعد ذلك (الثالث)
يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار وكذلك الخلاف في تكليمه
لاهل الموقف . واتفقت الامة على انه لايراه احد في الدنيا بعينه ولم يتنازعوا

في ذلك الا في نبينا ﷺ خاصة منهم من نفي رؤيته بالعين ومنهم من أثبتهاله ﷺ . وحكى القاضي عياض في كتابه الشفا اختلاف الصحابة ومن بعدهم في رؤيته ﷺ وانكار عائشة رضي الله عنها ان يكون ﷺ رأى ربه بعين رأسه وأنها قالت لمسروق حين سألها هل رأى محمد ربه فقالت لقد قف شعري مماقلت ثم قالت من حدثك ان محمدا رأى ربه فقد كذب. ثم قال وقالت جماعة بقول عائشة رضي الله عنها وهو المشهور عن ابن مسعود وابي هريرة واختلف عنه وقال بانكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين وعن ابن عباس رضي الله عنهما انه ﷺ رأى ربه بعينه وروى عطاء عنه رآه بقلبه ثم ذكر أقوالا وفوائد ثم قال وأماوجوبه لنبينا ﷺ والقول بانه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص والمعول فيه على آية النجم والتنازع فيها مأثور والاحتمال لها ممكن وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق فان الرؤية في الدنيا ممكنة اذ لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى عليه السلام لكن لم يرد نص بانه ﷺ رأى ربه بعين رأسه بل ورد ما يدل على نفي الرؤية وهو مارواه مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك فقال « نوراني أراه » وفى رواية رأيت نورا وقد روى مسلم أيضا عن أبي موسى الاشعرى رضي الله عنه انه قال قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال « ان الله لاينام ولاينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور » وفى رواية « النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ماانتهى اليه بصره من خلقه » فيكون والله اعلم معنى قوله لابي ذر رأيت نوراً انه رأى الحجاب ومعنى قوله نوراني

أراه النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته فانى أراه أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته . فهذا صريح من نفي الرؤية والله اعلم . وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك ونحن [1] الى تقرير رؤيته لربه تعالى وان كانت رؤية الرب تعالى اعظم واعلى فان النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها ألبتة وقوله بغير احاطة ولا كيفية هذا لكمال عظمته وبهائه سبحانه وتعالى لا تدركه الابصار ولا تحيط به كما يعلم ولا يحاط به علما قال تعالى ﴿ لا تدركه الابصار ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ وقوله وتفسيره على ما أراد الله وعلمه الى ان قال لا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين باهوائنا اي كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة فى الرؤية وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ماجاءت به السنة والفاسد المخالف له فكل تأويل لم يدل عليه دليل من السياق و لامعه قرينة تقتضيه فان هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه اذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره حتى لا يوقع السامع فى اللبس والخطأ فان الله انزل كلامه بيانا وهدى فاذا اراد به خلاف ظاهره ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره الى فهم كل احد لم يكن بيانا ولا هدى فالتأويل اخبار بمراد المتكلم لا انشاء . وفى هذا الموضع يغلط كثير من الناس فان المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه فاذا قيل معنى اللفظ كذا وكذا كان اخبارا بالذي عنى المتكلم فان لم يكن الخبر مطابقا كان كذبا على المتكلم ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة : منها ان يصرح بارادة ذلك المعنى . ومنها ان يستعمل اللفظ الذي

(١) كذا بالاصل ولعله نحا

له معنى ظاهر بالوضع ولا يبين بقرينة تصحب الكلام انه لم يرد ذلك المعنى فكيف اذا حف بكلامه مايدل على انه انما اراد حقيقته وما وضع له كقوله ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ وانكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم فاذا اخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة كان صادقا في اخباره. واما اذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به مايدل عليه فاخباره بأن هذا مراده كذب عليه وهو تأويل بالرأي وتوهم بالهوى . وحقيقة الأمر ان قول القائل نحمله على كذا او نتأوله بكذا انما هو من باب دفع دلالة اللفظ عن ما وضع له فان منازعه لما احتج عليه به ولم يمكنه دفع وروده دفع معناه وقال احمله على خلاف ظاهره فان قيل بل للحمل معنى آخر لم تذكروه وهو ان اللفظ لما استحال ان يراد به حقيقته و ظاهره و لا يمكن تعطيله استدللنا بوروده وعدم ارادة ظاهره على ان مجازه هو المراد فحملناه عليه دلالة لا ابتداء . قيل فهذا المعنى هو الاخبار عن المتكلم انه اراده وهو اما صدق و اما كذب كما تقدم ومن الممتنع ان يريد خلاف حقيقته و ظاهره و لا يبين للسامع المعنى الذي اراده بل يعرف بكلامه مايؤكد ارادة الحقيقة . ونحن لا نمنع ان المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره اذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك ولكن المنكر ان يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره اذا قصد البيان والايضاح وافهام مراده كيف و المتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز و يكرره غير مرة ويضرب له الأمثال . وقوله فانه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه اي سلم لنصوص الكتاب والسنة ولم يعترض

عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة اوبقوله العقل يشهد بضدمادل
عليه النقل والعقل اصل النقل فاذا عارضه قدمنا العقل وهذا لا يكون قط
لـكن اذا جاء ما يوهم مثل ذلك فان كان النقل صحيحا فذلك الذي يدّعِ انه
معقول انما هو مجهول ولو حقق النظر لظهر ذلك وان كان النقل غير صحيح
فلا يصلح للمعارضة فلا يتصور ان يتعارض عقل صريح ونقل صحيح ابد او
تعارض كلام من يقول ذلك بنظره فيقال اذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم
النقل لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين ورفعهما رفع النقيضين وتقديم
العقل ممتنع لان العقل قد دل على صحة السمع ووجوب قبول ما اخبر به الرسول
ﷺ فلو ابطلنا النقل لـكنا قد ابطلنا دلالة العقل ولو ابطلنا دلالة العقل
لم يصلح ان يكون معارضا للنقل لان ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء
من الأشياء فـكان تقديم العقل مو جبا عدم تقديمه فلا يجوز تقديمه وهذا
بيّن واضح فان العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته وان خبره مطابق
لمخبره فان جاز ان تـكون الدلالة باطلة لبطلان النقل لزم ان لا يكون النقل
دليلا صحيحا واذا لم يكن دليلا صحيحا لم يجز ان يتبع بحال فضلا عن ان يقدم فصار
تقديم العقل على النقل قدحا في العقل فالواجب كمال التسليم للرسول ﷺ والانقياد
لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون ان نعارضه بخيال باطل نسميه
معقولا او نحمله بشبهة اوشكا او نقدم عليه آراء الرجال وزبالة اذهانهم فنوحده
بالتحكيم والتسليم والانقياد والاذعان كما نوحد المرسل بالعبادة والخضوع
والذل والانابة والتوكل فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله الا بهما
توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول فلا نحاكم الى غيره ولا نرضى بحكم

غيره ولا نوقف تنفيذ امره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وامامه وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه فان اذنوا له نفذه وقبل خبره والا فان طلب السلامة فوضه اليهم واعرض عن امره وخبره والا حرفه عن مواضعه وسمى تحريفه تأويلا وحملا فقال نأوله ونحمله فلأن يلقى العبد ربه بكل ذنب ما خلا الاشراك بالله خير له من ان يلقاه بهذه الحال بل اذا بلغه الحديث الصحيح يعد نفسه كانه سمعه من رسول الله ﷺ فهل يسوغ ان يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان وكلامه ومذهبه بل كان الفرض المبادرة الى امتثاله من غير التفات الى سواه ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان بل يستشكل الآراء لقوله ولا يعارض نصه بقياس بل نهدر الأقيسة وتتلقى نصوصه ولا نحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه اصحابه معقولا نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان كائنا من كان . قال الامام احمد حدثنا انس بن عياض حدثنا ابو حازم عن عمرو ابن شعيب عن ابيه عن جده قال لقد جلست انا واخي مجلسا ما احب ان لي به حمر النعم اقبلت انا واخي واذا مشيخة من اصحاب رسول الله ﷺ جلوس عند باب من ابوابه فكرهنا ان نفرق بينهم فجلسنا حجرة اذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت اصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضبا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول مهلا ياقوم بهذا اهلكت الامم من قبلكم باختلافهم على انبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعض ان القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضا وانما نزل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى عالمه ولا شك ان الله قد حرم القول عليه بغير علم

قال تعالى ﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظاهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ فعلى العبد ان يجعل ما بعث الله به رسله وانزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه فيصدق بانه حق وصدق وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه فان وافقه فهو حق وان خالفه فهو باطل وان لم يعلم هل خالفه او وافقه يكون ذاك الكلام مجملا لا يعرف مراد صاحبه او قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول بتصديقه او بتكذيبه فانه يمسك عنه ولا يتكلم الا بعلم والعلم ماقام عليه الدليل والنافع منه ماجاء به الرسول وقد يكون علم من غير الرسول لكن في الامور الدنيوية مثل الطب والحساب والفلاحة واما الامور الالهية والمعارف الدينية فهذه العلم فيها ما اخذ عن الرسول لا غير قوله ﴿ ولا يثبت قدم الاسلام الا على ظهر التسليم والاستسلام ﴾ ش . هذا من باب الاستعارة اذ القدم الحسي لا يثبت الا على ظهر شيء اي لا يثبت اسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين وينقاد اليها ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه، روى البخاري عن الامام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله انه قال من الله الرسالة ومن الرسول البلاغ وعلينا التسليم وهذا كلام جامع نافع ، وما احسن المثل المضروب للنقل مع العقل وهو ان العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد بل هو دون ذلك بكثير فان العامي يمكنه ان يصير عالما ولا يمكن العالم ان يصير نبيا رسولا فاذا عرف العامي المقلد عالما فدل عليه عاميا آخر ثم اختلف المفتي والدال فان المستفتي يجب عليه قبول قول المفتي دون الدال فلو قال الدال الصواب معي

دون المفتي لاني انا الاصل في علمك بانه مفت فاذا قدمت قوله على قولي قدحت
في الاصل الذي به عرفت انه مفت فلزم القدح في فرعه فيقول له المستفتي
انت لما شهدت له بانه مفت ودالت عليه شهدت له بوجوب تقليده دونك
فموافقتي لك في هذا العلم المعين لايستلزم موافقتك في كل مسئلة وخطأوك
فيما خالفت فيه المفتي الذي هو اعلم منك لايستلزم خطأك في علمك بانه مفت
هذا مع علمه ان ذلك المفتي قد يخطي و العقل يعلم ان الرسول معصوم في
خبره عن الله تعالى لايجوز عليه الخطأ فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره
وقد علمنا بالاضطراد من دين الاسلام ان الرجل لو قال للرسول هذا القرآن
الذي تلقيه علينا و الحكمة التي جئتنا بها قد تضمن كل منهما اشياء كثيرة
تناقض ماعلمناه بعقولنا ونحن انما علمنا صدقك بعقولنا فلو قبلنا جميع مايقوله
مع ان عقولنا تناقض ذلك لكان ذلك قدحا في ما علمنا به صدقك فنحن
نعتقد موجب الأقوال الناقضة لما ظهر من كلامك ، و كلامك نعرض عنه
لانتلقى منه هديا ولا علما لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول
ولم يرض منه الرسول بهذا بل يعلم ان هذا لوساغ لأمكن كل احد ان يؤمن
بشيء مما جاء به الرسول اذ العقول متفاوتة والشبهات كثيرة والشياطين لا
تزال تلقي الوسواس في النفوس فيمكن كل احد ان يقول مثل هذا في كل
ما اخبر به الرسول وما امر به . وقد قال تعالى ﴿ وما على الرسول الا البلاغ ﴾
وقال ﴿ فهل على الرسل الا البلاغ المبين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما ارسلنا من رسول
الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء قد جاء كم من
الله نور وكتاب مبين - حم والكتاب المبين تلك آيات الكتاب المبين -

ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ ونظائر ذلك كثيرة في القرآن فأمر الايمان بالله واليوم الآخر اما ان يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق ام لا . الثاني باطل وان كان قد تكلم على الحق بالفاظ مجملة محتملة فما بلغ البلاغ المبين وقد شهد له خير القرون بالبلاغ واشهد الله عليهم في الموقف الأعظم فمن يدعي انه في اصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين فقد افترى عليه ﷺ . قوله ﴿ فمن رام علم ما حظر عنه علمه ولم يقنع بالتسليم فهمه حجبه مرامه عن خالص التوحيد وصافي المعرفة و صحيح الايمان ﴾ ش . هذا تقرير للكلام الأول وزيادة تحذير ان يتكلم في اصول الدين بل وفي غيرها بغير علم وقال تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزي ونذيقه يوم القيمة عذاب الحريق ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى. وعن ابي امامة الباهلى رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ماضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل » ثم تلا ﴿ ماضربوه لك الا جدلا ﴾ رواه الترمذي

وقال حديث حسن . وعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ « ان ابغض الرجال الى الله الالد الخصم » خرجاه في الصحيحين . ولا شك ان من لم يسلم للرسول نقص توحيده فانه يقول برأيه وهواه ويقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول فانه قد اتخذه في ذلك إلها غير الله . قال تعالى ﴿ افرأيت من اتخذ الهه هواه ﴾ اي عبد ما تهواه نفسه وانما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق كما قال عبد الله ابن المبارك رحمة الله عليه :

رأيت الذنوب تميت القلوب * وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب * وخير لنفسك عصيانها
وهل افسد الدين الا الملوك * واحبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها ويقدمونها على حكم الله ورسوله . واحبار السوء هم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة المتضمنة تحليل ماحرم الله ورسوله وتحريم ما اباحه واعتبار ما الغاه والغاء ما اعتبره واطلاق ماقيده وتقييد ما اطلقه ونحو ذلك . والرهبان وهم جهال المتصوفة المعترضون على حقائق الأيمان والشرع بالاذواق والمواجيد والخيالات والكشوفات الباطلة الشيطانية المتضمنة شرع دين لم ياذن به الله وابطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ والتعوض عن حقائق الايمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس . فقال الاولون اذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة . وقال الآخرون اذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل . وقال اصحاب الذوق اذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع

قدمنا الذوق والكشف . ومن كلام ابي حامد الغزالي رحمه الله في كتابه
الذي سماه احياء علوم الدين وهو من اجل كتبه اواجلها (فان قلت فعلم الجدل
والكلام مذموم كعلم النجوم او هو مباح او مندوب اليه . فاعلم ان للناس
في هذا غلوا واسرافا في اطراف فمن قائل انه بدعة وحرام وان العبد ان يلقى
الله بكل ذنب سوى الشرك خير له من ان يلقاه بالكلام . ومن قائل انه فرض
اما على الكفاية واما على الاعيان وانه افضل الاعمال واعلى القربات فانه تحقيق
لعلم التوحيد ونضال عن دين الله) قال والى التحريم ذهب الشافعي ومالك
واحمد بن حنبل وسفيان وجميع ائمة الحديث من السلف وساق الالفاظ عن
هؤلاء قال وقد اتفق اهل الحديث من السلف على هذا ولا ينحصر ما نقل
عنهم من التشديدات فيه قالوا ماسكت عنه الصحابة مع انهم اعرف بالحقائق
وافصح بترتيب الالفاظ من غيرهم الا لما يتولد منه من الشر . وكذلك قال ﷺ
« هلك المتنطعون » اي المتعمقون في البحث والاستقصاء واحتجوا ايضا بان
ذلك لو كان من الدين لكان اهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلم طريقه ويثني
على اربابه . ثم ذكر بقية استدلالهم ثم ذكر استدلال الفريق الآخر الى ان
قال فان قلت فما المختار عندك . فاجاب بالتفصيل فقال فيه منفعة وفيه مضرة
فهو في وقت الانتفاع حلال او مندوب او واجب كما يقتضيه الحال وهو
باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام قال فامامضرته فاثارة الشبهات
وتحريك العقائد وازالتها عن الجزم والتصميم وذلك مما يحصل بالابتداء ورجوعها
بالدليل مشكوك فيه ويختلف فيه الاشخاص فهذا ضرره في اعتقاد الحق وله
ضرر في تاكيد اعتقاد البدعة وتثبيتها في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم

ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . قال : واما منفعته فقد يظن انه فائدة كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه و هيئتها فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف و لعل التخبيط والتضليل اكثر من الكشف والتعريف . قال و هذا اذا سمعته من محدث اوحشوى ربما خطر ببالك ان الناس اعداما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قله بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك الى التعمق في علوم اخر سوى نوع الكلام ويحقق ان الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود و لعمرى لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وايضاح لبعض الأمور ولكن على الندور . انتهى مانقلته عن الغزالي رحمه الله . وكلام مثله في ذلك حجة بالغة والسلف لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحا جديدا على معان صحيحة كاصطلاح على الفاظ العلوم الصحيحة ولا كرهوا ايضاً الدلالة على الحق و المحاجة لأهل الباطل بل كرهوه لاشتماله على امور كاذبة مخالفة للحق . ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة ومافيه من علوم صحيحة فقدوعروا الطريق الى تحصيلها واطالوا الكلام في اثباتها مع قلة نفعها فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعر لاسهل فيرتقى ولاسمين فينتقل واحسن ماعندهم فهو في القرآن اصح تقريراً واحسن تفسيرا فليس عندهم الا التكلف والتطويل والتعقيد . كما قيل

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت * كتب التناظر لا المغني ولا العمد

يحللون بزعم منهم عقدا * وبالذي وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون انهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك والفاضل الذي

يعلم ان الشبه والشكوك زادت بذلك . ومن المحال ان لا يحصل الشفاء والهدى
والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين
بل الواجب ان يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه
ويعقله ويعرف برهانه ودليله العقلي والخبري السمعي ويعرف دلالته على هذا
وهذا ويجعل اقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة فيقال لأصحابها
هذه الالفاظ تحتمل كذا وكذا فان ارادوا بها مايوافق خبر الرسول قبل
وان ارادوا بها مايخالفه رُد وهذا مثل لفظ المركب والجسم والتحيز والجوهر
والجهة والحيز والعرض ونحو ذلك فان هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب والسنة
بالمعنى الذي يريده اهل هذا الاصطلاح بل ولا في اللغة بل هم يخصون بالتعبير بها
عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها فتفسر تلك المعاني بعبارات اخر وينظر ما دل
عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية واذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين
الحق من الباطل . مثال ذلك في التركيب فقد صار له معاني : (احدها) التركيب
من متباينين فاكثر ويسمى تركيب مزج كتركيب الحيوان من الطبائع
الأربع والأعضاء ونحو ذلك وهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى ولا يلزم
من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال ان يكون مركبا بهذا المعنى
المذكور . (والثاني) تركيب الجوار كمصراعي الباب ونحو ذلك ولا يلزم ايضا
من ثبوت صفاته تعالى اثبات هذا التركيب . (الثالث) التركيب من الأجزاء
المتماثلة وتسمى الجواهر المفردة . (الرابع) التركيب من الهيولى والصورة
كالخاتم مثلا هيولاه الفضة وصورته معروفة واهل الكلام قالوا : ان الجسم
يكون مركبا من الجواهر المفردة ولهم كلام في ذلك يطول ولا فائدة فيه وهو

انه هل يمكن التركيب من جزءين او من اربعة او ستة او ثمانية وستة عشر
و ليس هذا التركيب لازما لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه والحق ان
الجسم غير مركب من هذه الأشياء وانما قولهم مجرد دعوى وهذا مبسوط
في موضعه . (الخامس) التركيب من الذات والصفات هم سموه تركيبا لينفوا
به صفات الرب تعالى وهذا اصطلاح منهم لايعرف فى اللغة ولا في استعمال
الشارع فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامه . ولئن سموا اثبات الصفات
تركيبا فنقول لهم : العبرة للمعاني لا للألفاظ سموه ما شئتم ولا يترتب على
التسمية بدون المعنى حكم فلو اصطلح على تسمية اللبن خمراً لم يحرم بهذه
التسمية . (السادس) التركيب من الماهية و وجودها و هذا يفرضه الذهن
انهما غيران واما في الخارج هل يمكن ذات مجردة عن وجودها ووجودها
مجرد عنها هذا محال فترى اهل الكلام يقولون : هل ذات الرب وجوده
امغير وجوده ولهم في ذلك خبط كثير . وأمثلهم طريقة رأي الوقف والشك
في ذلك وكم يزول بالاستفسار والتفصيل كثير من الاضاليل والأباطيل . وسبب
الاضلال الاعراض عن تدبر كلام الله وكلام رسوله والاشتغال بكلام اليونان
والاراء المختلفة وانما سمي هؤلاء اهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علما لم يكن
معروفا وانما اتوا بزيادة كلام قدلايفيد وهو مايضربونه من القياس لايضاح
ما علم بالحس وان كان هذا القياس وامثاله ينتفع به في موضع آخر ومع من
ينكر الحس وكل من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النص اوعارض
النص بالمعقول فقد ضاهى ابليس حيث لم يسلم لامر ربه بل قال : انا
خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين . و قال تعالى ﴿ من يطع

الرسول فقد اطاع الله ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظا ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ اقسم سبحانه بنفسه انهم لايؤمنون حتى يحكموا نبيه ويرضوا بحكمه ويسلموا تسليما قوله ﴿ فيتذبذب بين الكفر والايمان والتصديق والتكذيب والاقرار والانكار

موسوساً تائهاً شاكاً لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً ﴾ يتذبذب يضطرب

ويتردد وهذه الحال التي وصفها الشيخ رحمه الله حال كل من عدل عن الكتاب والسنة الى علم الكلام المذموم او اراد ان يجمع بينه وبين الكتاب والسنة وعند التعارض يتأول النص ويرده الى الرأي والآراء المختلفة فيؤل امره الى الحيرة والضلال والشك كما قال ابن رشد الحفيد وهو من اعلم الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه تهافت التهافت ومن الذي قال في الالهيات شيئاً يعتد به وكذلك الآمدي افضل اهل زمانه واقف في المسائل الكبار حائر وكذلك الغزالي رحمه الله انتهى آخر امره الى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية ثم اعرض عن تلك الطرق واقبل على احاديث الرسول ﷺ فمات والبخاري على صدره وكذلك ابو عبد الله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صنفه اللذات

نهاية اقدام العقول عقال * وغاية سعي العالمين ضلال
وارواحنا في وحشة من جسومنا * وحاصل دنيانا اذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى ان جمعنا فيه قيل وقال

فكم قد رأينا من رجال ودولة * فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها * رجال فزالوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلا ولا تروي غليلا ورأيت اقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات ﴿الرحمن على العرش استوى - اليه يصعد الكلم الطيب﴾ واقرأ في النفي ﴿ليس كمثله شيء - ولا يحيطون به علما﴾ ثم قال ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي وكذلك قال الشيخ ابو عبدالله محمد بن عبدالكريم الشهرستاني انه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين الا الحيرة والندم حيث قال :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها * وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم ار الا واضعا كف حائر * على ذقن او قارعا سن نادم

وكذلك قال ابو المعالي الجويني يا اصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت ان الكلام يبلغ بي الى ما بلغ ما اشتغلت به . وقال عند موته لقد خضت البحر الخضم وخليت اهل الاسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه والآن فان لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني وها انا ذا اموت على عقيدة امي او قال على عقيدة عجائز نيسابور وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي وكان من اجل تلامذة فخر الدين الرازي لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما فقال ما تعتقده قال ما يعتقده المسلمون فقال وانت منشرح الصدر لذلك مستيقن به او كما قال ، فقال نعم ، فقال اشكر الله على هذه النعمة لكني والله ما ادري ما اعتقد والله ما ادري ما اعتقد والله ما ادري ما اعتقد وبكى حتى اخضل لحيته . ولابن ابي الحديد الفاضل المشهور بالعراق

فيك يا اغلوطة الفكر * حار امري وانقضى عمري

سافرت فيك العقول فما * ربحت الا اذى السفر

فلحى الله الاولى زعموا * انك المعروف بالنظر

كذبوا ان الذي ذكروا * خارج عن قوة البشر

وقال الخوفجي عند موته ما عرفت مما حصلته شيئا سوى ان الممكن يفتقر الى المرجح ثم قال الافتقار وصف سابي، اموت وما عرفت شيئا . وقال آخر اضطجع على فراشي واضع اللحفة على وجهي واقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندى منها شيء . ومن يصل الى مثل هذه الحال ان لم يتداركه الله برحمته والا تزندق كما قال ابو يوسف من طلب الدين بالكلام تزندق ومن طلب المال بالكيميا افلس ومن طلب غريب الحديث كذب . وقال الشافعي رحمه الله حكمي في اهل الكلام ان يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واقبل على الكلام . وقال لقد اطلعت من اهل الكلام على شيء ماظننت مسلما يقوله ولان يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله خير له من ان يبتلى بالكلام انتهى . ونجد احد هؤلاء عند الموت يرجع الى مذهب العجائز فيقر بما اقروا به ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التي كان يقطع بها ثم تبين له فسادها اولم يتبين له صحتها فيكونون في نهاياتهم اذا سلموا من العذاب بمنزلة اتباع اهل العلم من الصبيان والنساء والاعراب . والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله اذا قام من الليل يفتتح الصلاة « اللهم رب جبرائيل

وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم » خرجه مسلم توجه ﷺ الى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل واسرافيل ان يهديه لما اختلف فيه من الحق باذنه اذ حياة القلب بالهداية . وقد وكل الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الابدان وسائر الحيوان واسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الارواح الى اجسادها فالتوسل الى الله سبحانه بربوبية هذه الارواح العظيمة الموكلة بالحياة له تاثير عظيم في حصول المطلوب والله المستعان قوله ﴿ ولا يصح الايمان بالرؤية لاهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم او تأولها بفهم اذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية بترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه ﴾ ش . يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية وعلى من يشبه الله بشيء من مخلوقاته فان النبي ﷺ قال « انكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر » الحديث ادخل كاف التشبيه على ما المصدرية الموصولة بترون التي يتجلى الى المصدر الذي هو الرؤية فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي وهذا بين واضح في ان المراد اثبات الرؤية وتحقيقها ودفع الاحتمالات عنها وما ذا بعد هذا البيان وهذا الايضاح فاذا سلط التأويل على مثل هذا النص كيف يستدل بنص من النصوص وهل يحتمل هذا النص ان يكون معناه انكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة

البدر . ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى ﴿ الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ﴾ ونحو ذلك مما استعمل فيه راى التي من افعال القلوب ولاشك ان ترى تارة تكون بصرية وتارة تكون قلبية وتارة تكون من رؤيا الحلم وغير ذلك ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص اصل معانيه من الباقي والا لو اخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لاحد المعاني لكان مجملا ملغزا لا مبينا موضحا واي بيان وقرينة فوق قوله « ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب » فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر او برؤية القلب وهل يخفى مثل هذا الا على من اعمى الله قلبه فان قالوا الجأنا الى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته تعالى محال لا يتصور امكانها . فالجواب ان هذه دعوى منكم خالفكم فيها اكثر العقلاء وليس في العقل ما يحيلها بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال . وقوله لمن اعتبرها منهم بوهم اي توهم ان الله تعالى يرى على صفة كذا فيتوهم تشبيها ثم بعد هذا التوهم ان اثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه وان نفى الرؤية من اصلها لاجل ذلك التوهم فهو جاحد معطل بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده ولا يعم بنفيه الحق والباطل فينفيهما ردا على من اثبت الباطل بل الواجب رد الباطل واثبات الحق والى هـذا المعنى اشار الشيخ رحمه الله بقوله ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه فان هؤلاء المعتزلة يزعمون انهم ينزهون الله بهذا النفي وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال فان نفي الرؤية ليس بصفة كمال اذ المعدوم لا يرى وانما الكمال في اثبات الرؤية ونفي ادراك الرائي له ادراك احاطة كما في العلم فان نفي العلم به ليس بكمال

وانما الكمال في اثبات العلم ونفي الاحاطة به علما فهو سبحانه لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علما . وقوله او تأولها بفهم اي ادعى انه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها وما يفهمه كل عربي من معناها فانه قد صار اصطلاح المتاخرين في معنى التأويل انه صرف اللفظ عن ظاهره وبهذا تسلط المحرفون على النصوص وقالوا نحن نتأول ما يخالف قولنا فسموا التحريف تأويلا تزيينا له وزخرفة ليقبل وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ﴾ والعبرة للمعاني لا للالفاظ فكم من باطل قد اقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم لا ندخل في ذلك متأولين بارائنا ولا متوهمين بأهوائنا ثم اكد هذا المعنى بقوله اذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين ومراده ترك التأويل يسمونه تأويلا وهو تحريف ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتي هي احسن كما امر الله تعالى بقوله ﴿وجادلهم بالتي هي احسن﴾ وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلا ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة وانما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السلف التي يدل الكتاب والسنة على فسادها وترك القول على الله بلا علم فمن التأويلات الفاسدة تأويل ادلة الرؤية وادلة العلو وانه لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ ابراهيم خليلا ثم قد صار لفظ التأويل مستعملا في غير معناه الاصلي فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله هو الحقيقة التي يؤول اليها الكلام فتأويل الخبر هو عين المخبر به وتأويل الامر نفس الفعل

المأمور به كما قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفرلي يتأول القرآن وقال تعالى ﴿هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ . ومنه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ . وقوله ﴿ويعلمك من تأويل الاحاديث﴾ وقوله ﴿ذلك خير وأحسن تأويلا﴾ وقوله ﴿سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبرا﴾ الى قوله ﴿ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبرا﴾ فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه . واما ما كان خبرا كالاخبار عن الله واليوم الآخر فهذا قدلا يعلم تأويله الذي هو حقيقته اذ كانت لا تعلم بمجرد الاخبار فان المخبر ان لم يكن قد تصور المخبر به او ما يعرفه قبل ذلك لم يعرف حقيقته التي هي تأويله بمجرد الاخبار وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه الا الله لكن لايلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب افهام المخاطب اياه فما في القرآن آية الا وقد امر الله بتدبرها وما انزل آية الا وهو يحب ان يعلم ما عنى بها وان كان من تأويله مالا يعلمه الا الله فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف ، وسواء كان هذا التأويل موافقا للظاهر او مخالفا له . والتأويل في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون به تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره او خالف وهذا اصطلاح معروف وهذا التأويل كالتفسير يحمد حقه ويرد باطله . وقوله تعالى ﴿وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم﴾ الآية فيها قراءتان قراءة من يقف على قوله الا الله وقراءة من لا يقف عندها وكلتا القراءتين حق ويراد بالأولى

المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله. اويراد بالثانية المتشابه الاضافي الذي يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله ولا يريد من وقف على قوله الا الله ان يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى . فان لازم هذا ان يكون الله انزل على رسوله كلاما لايعلم معناه جميع الأمة ولاالرسول ويكون الراسخون في العلم لاحظ لهم في معرفة معناه سوى قولهم ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ وهذا القدر يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين والراسخون في العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : انا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله . ولقد صدق رضي الله عنه فان النبي ﷺ دعا له وقال « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » رواه البخاري وغيره ودعاؤه ﷺ لا يرد . قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس من اوله الى آخره أقفه عند كل آية وأسأله عنها وقد تواترت النقول عنه انه تكلم في جميع معاني القرآن ولم يقل عن آية انها من المتشابه الذي لايعلم احد تأويله الا الله . وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول المتشابهة الحروف المقطعة في أوائل السور ، ويروى هذا عن ابن عباس مع ان هذه الحروف قد تكلم في معناها اكثر الناس فان كان معناها معروفا فقد عرف معنى المتشابه وان لم يكن معروفا وهي المتشابه كان ماسواها معلوم المعنى وهذا المطلوب . وايضا فان الله قال ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ وهذه الحروف ليست ايات عند الجمهور العادين . والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك وهذا هو التأويل الذي تنازع الناس فيه في كثير من الامور الخبرية والطلبية .

فالتأويل الصحيح منه الذي يوافق مادلت عليه نصوص الكتاب والسنة وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد وهذامبسوط في موضعه . وذكر في التبصرة أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمرو بن اسماعيل بن حماد بن ابي يحيى بن محمد ابن الحسن رحمهم الله انه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره الى التشبه فقال نمرها كما جاءت ونؤمن بها ولا نقول كيف وكيف ويجب ان يعلم ان المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص ولامقتضاه وان من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه واذا كان قد قيل في قول بعض الناس

وكم من عائب قولا صحيحا * وآفته من الفهم السقيم (وقيل)

علي بحث[1] القوافي من اماكنها * وما علي اذا لم تفهم البقر

فكيف يقال في قول الله الذي هو اصدق الكلام واحسن الحديث وهو الكتاب الذي احكمت اياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ان حقيقة قولهم ان ظاهر القرآن والحديث هو الضلال وانه ليس فيه بيان مايصلح من الاعتقاد ولافيه بيان التوحيد والتنزيه هذا حقيقة قول المتأولين والحق ان مادل عليه القرآن فهو حق وما كان باطلا لم يدل عليه والمنازعون يدعون دلالته على الباطل الذي يتعين صرفه فيقال لهم : هذا الباب الذي فتحتموه وان كنتم تزعمون انكم تنتصرون به على اخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية فقد فتحتم عليكم بابا لانواع المشركين والمبتدعين لاتقدرون على سده فانكم اذا سوغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي فما الضابط فيما يسوغ تأويله

(١) لعلها بعث

ومالا يسوغ فان قلتم ما دل القاطع العقلي على استحالته تأولناه والا أقررناه قيل لكم وبأي عقل نزن القاطع العقلي فان القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى وعلى امتناع قيام علم او كلام او رحمة به تعالى . وباب التأويلات التي يدعي اصحابها وجوبها بالمعقولات اعظم من ان تنحصر في هذا المقام ويلزم حينئذ محذوران عظيمان : (احدهما) ان لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثا طويلة عريضة في امكان ذلك بالعقل وكل طائفة من المختلفين في الكتاب يدعون ان العقل يدل على ماذهبوا اليه فيؤول الأمر الى الحيرة المحذورة .(الثاني) ان القلوب تتخلى عن الجزم بشيء نعتقده مما اخبر به الرسول اذلا يوثق بان الظاهر هو المراد والتأويلات مضطربة فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والارشاد الى ما انبأ الله به العباد وخاصة النبي هي الانباء والقرآن هو النبأ العظيم ولهذا نجد اهل التأويل انما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ان وافقت ما ادعوا ان العقل دل عليه قبلوه وان خالفته اولوه وهذا فتح باب الزندقة نسأل الله العافية .قوله ﴿ومن لم يتوق النفي زل ولم يصب التنزيه والاعتماد﴾

النفي والتشبيه مرضان من امراض القلوب فان امراض القلوب نوعان مرض شبهة ومرض شهوة وكلاهما مذكور في القرآن قال تعالى ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ فهذا مرض الشهوة وقال تعالى ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وقال تعالى ﴿ واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ﴾ فهذا مرض الشبهة وهو أردى من مرض الشهوة اذ مرض الشهوة

يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ومرض الشبهة لاشفاء له ان لم يتداركه الله برحمته والشبهة التي في مسئلة الصفات نفيها وتشبيهها وشبه النفي أردى من شبه التشبيه فان شبه النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول ﷺ وشبهة التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول ﷺ وتشبيه الله بخلقه كفر فان الله تعالى يقول ﴿ليس كمثله شيء﴾ ونفي الصفات كفر فان الله تعالى يقول ﴿وهو السميع البصير﴾ وهذا اصل نوعي التشبيه فان التشبيه نوعان تشبيه الخالق بالمخلوق وهذا الذي يتعب اهل الكلام في رده وابطاله واهله في الناس اقل من النوع الثاني الذين هم اهل تشبيه المخلوق بالخالق كعباد المشايخ وعزير والشمس والقمر والاصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن وغير ذلك وهؤلاء هم الذين ارسلت لهم الرسل يدعونهم الى عبادة الله وحده لاشريك له قوله ﴿ فان ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية منعوت بنعوت الفردانية ليس في معناه احد من البرية ﴾ يشير الشيخ رحمه الله الى تنزيه الرب تعالى بالذي هو وصفه كما وصف نفسه نفيا واثباتا وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الاخلاص فقوله موصوف بصفات الوحدانية مأخوذ من قوله تعالى ﴿ قل هو الله احد ﴾ وقوله منعوت بنعوت الفردانية من قوله تعالى ﴿ الله الصمد لم يلد ولم يولد ﴾ . وقوله ليس في معناه احد من البرية من قوله تعالى ﴿ ولم يكن له كفوا احد ﴾ وهو ايضا مؤكد لما تقدم من اثبات الصفات ونفي التشبيه والوصف والنعت مترادفان وقيل متقاربان فالوصف للذات والنعت للفعل وكذلك الوحدانية والفردانية وقيل في الفرق بينهما ان الوحدانية للذات والفردانية للصفات فهو تعالى موحد في ذاته منفرد

بصفاته وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه احد ولكن في اللفظ نوع تكرير .
والشيخ نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة وهو بالخطب والادعية
اشبه منه بالعقائد والتشجيع بالخطب اليق وليس كمثله شيء اكمل في التنزيه
من قوله ليس في معناه احد من البرية قوله ﴿ وتعالى عن الحدود والغايات
والاركان والاعضاء والادوات لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ﴾

اذكر بين يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة وهي ان للناس في
اطلاق مثل هذه الالفاظ ثلاثة اقوال فطائفة تنفيها وطائفة تثبتها وطائفة
تفصل وهم المتبعون للسلف فلايطلقون نفيها ولا اثباتها الا اذا تبين ما اثبت
بها فهو ثابت وما نفي بها فهو منفي لأن المتأخرين قد صارت هذه الالفاظ
في اصطلاحهم فيها اجمال وابهام كغيرها من الالفاظ الاصطلاحية فليس كلهم
يستعملها في نفس معناها اللغوي ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاوباطلاويذكرون
عن مثبتها ما لا يقولون به وبعض المثبتين لها يدخل لها معنى باطلا يخالف
لقول السلف ولما دل عليه الكتاب والميزان ولم يرد نص من الكتاب ولا
من السنة بنفيها ولا اثباتها وليس لنا ان نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه
ولا وصفه به رسوله نفيا ولا اثباتا وانما نحن متبعون لا مبتدعون فالواجب
ان ينظر في هذا الباب اعني باب الصفات فما اثبته الله ورسوله اثبتناه ومانفاه
الله ورسوله نفيناه والالفاظ التى ورد بها النص يعتصم بها في الاثبات والنفي
فنثبت مااثبته الله ورسوله من الالفاظ والمعاني وننفي ما نفته نصوصهما من
الالفاظ والمعاني . واماالألفاظ التي لم يرد نفيها ولااثباتها لانطلق حتى ينظر
في مقصود قائلها فان كان معنى صحيحا قبل لكن ينبغي التعبير عنه بالفاظ

النصوص دون الالفاظ المجملة الا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة مثل ان يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه ان لم يخاطب بها ونحو ذلك. والشيخ رحمه الله اراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجوازبي وامثاله القائلين ان الله جسم وانه جثة واعضاء وغير ذلك ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا فالمعنى الذى اراده الشيخ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق لكن حدث بعده من ادخل في عموم نفيه حقا وباطلا فيحتاج الى بيان ذلك . وهو ان السلف متفقون على ان البشر لا يعلمون لله حدا وانهم لا يحدون شيئا من صفاته قال ابو داود الطيالسي كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وابو عوانة لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون يروون الحديث ولا يقولون كيف واذا سئلوا قالوا بالاثر وسيأتي في كلام الشيخ وقد اعجز خلقه عن الاحاطة به فعلم ان مراده ان الله يتعالى عن ان يحيط احد بحده لا ان المعنى انه متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم سئل عبد الله بن المبارك بم نعرف ربنا ؟ قال : بأنه على العرش بائن من خلقه قيل بحد قال : بحد انتهى . ومن المعلوم ان الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره والله تعالى غير حال في خلقه ولا قائم بهم بل هو القيوم القائم بنفسه المقيم لما سواه فالحد بهذا المعنى لا يجوز ان يكون فيه منازعة في نفس الأمر اصلا فانه ليس وراء نفيه الا نفي وجود الرب ونفي حقيقته واما الحد بمعنى العلم والقول وهو ان يحده العباد فهذا منتف بلا منازعة بين اهل السنة . قال ابو القاسم القشيري في رسالته : سمعت الشيخ ابا عبد الرحمن السلمي سمعت ابا منصور بن عبد الله سمعت ابا الحسن العنبري سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول . وقد سئل

عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالاحاطة ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا وهي موجودة بحقائق الايمان من غير حد ولا احاطة ولا حلول وتراه العيون في العقبى ظاهرا في ملكه وقدرته قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه بآياته فالقلوب تعرفه والعيون لا تدركه ينظر اليه المؤمن بالأبصار من غير احاطة ولا ادراك نهاية . واما لفظ الأركان والأعضاء والادوات فيستدل بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية كاليد والوجه . قال ابو حنيفة رضي الله عنه في الفقه الأكبر : له يد ووجه ونفس كما ذكر تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس فهو له صفة بلا كيف ولا يقال أن يده قدرته ونعمته لأن فيه ابطال الصفة انتهى . وهذا الذي قاله الامام رضي الله عنه ثابت بالأدلة القاطعة قال تعالى ﴿ ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى — والأرض جميعا قبضته يوم القيمة والسموات مطويات بيمينه ﴾ . وقال تعالى ﴿ كل شيء هالك الاوجهه — ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ . وقال تعالى ﴿ تعلم ما في نفسي ولا اعلم ما في نفسك ﴾ وقال تعالى ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وقال تعالى ﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ وقال تعالى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ . وقال ﷺ في حديث الشفاعة لما يأتى الناس آدم فيقولون له : «خلقك الله بيده واسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء» الحديث ولا يصح تأويل من قال : ان المراد باليد بالقدرة فان قوله لما خلقت بيدى لا يصح ان يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد ولو صح ذلك لقال ابليس : وانا ايضا خلقتنى بقدرتك فلا فضل له علي بذلك فابليس مع كفره كان اعرف بربه من الجهمية ولا دليل لهم في قوله تعالى ﴿ اولم يروا انا

خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها ما لكون ﴾ لانه تعالى جمع الايدي لما
اضافها الى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان اللفظان للدلالة على الملك والعظمة ولم يقل
ايدى مضاف الى ضمير المفرد ولا يدينا بتثنية اليد مضاف الى ضمير الجمع فلم يكن
قوله ﴿ مما عملت ايدينا ﴾ نظير قوله ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ وقال النبي ﷺ
عن ربه عز وجل « حجابه النور ولو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى
اليه بصره من خلقه » ولكن لا يقال لهذه الصفات انها اعضاء او جوارح
او ادوات او اركان لان الركن جزء الماهية والله تعالى هو الاحد الصمد لا يتجزأ
سبحانه وتعالى والاعضاء فيها معنى التفريق والتعضية تعالى الله عن ذلك ومن
هذا المعنى قوله تعالى ﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ والجوارح فيها معنى
الاكتساب والانتفاع وكذلك الادوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب
المنفعة ودفع المضرة وكل هذه المعاني منتفية عن الله تعالى ولهذا لم يرد ذكرها
في صفات الله تعالى فالالفاظ الشرعية صحيحة المعاني سالمة من الاحتمالات
الفاسدة فكذلك يجب ان لا يعدل عن الالفاظ الشرعية نفيا ولا اثباتا لئلا يثبت
معنى فاسد او ينفي معنى صحيح وكل هذه الالفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل
واما لفظ الجهة فقد يراد به ما هو موجود وقد يراد به ما هو معدوم ومن
المعلوم انه لا موجود الا الخالق والمخلوق فاذا اريد بالجهة امر موجود غير الله
تعالى كان مخلوقا والله تعالى لا يحصره شيء ولا يحيط به شيء من المخلوقات
تعالى الله عن ذلك وان اريد بالجهة امر عدمي وهو ما فوق العالم فليس هناك
الا الله وحده فاذا قيل انه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح ومعناه انه فوق
العالم حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليه . ونفاة لفظ الجهة الذين

يويدون بذلك نفي العلو يذكرون من ادلتهم ان الجهات كلها مخلوقة وانه كان قبل الجهات وان من قال انه في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم وانه كان مستغنيا عن الجهة ثم صار فيها وهذه الالفاظ ونحوها انما تدل على انه ليس في شيء من المخلوقات سواء سمي جهة اولم يسم وهذا حق ولكن الجهة ليست امرا وجوديا بل امرا اعتباريا ولا شك ان الجهات لا نهاية لها وما لا يوجد فيها لا نهاية له فليس بموجود وقول الشيخ رحمه الله لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات هو حق باعتبار انه لا يحيط به شيء من مخلوقاته بل هو محيط بكل شيء وفوقه وهذا المعنى هو الذي اراده الشيخ رحمه الله لما يأتي في كلامه انه تعالى محيط بكل شيء وفوقه فاذا جمع بين كلامه وهو قوله لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات وبين قوله محيط بكل شيء وفوقه علم ان مراده ان الله تعالى لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء كما يكون لغيره من المخلوقات وانه تعالى هو المحيط بكل شيء العالي على كل شيء لكن بقي من كلامه شيئان (احدهما) ان اطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الاجمال والاحتمال كان تركه اولى والا تسلط عليه والزم بالتناقض في اثبات الاحاطة والفوقية ونفي جهة العلو وان اجيب عنه بما تقدم من انه انما نفى ان يحويه شيء من مخلوقاته فالاعتصام بالالفاظ الشرعية اولى (الثاني) ان قوله كسائر المبتدعات يفهم منه انه ما من مبتدع الا وهو محوي وفي هذا نظر فانه ان اراد انه محوي بامر وجودي فممنوع فان العالم ليس في عالم آخر والا لزم التسلسل وان اراد امرا عدميا فليس كل مبتدع في العدم بل منها ما هو داخل في غيره كالسموات والارض في الكرسي ونحو ذلك ومنها ما هو منتهى المخلوقات

كالعرش فسطح العالم ليس في غيره من المخلوقات قطعا للتسلسل كما تقدم
ويمكن ان يجاب عن هذا الاشكال بان سائر بمعنى البقية لا بمعنى الجميع هذا اصل
معناها ومنه السؤر وهو ما يبقيه الشارب في الاناء فيكون مراده غالب
المخلوقات لا جميعها اذ السائر على الغالب ادل منه على الجميع فيكون المعنى ان الله
تعالى غير محوي كما يكون اكثر المخلوقات محويا بل هو غير محوي بشيء تعالى
الله عن ذلك ولا يظن بالشيخ رحمه الله انه ممن يقول ان الله تعالى ليس داخل العالم
ولا خارجه بنفي التعيينين كما ظنه بعض الشارحين بل مراده ان الله تعالى منزه
عن ان يحيط به شيء من مخلوقاته وان يكون مفتقرا الى شيء منها العرش
اوغيره وفي ثبوت هذا الكلام عن الامام ابي حنيفة رضي الله عنه نظر فان
اضداده قد شنعوا عليه بأشياء اهون منه فلو سمعوا مثل هذا الكلام لشاع
عنهم تشنيعهم عليه به وقد نقل ابو مطيع البلخي عنه اثبات العلو كما سيأتي
ذكره ان شاء الله تعالى . وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه ولم يرد بمثله كتاب
ولا سنة فلذلك قلت ان في ثبوته عن الامام نظرا وان الأولى التوقف في اطلاقه
فان الكلام بمثله خطر بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع كالاستواء والنزول
ونحو ذلك ومن ظن من الجهال انه اذا نزل الى سماء الدنيا كما اخبر الصادق
ﷺ يكون العرش فوقه ويكون محصورا بين طبقتين من العالم فقوله مخالف
لاجماع السلف مخالف الكتاب والسنة . وقال شيخ الاسلام ابو عثمان اسماعيل
ابن عبد الرحمن الصابوني سمعت الاستاذ ابا منصور بن حماد بعد روايته حديث
النزول يقول : سئل ابو حنيفة عنه فقال . ينزل بلا كيف انتهى . وانما توقف من
توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة واقوال السلف ولذلك

ينكر بعضهم ان يكون فوق العرش بل يقول لامباين ولامجانب لا داخل العالم ولاخارجه فيصفونه بصفة العدم والممتنع ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش ويقول بعضهم بحلوله فى كل موجود ويقول هو وجود كل موجود ونحو ذلك تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . وسيأتي لاثبات صفة العلو لله تعالى زيادة بيان عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله محيط بكل شيء وفوقه ان شاء الله تعالى . قوله ﴿ والمعراج حق وقد اسرى بالنبي ﷺ وعرج بشخصه فى اليقظة الى السماء ثم الى حيث شاء الله من العلا واكرمه الله بما شاء واوحى اليه ما اوحى ما كذب الفؤاد ما رأى فصلى الله عليه في الآخرة والاولى ﴾ المعراج مفعال من العروج اي الآلة التي يعرج فيها اي يصعد وهو بمنزلة السلم لكن لا يعلم كيف هو وحكمه كحكم غيره من المغيبات نؤمن به ولا نشتغل بكيفيته. وقوله وقد اسرى بالنبي ﷺ بشخصه في اليقظة اختلف الناس في الاسرى فقيل كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده نقله ابن اسحاق عن عائشة رضي الله عنها ونقل عن الحسن البصري نحوه لكن ينبغي ان يعرف الفرق بين ان يقال كان الاسراء مناما وبين ان يقال كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا كان مناما وانما قالا اسري بروحه ولم نفقد جسده وفرق ما بين الامرين اذ ما يراه النائم قد يكون امثالا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة فيرى كانه قد عرج الى السماء وذهب به الى مكة وروحه لم تصعد ولم تذهب وانما ملك الرؤيا ضرب له المثال فيما اراد ان الاسراء كان مناما وانما اراد ان الروح ذاتها اسري بها ففارقت الجسد ثم عادت اليه

ويجعلان هذا من خصائصه فان غيره لاتنال ذات روحه الصعود الكامل الى
السماء الا بعد الموت وقيل كان الاسرى مرتين مرة يقظة ومرة مناما واصحاب
هذا القول كانهم ارادوا الجمع بين حديث شريك وقوله ثم استيقظت وبين
سائر الروايات وكذلك منهم من قال بل كان مرتين مرة قبل الوحي ومرة
بعده ومنهم من قال بل ثلاث مرات مرة قبل الوحي ومرتين بعده وكل ما
اشتبه عليهم لفظ زادوا مرة للتوفيق وهذا يفعله ضعفاء اهل الحديث والا
فالذي عليه ائمة النقل ان الاسراء كان مرة واحدة بمكة بعد البعثة قبل الهجرة
بسنة وقيل بسنة وشهرين ذكره ابن عبدالبر قال: شمس الدين بن القيم ياعجبا
لهؤلاء الذين زعموا انه كان مرارا كيف ساغ لهم ان يظنوا انه في كل
مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى
تصير خمسا فيقول امضيت فريضتي وخففت عن عبادي ثم يعيدها
في المرة الثانية الى خمسين ثم يحطها الى خمس وقد غلط الحفاظ شريكا
في الفاظ من حديث الاسراء ومسلم اورد المسند منه. ثم قال فقدم واخر
وزاد ونقص واجاد رحمه الله انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله وكان
من حديث الاسراء انه ﷺ اسرى بجسده في اليقظة على الصحيح من
المسجد الحرام الى المسجد الاقصى راكبا على البراق صحبة جبرائيل عليه السلام
فنزل هناك وصلى بالانبياء اماما وربط البراق بحلقة باب المسجد. وقد قيل
انه نزل بيت لحم وصلى فيه ولا يصح عنه ذلك البتة ثم عرج به من بيت المقدس
تلك الليلة الى السماء الدنيا فاستفتح له جبرائيل ففتح لهما فرأى هناك آدم
ابا البشر فسلم عليه فرحب به ورد عليه السلام واقر بنبوته ثم عرج به الى

السماء الثانية فاستفتح له فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم فلقيهما
فسلم عليهما فردا عليه السلام ورحبا به واقرا بنبوته ثم عرج به الى السماء الثالثة
فرأى فيها يوسف فسلم عليه ورحب به واقر بنبوته ثم عرج به الى السماء الرابعة
فرأى فيها ادريس فسلم عليه ورحب به واقر بنبوته ثم عرج به الى السماء الخامسة
فرأى فيها هارون بن عمران فسلم عليه ورحب به واقر بنبوته ثم عرج به الى
السماء السادسة فلقي فيها موسى فسلم عليه ورحب به واقر بنبوته فلما جاوزه
بكى موسى فقيل له ما يبكيك قال ابكي لان غلاما بعث بعدي يدخل الجنة
من امته اكثر مما يدخلها من امتي ثم عرج به الى السماء السابعة فلقي فيها
ابراهيم فسلم عليه ورحب به واقر بنبوته ثم رفع الي سدرة المنتهى ثم رفع له
البيت المعمور ثم عرج به الى الجبار جل جلاله وتقدست اسماؤه فدنا منه
حتى كان قاب قوسين او ادنى فاوحى الى عبده ما اوحى وفرض له خمسين
صلاة فرجع حتى مر على موسى فقال بم امرت قال بخمسين صلاة فقال ان
امتك لا تطيق ذلك ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فالتفت الى
جبرائيل كانه يستشيره في ذلك فاشار ان نعم ان شئت فعلا به جبرائيل حتى
اتى به الى الجبار تبارك وتعالى وهو في مكانه . هذا لفظ البخاري في صحيحه
في بعض الطرق فوضع عنه عشرا ثم نزل حتى مر بموسى فاخبره فقال ارجع
الى ربك فاسأله التخفيف فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله تبارك وتعالى
حتى جعلها خمسا فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف فقال قد استحييت
من ربي ولكن ارضى واسلم فلما نفذ نادى مناد قد امضيت فريضتي وخففت
عن عبادي وقد تقدم ذكر اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربه عز وجل

بعين رأسه وان الصحيح انه رآه بقلبه ولم يره بعين رأسه وقوله ما كذب الفؤاد ماراى ولقدرآه نزلة اخرى. صح عن النبي ﷺ انهذا المرئي جبرائيل رآه مرتين على صورته التي خلق عليها واما قوله تعالى في سورة النجم ﴿ ثم دنى فتدلى ﴾ فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الاسراء فان الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه. كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما فانه قال علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالافق الاعلى ثم دنا فتدلى فالضمائر كلها راجعة الى هـذا المعلم الشديد القوي واما الدنو والتدلي الذي في حديث الاسراء فذلك صريح في انه دنو الرب تعالى وتدليه. واما الذي في سورة النجم انه رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل رآه مرتين مرة في الارض ومرة عند سدرة المنتهى ومما يدل على ان الاسراء بجسده في اليقظة قوله تعالى ﴿ سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ﴾ والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح كما ان الانسان اسم لمجموع الجسد والروح هذا هو المعروف عند الاطلاق وهو الصحيح فيكون الاسراء بهذا المجموع ولا يمتنع ذلك عقلا ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة وذلك يؤدى الى انكار النبوة فهو كفر فان قيل فما الحكمة في الاسراء الى بيت المقدس اولا. فالجواب والله اعلم انه كان ذلك اظهاراً لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس فنعته لهم واخبرهم عن عيرهم التى مر عليها في طريقه ولو كان عروجه الى السماء من مكة لما حصل ذلك اذلا يمكن اطلاعهم على مافي السماء لو اخبرهم عنه وقد اطلعوا على بيت المقدس فأخبرهم بنعته وفي حديث المعراج

دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه لمن تدبره وبالله التوفيق . قوله ﴿ والحوض الذى اكرمه الله تعالى به غياثا لأمته حق ﴾ ش . الاحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حدالتواتر رواهامن الصحابة بضع وثلاثون صحابيا ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير تغمده الله برحمته في آخر تاريخه الكبير المسمى بالبداية والنهاية . فمنها مارواه البخاري رحمه الله تعالى عن انس بن مالك رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « ان قدر حوضي كما بين أيله الى صنعاء من اليمن وان فيه من الاباريق كعدد نجوم السماء » وعنه ايضا عن النبي ﷺ قال « ليردن علي ناس من اصحابي حتى اذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول : اصحابي فيقول : لاتدري ماا حدثوا بعدك » رواه مسلم . وروى الامام احمد عن انس بن مالك قال « اغفى رسول الله ﷺ اغفاءة فرفع رأسه مبتسما إما قال لهم وإما قالوا له : لم ضحكت فقال رسول الله ﷺ : انه نزلت علي آنفا سورة فقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله اعلم قال « هو نهر اعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير ترد عليه امتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول : يا رب انه من امتي فقال : انك لاتدري ماا حدثوا بعدك » ورواه مسلم ولفظه هو نهر وعدنيه ربى عليه خير كثير هو حوض ترد عليه امتي يوم القيمة والباقي مثله ومعنى ذلك انه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر الى الحوض والحوض في العرصات قبل الصراط لأنه يختلج عنه ويمنع منه اقوام قدارتدوا على اعقابهم ومثل هؤلاء لايجاوزون الصراط . وروى البخارى ومسلم عن جندب بن عبد الله

البجلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « انا فرطكم على الحوض » والفرط الذي سبق الى الماء . وروى البخاري عن سهل بن سعد الانصاري قال قال رسول الله ﷺ « اني فرطكم على الحوض من مر علي شرب ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردن علي اقوام اعرفهم ويعرفوني ثم يحال بيني وبينهم » قال ابو حازم : فسمعني النعمان بن ابي عياش فقال . هكذا سمعت من سهل فقلت نعم فقال : اشهد على ابي سعيد الخدري سمعته وهو يزيد فيها . فأقول : انهم من امتي فقال : انك لا تدري ما احدثوا بعدك فأقول « سحقاً سحقاً لمن غير بعدي » سحقاً اي بعدا والذى يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض انه حوض عظيم ومورد كريم يمد من شراب الجنة من نهر الكوثر الذي هو اشد بياضا من اللبن وابرد من الثلج واحلى من العسل واطيب ريحاً من المسك وهو في غاية الاتساع عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفي بعض الأحاديث انه كل ماشرب منه وهو في زيادة واتساع وانه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ويثمر الوان الجواهر فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء وقد ورد فى احاديث « ان لكل نبي حوضاً » وان حوض نبينا ﷺ اعظمها واحلاها وا كثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه . قال العلامة ابو عبد الله القرطبي رحمه الله فى التذكرة . واختلف فى الميزان والحوض ايهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل الميزان وقيل الحوض قال ابو الحسن القابسي : والصحيح ان الحوض قبل قال القرطبي والمعنى يقتضيه فان الناس يخرجون عطاشا من قبورهم كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط . قال ابو حامد الغزالى في كتاب كشف علم

الآخرة حكى بعض السلف من اهل التصنيف ان الحوض يورد بعد الصراط
وهو غلط من قائله قال القرطبي هو كما قال ثم قال القرطبي ولا يخطر ببالك انه
في هذه الارض بل في الارض المبدلة ارض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ولم يظلم
على ظهرها احد قط تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء انتهى . فقاتل الله
المنكرين لوجود الحوض واخلق بهم ان يحال بينهم وبين وروده يوم العطش
الاكبر قوله ﴿والشفاعة التي ادخرها لهم حق كما روي في الاخبار﴾ الشفاعة انواع
منها ما هو متفق عليه بين الامة ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع .
(النوع الأول) الشفاعة الاولى وهي العظمى الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر
اخوانه من الانبياء والمرسلين صلوات الله عليهم اجمعين في الصحيحين وغيرهما
عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم اجمعين احاديث الشفاعة . منها عن ابي
هريرة رضي الله عنه قال أتى رسول الله ﷺ بلحم فدفع اليه منها الذراع
وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال « أنا سيد الناس يوم القيمة وهل
تدرون مما ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد فيقول بعض الناس
لبعض : ألا ترون ما انتم فيه ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع
لكم الى ربكم فيقول بعض الناس لبعض : أبوكم آدم فيأتون آدم فيقولون :
يا آدم انت ابو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة
فسجدوا لك فاشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه الا ترى ما قد بلغنا فيقول
آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه
نهاني عن أكل الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا الى
نوح فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح انت اول الرسل الى اهل الأرض وسماك الله

عبداً شكوراً فاشفع لنا الى ربك الاترى مانحن فيه ألاترى ماقد بلغنا فيقول نوح : ان ربى قدغضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وانه كانت لي دعوة دعوت بها على قومي نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى غيري اذهبوا إلى ابراهيم فيأتون ابراهيم فيقولون : ياابراهيم انت نبي الله وخليله من اهل الأرض الاترى مانحن فيه الاترى ماقد بلغنا فيقول: ان ربى قدغضب اليوم غضباً لن يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وذكر كذباته نفسي نفسي نفسي اذهبوا الى موسى فيأتون موسى فيقولون: ياموسى انت رسول الله اصطفاك الله برسالاته وبتكليمه على الناس اشفع لنا الى ربك ألاترى مانحن فيه ألاترى ماقد بلغنا فيقول لهم موسى : ان ربي قدغضب اليوم غضبالم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله واني قتلت نفساً لم اومر بقتلها نفسى نفسى نفسى اذهبوا الى غيري اذهبوا الى عيسى فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسي انت رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه قال هكذا هو وكلمت الناس في المهد فاشفع لنا الى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا فيقول لهم عيسى : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً اذهبوا الى محمد ﷺ فيأتوني فيقولون : يامحمد انت رسول الله وخاتم الانبياء غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فاشفع لنا الى ربك ألا ترى مانحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا فاقوم فآتي تحت العرش فاقع ساجداً لربي عزوجل ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه مالم يفتحه على احد قبلي فيقال يا محمد ارفع رأسك سل تعطه اشفع تشفع فاقول : رب امتي امتي يارب امتي امتي يارب امتي امتي فيقال ادخل من امتك من

لاحساب عليه من الباب الأيمن من ابواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سواه
من الأبواب ثم قال : والذي نفسي بيده لما بين مصراعين من مصاريع الجنة
كما بين مكة وهجر او كما بين مكة وبصرى » اخرجاه في الصحيحين بمعناه .
واللفظ للامام أحمد . والعجب كل العجب من ايراد الأئمة لهذا الحديث
من اكثر طرقه لايذكرون أمر الشفاعة الأولى في أن يأتي الرب سبحانه
وتعالى لفصل القضاء كما ورد هذا فى حديث الصور فانه المقصود في هذا
المقام ومقتضى سياق اول الحديث فان الناس انما يستشفعون الى آدم فمن
بعده من الانبياء في أن يفصل بين الناس ويستريحوا من مقامهم كما دلت عليه
سياقاته من سائر طرقه فاذاوصلوا الى الجزاء انما يذكرون الشفاعة في عصاة
الأمة واخراجهم من النار . وكان مقصود السلف في الاقتصار على هذا
المقدار من الحديث هو الرد على الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة الذين انكروا
خروج أحد من النار بعد دخولها فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي
فيه النص الصريح في الرد عليهم فيما ذهبوا اليه من البدعة المخالفة للأحاديث
وقد جاء التصريح بذلك في حديث الصور ولولا خوف الاطالة لسقته بطوله
لكن من مضمونه انهم يأتون آدم ثم نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم
يأتون رسول الله محمدا ﷺ فيذهب فيسجد تحت العرش في مكان يقال له الفحص
فيقول الله : ماشأنك وهو اعلم قال رسول الله ﷺ فاقول : يا رب وعدتني الشفاعة
فشفعني في خلقك فاقض بينهم فيقول سبحانه وتعالى : شفعتك انا آتيكم
فأقض بينهم قال فارجع فاقف مع الناس ثم ذكر انشقاق السموات وتنزل
الملائكة في الغمام ثم يجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء والكروبيون

والملائكة المقربون يسبحونه بانواع التسبيح قال فيضع الله كرسيه حيث شاء
من أرضه ثم يقول : اني انصت لكم منذ خلقتكم الى يومكم هذا اسمع اقوالكم
وارى اعمالكم فانصتوا الي فانما هي اعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم فمن وجد
خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه الى ان قال فاذا افضى
اهل الجنة الى الجنة قالوا : من يشفع لنا الى ربنا فندخل الجنة فيقولون من
احق بذلك من ابيكم انه خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلا
فيأتون آدم فيطلبون ذلك اليه وذكر نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى
ثم محمدا ﷺ الى ان قال قال رسول الله ﷺ « فآتي الجنة فآخذ بحلقة الباب ثم
استفتح فيفتح لي فاحيا ويرحب بي فاذا دخلت الجنة فنظرت الى ربي عز
وجل خررت له ساجدا فيأذن لي من حمده وتحميده بشيء ما اذن به لاحد
من خلقه ثم يقول الله لي ارفع يا محمد واشفع تشفع وسل تعطه فاذا رفعت
رأسي . قال الله وهو اعلم ما شانك فاقول يارب وعدتني الشفاعة فشفعني في
اهل الجنة يدخلون الجنة فيقول الله عز وجل قد شفعتك واذنت لهم في
دخول الجنة » الحديث رواه الائمة ابن جرير في تفسيره والطبراني وابو يعلى
الموصلي والبيهقي (النوع الثاني والثالث) من الشفاعة شفاعته ﷺ في اقوام
قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة وفي اقوام آخرين
قد امر بهم الى النار لايدخلونها (النوع الرابع) شفاعته ﷺ في رفع درجات
من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب اعمالهم وقد وافقت المعتزلة
على هذه الشفاعة خاصة وخالفوا فيما عداها من المقامات مع تواتر الاحاديث
فيها (النوع الخامس) الشفاعة في اقوام ان يدخلوا الجنة بغير حساب ويحسن

ان يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن حين دعا له رسول الله ﷺ
ان يجعله من السبعين الفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب والحديث مخرج
في الصحيحين (النوع السادس) الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه
كشفاعته في عمه ابي طالب ان يخفف عنه عذابه ثم قال القرطبي في التذكرة
بعد ذكر هذا النوع . فان قيل فقد قال تعالى ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾
قيل له لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يخرجون
منها ويدخلون الجنة (النوع السابع) شفاعته ان يؤذن لجميع المؤمنين في دخول
الجنة كما تقدم وفي صحيح مسلم عن انس رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال
« انا اول شفيع في الجنة » (النوع الثامن) شفاعته في اهل الكبائر من امته ممن
دخل النار فيخرجون منها وقد تواترت بهذا النوع الاحاديث وقد خفي علم ذلك
على الخوارج والمعتزلة فخالفوا في ذلك جهلا منهم بصحة الاحاديث وعنادا ممن علم
ذلك واستمر على بدعته وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون
ايضا وهذه الشفاعة تتكرر منه ﷺ اربع مرات ومن احاديث هذا النوع حديث
انس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ شفاعتي لاهل الكبائر من امتي رواه الامام
احمد . وروى البخاري رحمه الله في كتاب التوحيد [1] حدثنا سليمان بن حرب
حدثنا حماد بن زيد حدثنا سعد بن هلال العنزي . قال اجتمعنا ناس من اهل البصرة
فذهبنا الى انس بن مالك وذهبنا معنا بثابت البناني يسأله لنا عن حديث الشفاعة فاذا
هو في قصره فوافيناه يصلي الصبح فاستأذنا فاذن لنا وهو قاعد على فراشه فقلنا
لثابت : لا تسأله عن شيء اول من حديث الشفاعة . فقال حدثنا محمد ﷺ قال « اذا

(١) في باب كلام الرب تعالى يوم القيامة الانبياء وغيرهم

كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم في بعض فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا الى ربك فيقول : لست لها ولكن عليكم بابراهيم فانه خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول : لست لها ولكن عليكم بموسى فانه كليم الله فيأتون موسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بعيسى فانه روح الله وكلمته فيأتون عيسى فيقول : لست لها ولكن عليكم بمحمد فيأتوني فأقول : انا لها فأستأذن على ربي فيأذن لي ويلهمني محامد احمده بها لا تحضرني الآن فاحمده بتلك المحامد وأخر له ساجدا فيقال يامحمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع وسل تعط فاقول : يا رب امتي امتي فيقال انطلق فاخرج من كان في قلبه مثقال شعيرة من ايمان فانطلق فافعل ثم اعود فاحمد بتلك المحامد ثم اخر له ساجدا فيقال يامحمد ارفع رأسك وقل يسمع لك واشفع تشفع واسأل تعط فأقول يارب امتي امتي فيقال انطلق فاخرج من كان في قلبه مثقال ذرة او خردلة من ايمان فانطلق فافعل ثم اعود فاحمده بتلك المحامد ثم اخر له ساجدا فيقال يامحمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع فاقول يارب امتي امتي فيقول انطلق فاخرج من كان في قلبه ادنى ادنى مثقال حبة من خردل من ايمان فاخرجه من النار فانطلق فافعل » قال فلما خرجنا من عند انس قلت لو مررنا بالحسن وهو متوار في منزل ابي خليفة فحدثناه بما حدثنا به انس بن مالك فاتيناه فسلمنا عليه فاذن لنا فقلنا له يا اباسعيد جئناك من عند اخيك انس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا في الشفاعة فقال هيه فحدثنا بالحديث فاتينا الى هذا الموضع فقال هيه فقلنا لم تردد لنا على هذا فقال لقد حدثني وهو جميع منذ عشرين سنة فما ادري انسي ام كره ان تتكلموا فقلنا يا ابا سعيد فحدثنا فضحك

وقال خلق الأنسان عجولا ما ذكرته الا وانا اريد ان احدثكم حديثي كما حدثكم قال ثم اعود الرابعة فاحمده بتلك المحامد ثم اخرله ساجدا فيقال يامحمد ارفع راسك وقل يسمع لك وسل تعطه واشفع تشفع فاقول يارب ائذن لى فيمن قال لا اله الا الله فيقول سبحانه وتعالى وعزتي وجلالى وكبريائي وعظمتى لاخرجن منها من قال لا اله الاالله » وهكذا رواه مسلم. وروى الحافظ ابو يعلى عن عثمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « يشفع يوم القيامة ثلاثة الانبياء ثم العلماء ثم الشهداء » وفي الصحيح من حديث ابي سعيد رضي الله عنه مرفوعا قال فيقول الله تعالى « شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق الا ارحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط » الحديث. ثم ان الناس في الشفاعة على ثلاثة اقوال. فالمشركون والنصارى والمبتدعون من الغلاة في المشايخ وغيرهم يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا والمعتزلة والخوارج انكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في اهل الكبائر. واما اهل السنة والجماعة فيقرون بشفاعة نبينا ﷺ في اهل الكبائر وشفاعة غيره لكن لا يشفع احد حتى يأذن الله له ويحدله حدا كما في الحديث الصحيح حديث الشفاعة « انهم يأتون آدم ثم نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى فيقول لهم عيسى عليه السلام اذهبوا الى محمد فانه عبد غفرله ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتوني فاذهب فاذا رأيت ربي خررت له ساجدا فاحمد ربي بمحامد يفتحها علي لا احسنها الآن فيقول اى محمد ارفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع فاقول ربي امتي فيحدلي حدا فادخلهم الجنة ثم انطلق فاسجد فيحدلي حدا ذكر هذا ثلاث مرات » واما

الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا الى الله تعالى في الدعاء ففيه تفصيل فان الداعي تارة يقول بحق او بحق فلان يقسم على الله باحد من مخلوقاته فهذا محذور من وجهين (احدهما) انه أقسم بغير الله (والثاني) اعتقاده ان لاحد على الله حقا ولا يجوز الحلف بغير الله وليس لاحد على الله حق الا ما احقه على نفسه كقوله تعالى ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وكذلك ما ثبت في الصحيحين من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه وهو رديفه « يا معاذ اتدري ما حق الله على عباده » قلت الله ورسوله اعلم قال « حقه عليهم ان يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . اتدري ماحق العباد على الله اذا فعلوا ذلك » قلت الله ورسوله اعلم قال « حقهم عليه ان لا يعذبهم » فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق لا ان العبد نفسه يستحق على الله شيئا كما يكون للمخلوق على المخلوق فان الله هو المنعم على العباد بكل خير وحقهم الواجب بوعده هو ان لايعذبهم وترك تعذيبهم معنى لايصلح ان يقسم به ولا ان يسأل بسببه ويتوسل به لان السبب هو ما نصبه الله سببا وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث ابي سعيد عن النبي ﷺ في قول الماشي الى الصلاة « اسألك بحق ممشاي هذا وبحق السائلين عليك » فهذا حق السائلين هو اوجبه على نفسه فهو الذي احق للسائلين ان يجيبهم وللعابدين ان يثيبهم ولقد احسن القائل :

ما للعباد عليه حق واجب * كلا ولا سعي لديه ضائع

ان عذبوا فبعدله او نعموا * فبفضله وهو الكريم الواسع

فان قيل فاي فرق بين قول الداعي بحق السائلين عليك وبين قوله بحق نبيك او نحو ذلك (فالجواب) ان معنى قوله بحق السائلين عليك انك وعدت

السائلين بالاجابة وانا من جملة السائلين فاجب دعائي بخلاف قوله بحق فلان وان كان له حق على الله بوعده الصادق فلا مناسبة بين ذلك وبين اجابة دعاء هذا السائل فكانه يقول لكون فلان من عبادك الصالحين اجب دعاي واى مناسبة في هذا واي ملازمة وانما هذا من الاعتداء في الدعاء وقد قال تعالى ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لايحب المعتدين ﴾ وهذا ونحوه من الادعية المبتدعة ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن احد من الائمة وانما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطرقية والدعاء من افضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع . وان كان مراده الاقسام على الله بحق فلان فذلك محذور ايضا لان الاقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز فكيف على الخالق وقد قال ﷺ «من حلف بغير الله فقد اشرك» ولهذا قال ابو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم يكره ان يقول الداعي «اسألك بحق فلان او بحق انبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام» ونحو ذلك حتى كره ابو حنيفة ومحمد ان يقول الرجل «اللهم انى اسألك بمعقد العز من عرشك» ولم يكرهه ابو يوسف لما بلغه الأثر فيه وتارة يقول بجاه فلان عندك او يقول نتوسل اليك بانبيائك ورسلك واوليائك ومراده لان فلانا عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فاجب دعانا . وهذا ايضا محذور فانه لو كان هذا هو التوسل الذى كان الصحابة يفعلون في حياة النبي ﷺ لفعلوه بعد موته وانما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه يطلبون منه ان يدعولهم وهم يؤمنون على دعائه كما في الاستسقاء وغيره فلما مات قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون «اللهم انا كنا اذا

اجدبنا نتوسل اليك بنبينا فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا » معناه بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ليس المراد انا نقسم عليك به او نسألك بجاهه عندك اذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي ﷺ اعظم واعظم من جاه العباس . وتارة يقول باتباعي لرسولك ومحبتي له وايماني به وسائر انبيائك ورسلك وتصديقي لهم ونحو ذلك . فهذا من احسن مايكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه اجمال غلط بسببه من لم يفهم معناه فان اريد به التسبب به لكونه داعيا وشافعا وهذا في حياته يكون او لكون الداعي محباله ، مطيعا لأمره ، مقتديابه وذلك اهل للمحبة والطاعة والاقتداء فيكون التوسل اما بدعاء الوسيلة وشفاعته واما بمحبة السائل واتباعه ويراد به الاقسام به والتوسل بذاته ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه وكذلك السؤال بالشيء قد يراد به التسبب به لكونه سببا في حصول المطلوب وقد يراد به الاقسام به . ومن الاول حديث الثلاثة الذين آووا الى الغار وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما فان الصخرة انطبقت عليهم فتوسلوا الى الله بذكر اعمالهم الصالحة الخالصة وكل واحد منهم يقول : فان كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا مانحن فيه فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون . فهؤلاء دعوا الله بصالح الأعمال لأن الأعمال الصالحة هي اعظم مايتوسل به العبد الى الله ويتوجه اليه ويسأله به لانه وعد ان يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله . فالحاصل ان الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر فان الشفيع عند البشر كما انه شافع للطالب شفعه في الطلب بمعنى انه صار به شفعا فيه بعد ان كان وترا فهو ايضا قد شفع المشفوع اليه وبشفاعته

صار فاعلا للمطلوب فقد شفع الطالب والمطلوب منه . والله تعالى وتر لا يشفعه احد فلا يشفع عنده احد الا باذنه فالأمر كله اليه فلا شريك له بوجه فسيد الشفعاء يوم القيمة اذا سجد وحمد الله تعالى فقال له الله : ارفع رأسك وقل يسمع واسأل تعطه واشفع تشفع فيحدله حدا فيدخلهم الجنة فالأمر كله لله . كما قال تعالى ﴿ قل ان الأمر كله لله ﴾ وقال تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ وقال تعالى ﴿ الا له الخلق والأمر ﴾ فاذا كان لا يشفع عنده احد الا باذنه لمن يشاء ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته كما قال ﷺ « اشفعوا تؤجروا » ويقضى الله على لسان نبيه مايشاء وفي الصحيح ان النبي ﷺ قال « يا بني عبدمناف لا أملك لكم من الله شيئا يا صفية عمة رسول الله ﷺ لا املك لك من الله شيئا يا عباس عم رسول الله لا املك لك من الله شيئا » وفي الصحيح ايضا عن النبي ﷺ « لا الفين احدكم يأتي يوم القيمة على رقبته بعير له رغا اوشاة لها يعار اورقاع يخفق فيقول اغثني اغثني فاقول قد ابلغتك لا املك لك من الله من شيء » فاذا كان سيد الخلق وافضل الشفعاء يقول لأخص الناس به لا أملك لكم من الله من شيء فما الظن بغيره واذا دعاه الداعي وشفع عنده الشفيع فسمع الدعاء وقبل الشفاعة لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق فانه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع وهو الخالق لأفعال العباد فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها وهو الذي وفقه للعمل ثم اثابه وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه وهذا مستقيم على اصول اهل السنة المؤمنين بالقدر وان الله خالق كل شيء . قوله ﴿ والميثاق الذي اخذه الله تعالى من آدم وذريته حق ﴾ قال تعالى ﴿ واذ أخذ ربك من بني آدم من

ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيمة انا كنا عن هذا غافلين ﴾ يخبر سبحانه انه استخرج ذرية بني آدم من اصلابهم شاهدين على انفسهم ان الله ربهم ومليكهم وانه لا اله الاهو وقد وردت احاديث في اخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم الى اصحاب اليمين والى اصحاب الشمال وفي بعضها الاشهاد عليهم بأن الله ربهم . فنها مارواه الامام احمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال « ان الله اخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فاخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا قال : الست بربكم قالوا بلى شهدنا . الى قوله المبطلون » ورواه النسائي ايضا وابن جرير وابن ابي حاتم والحاكم في المستدرك وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وروي الامام احمد ايضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه سئل عن هذه الآية فقال سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال ان الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل اهل الجنة يعملون : ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل اهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل قال ﷺ «اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل اهل الجنة حتى يموت على عمل من اعمال اهل الجنة فيدخل الجنة . واذا خلق العبد للنار استعمله بعمل اهل النار حتى يموت على عمل من اعمال اهل النار فيدخل به النار» ورواه ابو داود والترمذي والنسائي وابن ابي حاتم وابن جرير وابن حبان في صحيحه وروي الترمذي عن ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته الى يوم القيامة

وجعل بين عيني كل انسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال اي
ربي من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فاعجبه وبيص ما بين
عينيه فقال اي رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال
له داود وقال رب كم عمره قال ستون سنة قال اي رب زده من عمري اربعين
سنة فلما انقضى عمر آدم جاء ملك الموت قال اولم يبق من عمري اربعون سنة
قال اولم تعطها ابنك داود فجحد فجحدت ذريته ونسي آدم فنسيت ذريته
وخطي آدم فخطيت ذريته» ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح. ورواه
الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وروي الامام احمد ايضا عن
انس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ «قال يقال للرجل من اهل النار
يوم القيامة ارأيت لو كان لك ما على الارض من شيء اكنت مفتديا قال
فيقول نعم قال فيقول قد اردت منك اهون من ذلك قد اخذت عليك في ظهر
آدم ان لا تشرك بي شيئا فابيت الا ان تشرك بي شيئا» واخرجاه في الصحيحين
ايضا وذكر احاديث اخر ايضا وكلها دالة على ان الله استخرج ذرية آدم من
صلبه وميز بين اهل النار واهل الجنة. ومن هنا قال من قال ان الارواح مخلوقة
قبل الأجساد وهذه الآثار لا تدل على سبق الارواح الأجساد سبقا مستقرا
ثابتا وغايتها ان تدل على ان باريها وفاطرها سبحانه صور النسمة وقدر خلقها
واجلها وعملها واستخرج تلك الصور من مادتها ثم اعادها اليها وقدر خروج
كل فرد من افرادها في وقته المقدر له ولا يدل على انها خلقت خلقا مستقرا
واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد ثم يرسل منها الى الابدان
جملة بعد جملة كما قاله ابن حزم فهذا لا تدل الآثار عليه. نعم الرب سبحانه يخلق

منها جملة بعد جملة كما قاله على الوجه الذي سبق به التقدير اولا فيجيء الخلق الخارجي مطابقا للتقدير السابق كشأنه سبحانه في جميع مخلوقاته فانه قدر لها اقدارا واجالا وصنعات وهيآت ثم ابرزها الى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق فالآثار المروية في ذلك انما تدل على القدر السابق بعضها يدل على انه سبحانه استخرج امثالهم وصورهم وميز اهل السعادة من اهل الشقاوة واما الاشهاد عليهم هناك فانما هو في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمر رضي الله عنهم . ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف ان المراد بهذا الاشهاد انما هو فطرتهم على التوحيد كما تقدم كلام المفسرين على هذه الآية الكريمة في حديث ابي هريرة ومعنى قوله شهدنا اي قالوا بلى شهدنا انك ربنا . وهذا قول ابن عباس وابي ابن كعب وقال ابن عباس ايضا اشهد بعضهم على بعض وقيل شهدنا من قول الملائكة والوقف على قوله بلى وهذا قول مجاهد والضحاك والسدي . وقال السدي ايضا هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته انهم شهدوا على اقرار بني آدم والأول اظهر وما عداه احتمال لا دليل عليه وانما يشهد ظاهر الآية للأول . واعلم ان من المفسرين من لم يذكر سوى القول بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره واشهدهم على أنفسهم ثم اعادهم كالثعلبي والبغوي وغيرهما ومنهم من لم يذكره بل ذكر انه نصب لهم الادلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها الله فيهم كالزمخشري وغيره ومنهم من ذكر القولين كالواحدي والرازي والقرطبي وغيرهم لكن نسب الرازي القول الأول الى اهل السنة والثاني الى المعتزلة . ولا ريب ان الآية لا تدل على القول الاول اعني ان الاخذ كان من ظهر آدم

وانما فيها ان الأخذ من ظهور بنى آدم وانما ذكر الأخذ من ظهر آدم والاشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث . وفي بعضها الأخذ والقضاء بأن بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار كما في حديث عمر رضي الله عنه وفي بعضها الأخذ واراءه آدم اياهم من غير قضاء ولا اشهاد كما في حديث ابي هريرة والذي فيه الاشهاد على الصفة التي قالها اهل القول الأول موقوف على ابن عباس وعمر وتكلم فيه اهل الحديث ولم يخرجه احد من اهل الصحيح غير الحاكم في المستدرك على الصحيحين والحاكم معروف تساهله رحمه الله والذي فيه القضاء بان بعضهم الى الجنة وبعضهم الى النار دليل على مسئلة القدر وذلك شواهده كثيرة ولا نزاع فيه بين اهل السنة وانما يخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون واما الاول فالنزاع فيه بين اهل السنة من السلف والخلف ولولا ما التزمته من الاختصار لبسطت الأحاديث الواردة في ذلك وماقيل من الكلام عليها وما ذكر فيه من المعاني المعقولة ودلالة الفاظ الآية الكريمة . قال القرطبي : وهذه الآية مشكلة . وقد تكلم العلماء في تأويلها فنذكر ماذكروه من ذلك حسب ماوقفنا عليه . فقال قوم معنى الآية ان الله اخرج من ظهر بني آدم بعضهم من بعض ومعنى اشهدهم على انفسهم ألست بربكم دلهم على توحيده لأن كل بالغ يعلم ضرورة ان له ربا واحدا سبحانه وتعالى . قال فقام ذلك مقام الاشهاد عليهم كما قال تعالى في السموات والأرض ﴿ قالتا اتينا طائعين ﴾ ذهب الى هذا القفال واطنب . وقيل انه سبحانه وتعالى اخرج الأرواح قبل خلق الاجساد وانه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها ثم ذكر القرطبي بعد ذلك الاحاديث الواردة في ذلك الى آخر كلامه واقوى ما يشهد لصحة

القول الاول حديث انس المخرج في الصحيحين الذي فيه قد اردت منك ماهو اهون من ذلك قد اخذت عليك في ظهر آدم ان لا تشرك بي شيئا فابيت الا ان تشرك بي ولكن قد روي من طريق اخرى قد سألتك اقل من ذلك وايسر فلم تفعل فيرد الى النار وليس فيه في ظهر آدم وليس في الرواية الاولى اخراجهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها اصحاب القول الاول بل القول الاول متضمن لامرين عجيبين (احدهما) كون الناس تكلموا حينئذ واقروا بالايمان وانه بهذا تقوم الحجة عليهم يوم القيامة (والثاني) ان الآية دلت على ذلك والآية لا تدل عليه بوجوه (احدها) انه قال من بني آدم ولم يقل من آدم (الثاني) انه قال من ظهورهم ولم يقل من ظهره وهذا بدل بعض او بدل اشتمال وهو احسن (الثالث) انه قال ذرياتهم ولم يقل ذريته (الرابع) انه قال واشهدهم على انفسهم ولابد ان يكون الشاهد ذاكرا لما شهد به وهو انما يذكر شهادته بعد خروجه الى هذه الدار كما تأتي الأشارة الى ذلك لا يذكر شهادة قبله (الخامس) انه سبحانه اخبر ان حكمته بهذا الاشهاد إقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة ﴿ انا كنا عن هذا غافلين ﴾ والحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها كما قال تعالى ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (السادس) تذكيرهم بذلك ﴿ لئلا يقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ﴾ ومعلوم انهم غافلون عن الاخراج لهم من صلب آدم كلهم واشهادهم جميعا ذلك الوقت فهذا لا يذكره احد منهم (السابع) قوله تعالى ﴿ او تقولوا انما اشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ فذكر حكمتين في هذا الاشهاد: لئلا يدعو الغفلة او يدعو التقليد فالغافل لا شعور له والمقلد متبع

في تقليده لغيره ولا تترتب هاتان الحكمتان الا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة . (الثامن) قوله ﴿ افتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ اي توعدهم بجحودهم وشركهم لما قالوا ذلك وهو سبحانه انما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم وقد اخبر سبحانه انه لم يكن ليهلك القرى بظلم واهلها غافلون وانما يهلكهم بعد الاعذار والانذار بارسال الرسل . (التاسع) انه سبحانه اشهد كل واحد على نفسه انه ربه وخالقه واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه كقوله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ فهذه هي الحجة التي اشهدهم على انفسهم بمضمونها وذكرتهم بها رسله بقولهم ﴿ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ (العاشر) انه جعل هذا آية وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها وهذا شأن آيات الرب تعالى فقال تعالى ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ وانما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله فما من مولود الا يولد على الفطرة . لا يولد مولود على غير هذه الفطرة . هذا امر مفروغ منه لا تبديل ولا تغيير وقد تقدمت الاشارة الى هذا والله اعلم . وقد تفطن لهذا ابن عطية وغيره ولكن هابوا مخالفة ظاهر تلك الاحاديث التي فيها التصريح بان الله اخرجهم واشهدهم على انفسهم ثم اعادهم . وكذلك حكى القولين الشيخ ابو منصور الماتريدي في شرح التأويلات ورجح القول الثاني وتكلم عليه ومال اليه . ولا شك ان الاقرار بالربوبية امر فطري والشرك حادث طارئ والابناء تقلدوه عن الاباء فاذا احتجوا يوم القيامة بان الآباء اشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن يقال لهم : انتم كنتم معترفين بالصانع مقرين بان الله ربكم لا شريك له وقد شهدتم

بذلك على انفسكم فان شهادة المرء على نفسه هي اقراره بالشيء ليس الا . قال تعالى ﴿ يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم ﴾ وليس المراد ان يقول اشهد على نفسي بكذا بل من اقر بشيء فقد شهد على نفسه به فلم عدلتم عن هذه المعرفة والاقرار الذي شهدتم به على انفسكم الى الشرك بل عدلتم عن المعلوم المتيقن الى ما لا يعلم له حقيقة تقليدا لمن لا حجة معه بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية فان تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادها وفيه مصلحة لكم بخلاف الشرك فانه كان عندكم من المعرفة والشهادة على انفسكم ما يبين فساده وعدولكم فيه عن الصواب فان الذي يأخذه الصبي عن ابويه هو دين التربية والعادة وهو لاجل مصلحة الدنيا فان الطفل لابد له من كافل ، واحق الناس به ابواه ولهذا جاءت الشريعة بأن الطفل مع ابويه على دينهما في احكام الدنيا الظاهرة وهذا الدين لا يعاقبه الله عليه على الصحيح حتى يبلغ ويعقل وتقوم عليه الحجة وحينئذ فعليه ان يتبع دين العلم والعقل وهو الذي يعلم بعقله هو انه دين صحيح فان كان اباؤه مهتدين كيوسف الصديق مع آبائه قال ﴿ واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحق ويعقوب ﴾ وقال ليعقوب بنوه ﴿ نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق ﴾ وان كان الاباء مخالفين للرسل كان عليه ان يتبع الرسل كما قال تعالى ﴿ ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ الآية فمن اتبع دين آبائه بغير بصيرة وعلم بل يعدل عن الحق المعلوم اليه فهذا اتبع هواه كما قال تعالى ﴿ واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ وهذه حال كثير من الناس من الذين ولدوا على الاسلام يتبع

احدهم اباه فيما كان عليه من اعتقاد ومذهب وان كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة بل هو من مسالمة الدار لامسالمة الاختيار وهذا اذا قيل له في قبره من ربك قال هاه هاه لاادرى سمعت الناس يقولون شيئا فقلته . فليتأمل اللبيب هذا المحل وينصح نفسه وليقم معه ولينظر من اي الفريقين هو والله الموفق .فان توحيد الربوبية لايحتاج الى دليل فانه مركوز في الفطر واقرب ما ينظر فيه المرء امر نفسه لما كان نطفة وقد خرج من بين الصلب والترائب عظام الصدر ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين في ظلمات ثلاث وانقطع عنها تدبير الابوين وسائر الخلائق ولو كانت موضوعة على لوح او طبق واجتمع حكماء العالم على ان يصوروا منها شيئا لم يقدروا ومحال توهم عمل الطبائع فيها لانها موات عاجزة ولا توصف بحياة وان يتأتى من الموات فعل وتدبير فاذا تفكر في ذلك وانتقال هذه النطفة من حال الى حال علم بذلك توحيد الربوبية فانتقل منه الى توحيد الالهية فاذا علم بالعقل ان له ربا اوجده كيف يليق به ان يعبد غيره وكلما تفكر وتدبر ازداد يقينا وتوحيدا والله الموفق لارب غيره ولااله سواه .قوله ﴿ وقد علم الله تعالى فيما لم يزل (١) عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة فلايزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه وكذلك افعالهم فيما علم منهم ان يفعلوه ﴾ قال الله تعالى ﴿ ان الله بكل شيء عليم ـ وكان الله بكل شيء عليما ﴾ فالله تعالى موصوف بانه بكل شيء عليم ازلا وابدا لم يتقدم علمه بالاشياء جهالة وما كان ربك نسيا . وعن علي بن ابى طالب رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا

---

(١) لعله فى الأزل

حوله ومعه مخصرة فنكس رأسه ينكت بمخصرته ثم قال «مامن نفس منفوسة الا قد كتبُ الله مكانها من الجنة والنار والا قد كتبت شقية اوسعيدة» قال فقال رجل : يارسول الله افلا نمكث على كتابنا وندع العمل فقال « من كان من اهل السعادة فسيصير الى عمل اهل السعادة ومن كان من اهل الشقاوة فسيصير الى عمل اهل الشقاوة . ثم قال : اعملو فكل ميسر لما خلق له » اما اهل السعادة فسييسرون لعمل اهل السعادة واما اهل الشقاوة فييسرون لعمل اهل الشقاوة ثم قرأ ﴿ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ خرجاه في الصحيحين . قوله ﴿ وكل ميسر لما خلق له والاعمال بالخواتيم السعيد من سعد بقضاء الله والشقي من شقي بقضاء الله ﴾ ش . تقدم من حديث علي رضي الله عنه قوله ﷺ « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وعن زهير عن ابي الزبير عن جابر بن عبد الله قال : جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن ففيم العمل اليوم افيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير ام فيما استقبل قال « لا بل فيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير » قال زهير : ثم تكلم ابو الزبير بشيء لم افهمه فسألت ما قال فقال « اعملوا فكل ميسر » رواه مسلم . وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « ان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من اهل النار وان الرجل ليعمل عمل اهل النار فيما يبدو للناس وهو من اهل الجنة » خرجاه في الصحيحين وزاد البخارى « وانما الاعمال بالخواتيم » . وفي الصحيحين ايضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق

المصدوق « ان احدكم يجمع خلقه في بطن امه اربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر باربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقياً ام سعيداً فو الذي لااله غيره ان احدكم ليعمل بعمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم ليعمل بعمل اهل النار حتى مايكون بينه وبينها الاذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل اهل الجنة فيدخلها » والاحاديث في هذا الباب كثيرة وكذلك الآثار عن السلف قال ابو عمر بن عبد البر في التمهيد : قد اكثر الناس من تخريج الاثار في هذ الباب واكثر المتكلمون من الكلام فيه . واهل السنة مجتمعون على الايمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها وبالله العصمة والتوفيق

قوله ﴿ واصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسلم الحرمان ودرجة الطغيان فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكراً ووسوسة فان الله تعالى طوى علم القدر عن انامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالى في كتابه ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسألون ﴾ فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين ﴾ ش . اصل القدر سر الله في خلقه وهو كونه اوجد وافنى وافقر واغنى وأمات وأحيا وأضل وهدى . قال علي رضي الله عنه وكرم وجهه القدر سر الله فلا نكشفه والنزاع بين الناس في مسئلة القدر مشهور والذي عليه أهل السنة والجماعة ان كل شيء بقضاء الله وقدره وان الله تعالى خالق أفعال العباد قال تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وقال تعالى ﴿ وخلق كل

شيء فقدره تقديرا ﴾ وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه ولا يرضاه ولايحبه فيشاؤه كونا ولا يرضاه دينا وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة وزعموا أن الله شاء الايمان من الكافر ولكن الكافر شاء الكفر والى هذا الآن لايقولون شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار فانهم هربوا من شيء فوقعوا فيماهو شر منه فانه يلزم ان مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى فان الله قد شاء الايمان منه على قولهم والكافر شاء الكفر فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى وهذا من أقبح الاعتقاد وهو قول لادليل عليه بل هو مخالف للدليل . روى اللالكائي من حديث بقية عن الاوزاعي حدثنا العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبد الملك عن ابن عباس ان رجلا قدم علينا يكذب بالقدر فقال دلوني عليه وهو يومئذ أعمى فقالوا له ماتصنع به فقال والذي نفسي بيده لان استمكنت منه لأعضن انفه حتى اقطعه ولان وقعت رقبته بيدي لادقنها فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول «كأني بنساء بني فهم يطفن بالخروج تصطك إلياتهن مشركات وهذا أول شرك في الاسلام والذي نفسي بيده لينتهي بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من ان يقدر الخير كما اخرجوه من ان يقدر الشر» قوله وهذا اول شرك في الاسلام الى اخره من كلام ابن عباس وهذا يوافق قوله القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده . وروى عمرو بن الهيثم قال خرجنا في سفينة وصحبنا فيها قدري ومجوسي فقال القدري للمجوسي اسلم قال المجوسي حتى يريد الله فقال القدري ان الله يريد ولكن الشيطان لا يريد قال المجوسي اراد الله واراد الشيطان فكان ما اراد الشيطان هذا شيطان

قوي : وفي رواية انه قال فانا مع اقواهما . ووقف اعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد فقال ياهؤلاء ان ناقتي سرقت فادعوا الله ان يردها علي فقال عمرو بن عبيد اللهم انك لم ترد ان تسرق ناقته فسرقت فارددها عليه فقال الاعرابي لا حاجة لى في دعائك قال ولم ؟ قال اخاف كما اراد ان لا تسرق فسرقت ان يريد ردها فلا ترد. فقال رجل لابي عصام القسطلاني ارأيت ان منعني الهدى واوردني الضلال ثم عذبني ايكون منصفاً فقال له ابو عصام ان يكن الهدى شيئاً هو له فله ان يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء . واما الادلة من الكتاب والسنة فقد قال تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاؤن الا ان يشاء الله ان الله كان عليما حكيما ﴾ وقال تعالى ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للأسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾ ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والارادة وبين المحبة والرضا فسوى بينهما الجبرية والقدرية ثم اختلفوا فقالت الجبرية الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوبا مرضيا وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فليست مقدرة ولا مقضية فهي خارجة عن مشيئته وخلقه وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة اما نصوص المشيئة والارادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها : واما نصوص المحبة والرضا فقال تعالى

﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ ولا يرضى لعباده الكفر وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ « ان الله كره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال واضاعة المال » وفي المسند « ان الله يحب ان يؤخذ برخصه كما يكره ان تؤتى معصيته » وكان من دعائه ﷺ « اللهم اني اعوذ برضاك من سخطك واعوذ بمعافاتك من عقوبتك واعوذ بك منك » فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا من صفة السخط وبفعل المعافاة من فعل العقوبة فالاول الصفة والثاني لأثرها المرتب عليها ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه وان ذلك كله راجع اليه وحده لا الى غيره فما اعوذ منه واقع بمشيئتك وارادتك وما اعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وارادتك ان شئت ان ترضى عن عبدك وتعافيه وان شئت ان تغضب عليه وتعاقبه فاعذني مما اكره وامنعه ان يحل بي هي بمشيئتك ايضا فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك فعياذي بك منك فعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك فلا بغيرك من غيرك ولا استعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك بل هو منك فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية الا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته . فان قيل كيف يريد الله امرا ولا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاؤه ويكونه وكيف تجتمع ارادته وبغضه وكراهته . قيل هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا وتباينت طرقهم واقوالهم فاعلم ان المراد نوعان : مراد لنفسه ومراد لغيره . فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير فهو مراد ارادة الغايات والمقاصد . والمراد لغيره قد لا يكون

مقصودنا المالايريد[1] ولا فيه مصلحة له بالنظر الى ذاته وان كان وسيلة الى مقصوده ومراده فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته مراد له من حيث قضاؤه وايصاله الى مراده فيجتمع فيه الامران بغضه وارادته ولا يتنافيان لاختلاف متعلقهما وهذا كالدواء الكريه اذا علم المتناول له ان فيه شفاءه. وقطع العضو المتأ كل اذا علم ان في قطعه بقاء جسده. وكقطع المسافة الشاقة اذا علم انها توصل الى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في ايثار هذا المكروه وارادته بالظن الغالب وان خفيت عنه عاقبته فكيف ممن لا يخفى عليه خافية فهو سبحانه يكره الشيء ولا ينافي ذلك ارادته لأجل غيره وكونه سببا الى امر هو احب اليه من فوقه. من ذلك انه خلق ابليس الذي هو مادة لفساد الاديان والاعمال والاعتقادات والارادات وهو سبب لشقاوة كثير من العباد وعملهم بما يغضب الرب سبحانه تبارك وتعالى وهو الساعي في وقوع خلاف مايحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة الى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ووجودها احب اليه من عدمها. منها انه يظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات فخلق هذه الذات التي هي اخبث الذوات وشرها وهي سبب كل شر في مقابلة ذات جبرائيل التي هي من اشرف الذوات واطهرها واز كاها وهي مادة كل خير فتبارك خالق هذا وهذا كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار والدواء والداء والحياة والموت والحسن والقبيح والخير والشر وذلك من ادل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه فانه خلق هذه المتضادات وقابل بعضها ببعض وجعلها محال تصرفه وتدبيره فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته ومنها ظهور آثار اسمائه القهرية مثل القهار والمنتقم والعدل

---

(١) لعله باسقاط اللام الثانية

والضار والشديد العقاب والسريع العقاب وذي البطش الشديد والخافض والمذل فان هذه الاسماء والافعال كمال لابد من وجود متعلقها ولو كان الجن والانس على طبيعة الملائكة لم يظهر اثر هذه الاسماء . ومنها ظهور آثار اسمائه المتضمنة كلائه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده فلولا خلق ما يكرهه من الاسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الاسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد . وقد اشار النبي ﷺ الى هذا بقوله « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » ومنها ظهور آثار اسماء الحكمة والخبرة فانه الحكيم الخبير الذى يضع الاشياء مواضعها وينزلها منازلها اللائقة بها فلا يضع الشيء في غير موضعه ولا ينزله في غير منزلته التى يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته فهو اعلم حيث يجعل رسالاته واعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها اليه واعلم بمن لا يصلح لذلك فلو قدر عدم الاسباب المكروهة لتعطلت حكم كثيرة ولفاتت مصالح عديدة ولو عطلت تلك الاسباب لما فيها من الشر لتعطل الخير الذى هو اعظم من الشر الذى في تلك الاسباب وهـذا كالشمس والمطر والرياح التى فيها من المصالح ما هو اضعاف اضعاف ما يحصل بها من الشر . ومنها حصول العبودية المتنوعة التى لولا خلق ابليس لما حصلت فان عبودية الجهاد من احب انواع العبودية اليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هـذه العبودية وتوابعها من الموالات لله سبحانه وتعالى والمعادات فيه وعبودية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وعبودية الصبر ومخالفته الهوى وايثار محاب الله تعالى وعبودية التوبة والاستغفار وعبودية الاستعاذة بالله ان يجيره من عدوه ويعصمه من

كيده واذاه الى غير ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن ادراكها . فان قيل فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هـذه الاسباب فهذا سؤال فاسد وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه كفرض وجود الابن بدون الاب والحركة بدون المتحرك والتوبة بدون التائب . فان قيل فاذا كانت هـذه الأسباب مرادة لما تفضى اليه من الحكم فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه ام هي مسخوطة من جميع الوجوه . قيل هذا السؤال يرد على وجهين . (احدهما) من جهة الرب تعالى وهل يكون محبا لها من جهة افضائها الى محبوبه وان كان يبغضها لذاتها.(والثانى) من جهة العبد وهو انه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة ايضا فهذا سؤال له شأن . فاعلم ان الشر كله يرجع الى العدم اعني عدم الخير واسبابه المفضية اليه وهو من هذه الجهة شر واما من جهة وجوده المحض فلاشر فيه . مثاله ان النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة وانما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها فانها خلقت في الاصل متحركة فان اعينت بالعلم والهام الخير تحركت به وان تركت تحركت بطبعها الى خلافه وحركتها من حيث هي حركة خير وانما تكون شرا بالاضافة لا من حيث هي حركة والشر كله ظلم وهو وضع الشيء في غير محله فلو وضع في موضعه لم يكن شرا فعلم ان جهة الشر فيه نسبية اضافية ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محلها خيرا في نفسها وان كانت شرا بالنسبة الى المحل الذي حلت به لما احدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له فصار ذلك الألم شرا بالنسبة اليها وهو خير بالنسبة الى الفاعل حيث وضعه في موضعه فانه سبحانه لم يخلق شرا محضا من جميع

الوجوه والاعتبارات فان حكمته تأبى ذلك فلا يمكن في جناب الحق تعالى ان يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه لا مصلحة في خلقه بوجه ما هذا من ابين المحال فانه سبحانه بيده الخير كله والشر ليس اليه بل كل ما اليه فخير والشر انما حصل لعدم هذه الاضافة والنسبة اليه فلو كان اليه لم يكن شرا فتأمله فانقطاع نسبته اليه هو الذي صيره شرا فان قيل لم ينقطع نسبته اليه خلقا ومشيئة قيل هو من هذه الجهة ليس بشر فان وجوده هو المنسوب اليه وهو من هذه الجهة ليس بشر والشر الذي فيه من عدم امداده بالخير واسبابه والعدم ليس بشيء حتى ينسب الى من بيده الخير فأن اردت مزيد ايضاح لذلك فاعلم ان اسباب الخير ثلاثة الايجاد والاعداد والامداد فايجاد هذا خير وهو الى الله وكذلك اعداده وامداده فاذا لم يحدث فيه اعداد ولا امداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس الى الفاعل وانما اليه ضده . فان قيل : هلا امده اذا وجده قيل ما اقتضت الحكمة ايجاده وامداده وانما اقتضت ايجاده وترك امداده فايجاده خير والشر من عدم امداده . فان قيل : فهلا امد الموجودات كلها فهذا سؤال فاسد يظن مورده ان التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة وهذا عين الجهل بل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الذي بين الاشياء وليس في خلق كل نوع منها تفاوت فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت والتفاوت إنما وقع لامور عدمية لم يتعلق بها الخلق والا فليس في الخلق من تفاوت فان اعتاص عليك هذا ولم تفهمه حق الفهم فراجع قول القائل

إذا لم تستطع شيئاً فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

فان قيل كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه قيل لان اعانته عليه قد

تستلزم فوات محبوب له اعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له وقد تكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة هى اكره اليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة. وقد أشار تعالى الى ذلك في قوله ﴿ ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ — الآيتين . فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم الى الغزو مع رسوله وهو طاعته فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله فقال ﴿ لو خرجوا فيكم مازادوكم الا خبالا ﴾ أي فسادا وشراً ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ أي سعوا بينكم بالفساد والشر ﴿ يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ﴾ أي قابلون منهم مستجيبون لهم فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو اعظم من مصلحة خروجهم فاقتضت الحكمة والرحمة ان أقعدهم عنه فاجعل هذا المثال أصلا وقس عليه. واما الوجه الثاني وهو الذي من جهة العبد فهو ايضاً ممكن بل واقع فان العبد يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها من حيث هي فعل العبد واقعة بكسبه وارادته واختياره ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئته وارادته وامره الكوني فيرضى بما من الله ويسخط ماهو منه فهذا مسلك طائفة من اهل العرفان وطائفة اخرى كرهتها مطلقا وقولهم يرجع الى هذا القول لان اطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابه ومشيئته . وسر المسئلة ان الذي الى الرب منها غير مكروه والذي الى العبد مكروه فان قيل ليس الى العبد شيء منها قيل هذا هو الجبر الباطل الذي لايمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق والقدري المنكر اقرب الى التخلص منه من الجبري وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية اسعد بالتخلص من الفريقين . فان قيل كيف يتأتى الندم والتوبة

مع شهود الحكمة في التقدير ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة قيل هذا هو الذي اوقع من عميت بصيرته في شهود الامر على غير ما هو عليه فرأى تلك الافعال طاعات لموافقته فيها المشيئة والقدر وقال : ان عصيت امره فقد اطعت ارادته في ذلك قيل

اصبحت منفعلا لما يختاره * مني ففعلي كله طاعات

وهؤلاء اعمى الخلق بصائر واجهلهم بالله واحكامه الدينية والكونية فان الطاعة هى موافقة الامر الديني الشرعي لاموافقة القدر والمشيئة ولو كان موافقة القدر طاعة لكان ابليس من اعظم المطيعين له ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون كلهم مطيعون وهذا غاية الجهل لكن اذا شهد العبد عجز نفسه ونفوذ الاقدار فيه وكمال فقره الى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين كان بالله في هذه الحال لا بنفسه فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال البتة فان عليه حصنا حصينا فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي فلا يتصور منه الذنب في هذه الحالة فاذا حجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه استولى عليه حكم النفس فهنالك نصبت عليه الشباك والاشراك وارسلت عليه الصيادون فاذا انقشع عنه ضباب ذلك الوجود الطبيعي فهنالك يحضره الندم والتوبة والانابة فانه كان في المعصية محجوبا بنفسه عن ربه فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر فبقي بربه لا بنفسه . فان قيل اذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون ان نرضى بقضاء الله فكيف ننكره ونكرهه (فالجواب) ان يقال اولا نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة بل من المقضى ما يرضى

به ومنه ما يسخط ويمقت كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه بل من القضاء ما يسخط كما ان من الاعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم ويقال (ثانيا) هنا امران: قضاء الله وهو فعل قائم بذات الله تعالى. ومقضى وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة نرضى به كله والمقضى قسمان: منه مايرضي به ومنه مالا يرضى به. ويقال (ثالثا) القضاء له وجهان (احدهما) تعلقه بالرب تعالى فمن هذا الوجه ونسبته اليه يرضى به (والوجه الثاني) تعلقه بالعبد ونسبته اليه فمن هذا الوجه ينقسم الى ما يرضى به والى مالا يرضى به مثال ذلك قتل النفس له اعتباران فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله اجلا للمقتول ونهاية لعمره يرضى به ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه واقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله نسخطه ولا نرضى به وقوله والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان الى آخره. التعمق هو المبالغة في طلب الشيء والمعنى ان المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان. الذريعة الوسيلة والذريعة والدرجة والسلم متقارب المعنى وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقارب المعنى ايضا لكن الخذلان في مقابلة النصر والحرمان في مقابلة الظفر والطغيان في مقابلة الاستقامة. وقوله فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة. عن ابى هريرة رضي الله عنه قال جاء ناس من اصحاب النبي ﷺ الى رسول الله ﷺ فسألوه انا نجد في انفسنا مايتعاظم احدنا ان يتكلم به قال وجدتموه قال ذلك صريح الايمان رواه مسلم الاشارة بقوله ذلك صريح الايمان الى تعاظم ان يتكلموا به. ولمسلم ايضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة

فقال تلك محض الايمان وهو بمعنى حديث ابى هريرة فأن وسوسة النفس او مدافعة وسواسها بمنزلة المحادثة الكائنة بين اثنين فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الايمان ومحض الايمان هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم باحسان ثم خلف من بعدهم خلف سودوا الاوراق بتلك الوساوس التي هي شكوك وشبه بل وسودوا القلوب وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ولذلك اطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه . وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت قال رسول الله ﷺ « ان ابغض الرجال الى الله الالد الخصم » وقال الامام احمد : حدثنا ابو معاوية حدثنا داود بن ابى هند عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال : فكأنما فقيء في وجهه حب الرمان من الغضب قال فقال « مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض بهذا هلك من كان قبلكم » قال فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم اشهده ما غبطت نفسي بذلك المجلس اني لم اشهده . ورواه ابن ماجه ايضا وقال تعالى ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا ﴾ اي كالخوض الذى خاضوه اوكالفوج اوالصنف او الجيل الذي خاضوا وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض لان فساد الدين اما في العمل او في الاعتقاد فالاول من جهة الشهوات والثانى من جهة الشبهات . وروى البخارى عن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال « لتأخذن امتي مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع » قالوا فارس والروم قال « فمن الناس الا اولئك » وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ليأتين على امتى

ما اتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل حتى ان كان منهم من اتى امه علانية كان من امتي من يصنع ذلك وان بني اسرائيل تفرقوا على ثنتين وسبعين ملة وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار الا ملة واحدة» قالوا من هي يارسول الله قال «ما انا عليه واصحابي» رواه الترمذي . وعن ابي هريرة ان رسول الله ﷺ قال «تفرقت اليهود على احدى وسبعين فرقة او اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفرقت امتي على ثلاث وسبعين فرقة» رواه ابو داود وابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن صحيح . وعن معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «ان اهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة» يعني الاهواء كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة . واكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الامة مسئلة القدر وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع . وقوله فمن سأل لم فعل فقد رد حكم الكتاب ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين

اعلم ان مبنى العبودية والايمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الاسؤولة عن تفاصيل الحكمة في الاوامر والنواهي والشرائع . ولهذا لم يحك الله سبحانه عن امة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به انها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما امرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها بل انقادت وسلمت واذعنت وما عرفت من الحكمة عرفته وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته ولا جعلت ذلك من شأنها وكان رسولها اعظم عندها من ان تسأله عن ذلك كما في الانجيل «يابني اسرائيل لاتقولوا لم أمر ربنا ولكن قولوا بم امر ربنا» . ولهذا كان سلف هذه الامة التي هي اكمل

الأمم عقولا ومعارف وعلوما لاتسأل نبيها لم امر الله بكذا ولم نهى عن كذا ولم قدر كذا ولم فعل كذا لعلمهم ان ذلك مضاد للايمان والاستسلام وان قدم الاسلام لايثبت الا على درجة التسليم. فاول مراتب تعظيم الامر التصديق به ثم العزم الجازم على امتثاله ثم المسارعة اليه والمبادرة به والحذر عن القواطع والموانع ثم بذل الجهد والنصح في الاتيان به على اكمل الوجوه ثم فعله لكونه مأمورا بحيث لايتوقف الاتيان به على معرفة حكمته فان ظهرت له فعله والا عطله فان هذا ينافي الانقياد ويقدح في الامتثال. قال القرطبي ناقلا عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهما راغبا في العلم ونفي الجهل عن نفسه باحثا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه فلا بأس به فشفاء العي السؤال ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم فهو الذي لايحل قليل سؤاله ولا كثيره. قال ابن عربي: الذي ينبغي للعالم ان يشتغل به هو بسط الأدلة وايضاح سبل النظر وتحصيل مقدمات الاجتهاد واعداد الآلة المعينة على الاستمداد قال: فاذا عرضت لك مسألة اتيت من بابها ونشدت من مظانها والله يفتح وجه الصواب فيها انتهى. وقال ﷺ «من حسن اسلام المرء تركه مالايعنيه» رواه الترمذي وغيره ولاشك في تكفير من رد حكم الكتاب ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له بين له الصواب ليرجع اليه وهو سبحانه وتعالى لايسأل عما يفعل لكمال حكمته ورحمته وعدله لا لمجرد قهره وقدرته كما يقوله جهم واتباعه. وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ ولا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب مالم يستحله. قوله ﴿ فهذا جملة مايحتاج اليه من هو منور قلبه من اولياء الله تعالى وهي درجة الراسخين

في العلم لان العلم علمان: علم في الخلق موجود وعلم في الخلق مفقود فانكار

العلم الموجود كفر وادعاء العلم المفقود كفر ولا يثبت الايمان الا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود ﴾ ش. الاشارة اليه بقوله فهذا الى ما تقدم ذكره مما يجب اعتقاده والعمل به مما جاءت به الشريعة وقوله وهي درجة الراسخين في العلم اي علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلا نفيا واثباتا ويعني بالعلم المفقود علم القدر الذي طواه الله عن انامه ونهاهم عن مرامه ونعني بالعلم الموجود علم الشريعة اصولها وفروعها فمن انكر شيئا مما جاء به الرسول كان من الكافرين ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي ارض تموت ان الله عليم خبير ﴾ ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها ولا من جهلنا انتفاء حكمته الا ترى ان خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات التي لا يعلم منها الا المضرة لم ينف ان يكون الله تعالى خالقا لها ولا يلزم ان لا يكون فيها حكمة خفيت علينا لان عدم العلم لا يكون علما بالمعدوم قوله ﴿ ونؤمن باللوح والقلم وبجميع ما فيه قد رقم ﴾ ش. قال تعالى ﴿ بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴾ وروى الحافظ ابو القاسم الطبراني بسنده الى النبي ﷺ انه قال « ان الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء صفحاتها من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور لله فيه كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة يخلق ويرزق ويميت ويحيي ويعز ويذل ويفعل ما يشاء » اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير كما في سنن ابي داود. عن عبادة بن

الصامت قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « اول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يارب وما اكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » واختلف العلماء هل القلم اول المخلوقات او العرش على قولين ذكرهما الحافظ ابو العلاء الهمداني اصحهما ان العرش قبل القلم ، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله ﷺ « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وعرشه على الماء » فهذا صريح ان التقدير وقع بعد خلق العرش والتقدير وقع عند اول خلق القلم بحديث عبادة هذا . ولا يخلو قوله اول ماخلق الله القلم الخ . اما ان يكون جملة او جملتين . فان كان جملة وهو الصحيح كان معناه انه عند اول خلقه قال له اكتب كما في اللفظ اول ما خلق الله القلم قال له اكتب بنصب اول والقلم وان كان جملتين وهو مروي برفع اول والقلم فيتعين حمله على انه اول المخلوقات من هذا العالم فيتفق الحديثان اذ حديث عبدالله بن عمرو صريح في ان العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم . وفي اللفظ الآخر لما خلق الله القلم قال له اكتب فهذا القلم اول الأقلام وافضلها واجلها . وقد قال غير واحد من اهل التفسير انه القلم الذي اقسم الله به في قوله تعالى ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ والقلم الثاني قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله الى انبيائه ورسله واصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والأقلام كلها خدم لاقلامهم وقد رفع النبي ﷺ ليلة اسرى به الى مستوى يسمع فيه صريف الاقلام فهذه الاقلام هي التي تكتب مايوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التي يدبرها امر العالم العلوي والسفلي قوله ﴿ فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى انه

كائن ليجعلوه غير كائن لم يقدروا عليه ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله
تعالى ليجعلوه كائنا لم يقدروا عليه جف القلم بما هو كائن الى يوم القيامة » ش.

تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ قال جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يا رسول الله بين لنا ديننا كانا خلقنا الآن ففيم العمل اليوم افيما جفت به الاقلام وجرت به المقادير ام فيما استقبل قال « لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال « يا غلام الا اعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على ان يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الاقلام وجفت الصحف » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وفي رواية غير الترمذي « احفظ الله تجده امامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة واعلم ان ما اخطاك لم يكن ليصيبك وما اصابك لم يكن ليخطئك واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا » وقد جاءت الاقلام في هذه الاحاديث وغيرها مجموعة فدل ذلك على ان للمقادير اقلاما غير القلم الاول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ . والذى دلت عليه السنة ان الاقلام اربعة وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره (القلم الاول) العام الشامل لجميع المخلوقات وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح (القلم الثاني) خبر خلق آدم وهو قلم عام ايضا لكن لبني آدم ورد في هذا آيات تدل على ان الله قدر اعمال بني آدم وارزاقهم واجالهم وسعادتهم عقيب خلق ابيهم (القلم الثالث) حين يرسل الملك الى الجنين في بطن امه

فينفخ فيه الروح ويؤمر باربع كلمات (رزقه واجله وعمله وشقي اوسعيد) كما ورد ذلك في الاحاديث الصحيحة (القلم الرابع) الموضوع على العبد عند بلوغه الذي بايدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم كما ورد ذلك في الكتاب والسنة واذا علم العبد ان كلا من عند الله، فالواجب افراده سبحانه بالخشية والتقوى قال تعالى ﴿ فلا تخشوا الناس واخشوني واياي فارهبون — فاياي فاتقون — ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون — هو اهل التقوى واهل المغفرة ﴾ ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة ولابد لكل عبد ان يتقي اشياء فانه لا يعيش وحده ولو كان ملكا مطاعا فلابد ان يتقي اشياء يراعي بها رعيته فحينئذ فلا بد لكل انسان ان يتقي فان لم يتق الله اتقى المخلوق والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم بل الذي يريده هذا يبغضه هذا فلا يمكن ارضاؤهم كلهم . كما قال الشافعي رضي الله عنه رضا الناس غاية لا تدرك فعليك بالامر الذي يصلحك فالزمه ودع ماسواه فلا تعانه فارضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور وارضاء الخالق مقدور ومأمور وايضا فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئا فاذا اتقى العبد ربه كفاه مؤنة الناس . كما كتبت عائشة الى معاوية روي مرفوعا وروي موقوفا عليها «من ارضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وارضى عنه الناس ومن ارضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاما) فمن ارضى الله كفاه مؤنة الناس ورضي عنه ثم فيما بعد يرضون اذ العاقبة للتقوى ويحبه الله فيحبه الناس كما في الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال «اذا احب الله العبد نادى يا جبرائيل اني احب فلانا فاحبه فيحبه جبرائيل ثم ينادي جبرائيل في السماء ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه اهل السماء ثم

يوضع له القبول في الارض » وقال في البغض مثل ذلك فقد بين انه لا بد لكل مخلوق من ان يتق اما المخلوق واما الخالق وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة وتقوى الله هي التي يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة فهو سبحانه اهل للتقوى وهو ايضا اهل المغفرة فانه هو الذي يغفر الذنوب لا يقدر مخلوق على ان يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره وهو الذي يجير ولا يجار عليه . قال بعض السلف ما احتاج تقي قط لقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ فقد ضمن الله للمتقين ان يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس وان يرزقهم من حيث لا يحتسبون فاذا لم يحصل ذلك دل على ان في التقوى خللا فليستغفر الله وليتب اليه ثم قال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ اي فهو كافيه لا محوجه الى غيره وقد ظن بعض الناس ان التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الاسباب وان الامور اذا كانت مقدرة فلا حاجة الى الاسباب وهذا فاسد فان الاكتساب منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام كما قد عرف في موضعه . وقد كان النبي ﷺ افضل المتوكلين يلبس لامة الحرب ويمشي في الاسواق للاكتساب حتى قال الكافرون ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ﴾ ولهذا تجد كثيرا ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم اما صدقة واما هدية وقد يكون ذلك من مكاس او والي شرطة او نحو ذلك وهذا مبسوط في موضعه لا يسعه هذا المختصر وقد تقدمت الاشارة الى بعض الاقوال التي في تفسير قوله تعالى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ﴾ واما قوله تعالى ﴿ كل يوم

هو في شأن ﴾ فقال البغوي قال مقاتل نزلت في اليهود حين قالوا ان الله لا يعطي يوم السبت . قال المفسرون من شأنه انه يحيي ويميت ويرزق ويعز قوما ويذل آخرين ويشفي مريضا ويفك عانيا ويفرج مكروبا ويجيب داعيا ويعطي سائلا ويغفر ذنبا الى ما لا يحصى من افعاله واحداثه في خلقه مايشاء

قوله ﴿ وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه وما اصابه لم يكن ليخطئه ﴾ هذا بناء على ما تقدم من ان المقدور كائن لا محاله ولقد احسن القائل حيث يقول :

ما قضى الله كائن لا محاله * والشقي الجهول من لام حاله

والقائل الآخر

اقنع بما ترزق ياذا الفتى * فليس ينسى ربنا نمله
ان اقبل الدهر فقم قائما * وان تولى مدبرا نم له

قوله ﴿ وعلى العبد ان يعلم ان الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه فقدر ذلك تقديرا محكما مبرما ليس فيه ناقض ولا معقب ولا مزيل ولا مغير ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وارضه ﴾ هذا بناء على ما تقدم من ان الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات وانه قدر مقاديرها قبل خلقها كما قال ﷺ « قدر الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وعرشه على الماء » فيعلم ان الله قد علم ان الاشياء تصير موجودة لأوقاتها على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم فان حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لايتصور إيجادها الا من عالم قد سبق علمه على إيجادها قال تعالى ﴿ الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ وانكر غلاة المعتزلة ان الله كان عالما في الازل وقالوا ان الله تعالى لايعلم افعال العباد حتى يفعلوا تعالى

الله عما يقولون علوا كبيرا . قال الامام الشافعي رحمه الله ناظروا القدرية بالعلم فان اقروا به خصموا وان انكروا كفروا فالله تعالى يعلم ان هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه فانما يعذبه لانه لا يفعل مع القدرة وقد علم الله ذلك منه ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه واذا قيل فيلزم ان يكون العبد قادرا على تغير علم الله لأن الله علم انه لا يفعل فاذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله ، قيل هذه معضلة وذلك ان مجرد قدرته على انه لا يستلزم تغير العلم وانما يظن من يظن تغير العلم اذا وقع الفعل ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه فيمتنع ان يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه بل ان وقع كان الله قد علم انه يقع وان لم يقع كان الله قد علم انه لا يقع ونحن لا نعلم علم الله الا بما يظهر وعلم الله مطابق للواقع فيمتنع ان يقع شيء يستلزم تغير العلم بل اي شيء وقع كان هو المعلوم والعبد الذي لم يفعل لم يات بما يغير العلم بل هو قادر على فعل لم يقع ولو وقع لكان الله قد علم انه يقع لا انه لا يقع واذا قيل فمع عدم وقوعه يعلم الله انه لا يقع فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغير العلم قيل ليس الأمر كذلك بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه ولو اوقعه لم يكن المعلوم الا وقوعه فمقدور العبد اذا وقع لم يكن المعلوم الا وقوعه وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه وهو فرض محال وذلك بمنزلة من يقول افرض وقوعه مع عدم وقوعه وهو جمع بين النقيضين فان قيل فاذا كان وقوعه مع علم الرب وقوعه محالا لم يكن مقدورا قيل لفظ المحال مجمل وهذا ليس محالا لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه بل هو ممكن

مقدور مستطاع ولكن اذا وقع كان الله عالما بأنه سيقع واذا لم يقع كان عالما
بانه لايقع فاذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة اثبات
الملزوم بدون لازمه وكل الاشياء بهذا الاعتبار هي محال مما يلزم هؤلاء ان
لا يبقى احد قادرا على شيء لا الرب ولا الخلق فان الرب اذا علم من نفسه
انه سيفعل كذا لايلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه وكذلك اذا علم
من نفسه انه لايفعله لايلزم منه انتفاء قدرته على فعله فكذلك ما قدره من
افعال عباده والله تعالى اعلم . قوله ﴿ وذلك من عقد الايمان واصول المعرفة
والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته كما قال تعالى في كتابه ﴿ وخلق كل
شيء فقدره تقديرا ﴾ وقال تعالى ﴿ وكان امر الله قدرا مقدورا ﴾ الاشارة
الى ماتقدم من الايمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها قال ﷺ في
جواب السائل عن الايمان « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » وقال ﷺ في آخر الحديث « ياعمر اتدري
من السائل قال الله ورسوله اعلم قال فانه جبرائيل اتاكم يعلمكم دينكم » رواه مسلم
وقوله والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته اي لايتم التوحيد والاعتراف بالربوبية
الا بالايمان بصفاته تعالى فان من زعم خالقا غير الله فقد اشرك فكيف بمن يزعم
ان كل احد يخلق فعله ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الامة واحاديثهم في
السنن . وروى ابو داود عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال « القدرية مجوس هذه
الامة ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم » . وروى ابو داود ايضا
عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « لكل امة مجوس ،
ومجوس هذه الامة الذين يقولون لاقدر ، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته

ومن مرض منهم فلا تعودوهم ، وهم شيعة الدجال وحق على الله ان يلحقهم بالدجال »
وروى ابو داود ايضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال
« لا تجالسوا اهل القدر ولا تفاتحوهم » . وروى الترمذي عن ابن عباس رضي
الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « صنفان من بني آدم ليس لهم في الاسلام
نصيب المرجئة والقدرية » لكن كل احاديث القدرية المرفوعة ضعيفة وانما
يصح الموقوف منها فعن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال : القدر نظام التوحيد
فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده وهذا لأن الايمان بالقدر
يتضمن الايمان بعلم الله القديم وما اظهر من علمه * الذي * لا يحاط به وكتابة مقادير
الخلائق . وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة
وغيرهم ممن ينكر علمه بالجزئيات او بغير ذلك فان ذلك كله مما يدخل في التكذيب
بالقدر واما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة حيث
جعلوه لم يخلق افعال العباد فاخرجوها عن قدرته وخلقه والقدر الذي لا ريب
في دلالة الكتاب والسنة والاجماع عليه وان الذي جحدوه هم القدرية المحضة
بلا نزاع هو ما قدره الله من مقادير العباد وعامة ما يوجد من كلام الصحابة
والائمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء كقول ابن عمر لما قيل له يزعمون ان لا قدر
وان الامر انف اخبرهم اني منهم بريء وانهم مني براء والقدر الذي هو التقدير
المطابق للعلم يتضمن اصولا عظيمة . (احدها) انه عالم بالامور المقدرة قبل
كونها فيثبت علمه القديم وفي ذلك الرد على من ينكر علمه القديم . (الثاني)
ان التقدير يتضمن مقادير المخلوقات ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها
فان الله قد جعل لكل شيء قدرا قال تعالى ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾

فالخلق يتضمن التقدير تقدير الشيء في نفسه بان يجعل له قدرا وتقديره قبل وجوده فاذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كيته وكيفيته كان ذلك ابلغ في العلم بالامور الجزئية المعينة خلافا لمن انكر ذلك وقال انه يعلم الكليات دون الجزئيات فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات (الثالث) انه يتضمن انه اخبر بذلك واظهره قبل وجود المخلوقات اخبارا مفصلا فيقتضي انه يمكن ان يعلم العباد الامور قبل وجودها علما مفصلا فيدل ذلك بطريق التنبيه على ان الخالق اولى بهذا العلم فانه اذا كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو (الرابع) انه يتضمن انه مختار لما يفعله محدث له بمشئته وارادته ليس لازما لذاته (الخامس) انه يدل على حدوث هذا المقدور وانه كان بعد ان لم يكن فانه يقدره ثم يخلقه قوله ﴿ فويل لمن ضاع له في القدر قلبا سقيما . وفي نسخة فويل لمن صار قلبه في القدر قلباسقيما لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيما وعاد بما قال فيه افاكا اثيما ﴾ ش . اعلم ان القلب له حياة وموت ومرض وشفاء وذلك اعظم مما للبدن قال تعالى ﴿ او من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ اي كان ميتا بالكفر فاحييناه بالايمان فالقلب الصحيح الحي اذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منها بطبعه وابغضها ولم يلتفت اليها بخلاف القلب الميت فانه لا يفرق بين الحسن والقبيح . كما قال عبد الله بن مسعود (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر) وكذلك القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه . ومرض القلب نوعان كما تقدم . مرض شهوة ومرض شبهة واردأها

مرض الشبهة واردأ الشبه ما كان من امر القدر وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته واسبابها بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته وعلامة ذلك انه لا تؤلمه جرحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة فان القلب اذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته . وما لجرح بميت ايلام . وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيؤثر بقاء المه على مشقة الدواء فان دواءه في مخالفة الهوى وذلك اصعب شيء على النفس وليس له انفع منه وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره كمن دخل في طريق مخوف مفض الى غاية الامن وهو يعلم انه ان صبر عليه انقضى الخوف واعقبه الامن فهو محتاج الى قوة صبر وقوة يقين بما يصير اليه ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ولا سيما ان عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول اين ذهب الناس فلي اسوة بهم وهذه حال اكثر الخلق وهي التي اهلكتهم فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده اذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الاول الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا . وما احسن ما قال ابو محمد عبد الرحمن بن اسمعيل المعروف بابي شامه في كتاب الحوادث والبدع حيث جاء الامر بلزوم الجماعة فالمراد لزوم الحق واتباعه وان كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا لان الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الاولى من عهد النبي ﷺ واصحابه ولا ننظر الى كثرة اهل الباطل بعدهم . وعن الحسن البصري رحمه الله انه قال : السنة والذي لا اله الا

هو بين الغالي والجافي فاصبروا عليها رحمكم الله فان اهل السنة كانوا اقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي الذين لم يذهبوا مع اهل الاتراف في اترافهم ولا مع اهل البدع في بدعتهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك فكونوا وعلامة مرض القلب عدوله عن الاغذية النافعة الموافقة الى الأغذية الضارة ، وعدوله عن دوائه النافع الى دوائه الضار فههنا اربعة اشياء غذاء نافع ودواء شاف وغذاء ضار ودواء مهلك . فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضار المؤذي والقلب المريض بضد ذلك وانفع الاغذية غذاء الايمان وانفع الادوية دواء القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من اجهل الجاهلين واضل الضالين فان الله تعالى يقول ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وقال تعالى ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا ﴾ ومن في قوله من القرآن لبيان الجنس لا للتبعيض . وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الادواء القلبية والبدنية وادواء الدنيا والآخرة وما كل احد يؤهل الاستشفاء به واذا احسن العليل التداوي به ووضعه على دائه بصدق وايمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه لم يقاوم الداء ابدا وكيف تقاوم الادواء كلام رب الارض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدعها او على الارض لقطعها فما من مرض من امراض القلوب والابدان الا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه . وقوله لقد التمس

بوهمه في فحص الغيب سراكتيما اي طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرا مكتوما اذ القدر سر الله في خلقه فهو يروم ببحثه الاطلاع على الغيب وقد قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً الا من ارتضى من رسول ﴾ الى آخر السورة وقوله وعاد بما قال فيه اي في القدر افاكا كذابا اثيما اي مأثوما قوله ﴿والعرش والكرسي حق ﴾ كما بين تعالى في كتابه قال تعالى ﴿ ذو العرش المجيد فعال لما يريد - رفيع الدرجات ذو العرش - ثم استوى على العرش ﴾ في غير ما آية من القرآن ﴿الرحمن على العرش استوى - على العرش استوى - لا اله الا هو رب العرش الكريم - الله لا اله هو رب العرش العظيم - الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا - ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية - وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ﴾ وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح « لا إله الا الله العظيم الحليم لا إله هو رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الارض رب العرش الكريم » وروى الامام احمد في حديث الاوعال عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « هل تدرون كم بين السماء والارض » قال قلنا الله ورسوله اعلم قال « بينهما مسيرة خمسمائة سنة ومن كل سماء الى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله واعلاه كما بين السماء والارض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله واعلاه كما بين السماء والارض والله فوق ذلك ليس يخفى عليه من اعمال بني آدم شيء » ورواه ابو داود والترمذي وابن ماجه وروى ابو داود وغيره بسنده الى رسول الله ﷺ من حديث الاطيط انه ﷺ قال « ان عرشه على

سمواته كهكذا وقال باصابعه مثل القبة » الحديث وفي صحيح البخارى عن رسول الله ﷺ انه قال « اذا سألتم الله الجنة فسئلوه الفردوس فانه اعلى الجنة واوسط الجنة وفوقه عرش الرحمن » يروى وفوقه بالنصب على الظرفية وبالرفع على الابتداء اي وسقفه وذهب طائفة من اهل الكلام الى ان العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة وربما سموه الفلك الاطلس والفلك التاسع وهذا ليس بصحيح لانه قد ثبت في الشرع ان له قوائم تحمله الملائكة كما قال ﷺ « فان الناس يصعقون فاكون اول من يفيق فاذا انا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا ادري افاق قبلي ام جوزي بصعقة الطور » والعرش في اللغة عبارة عن السرير الذي للملك كما قال تعالى عن بلقيس ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ وليس هو فلكا ولا تفهم منه العرب ذلك والقرآن انما نزل بلغة العرب فهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات فمن شعر امية بن ابي الصلت :

مجدوا الله فهو للمجد اهل * ربنا في السماء امسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بهر النا * س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لاينـاله بصر العين * ترى حوله الملائك صورا

الصور هنا جمع اصور وهو المائل العنق لناظره الى العلو والشرجع هو العالي المنيف والسرير هو العرش في اللغة . ومن شعر عبدالله بن رواحة رضي الله عنه الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شهدت بان وعد الله حق * وان النار مثوى الكافرينا
وان العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد * ملائكة الاله مسومينا

ذكره ابن عبد البر وغيره من الائمة . وروى ابو داود عن النبي ﷺ انه قال « اذن لي ان احدث عن ملك من ملائكة الله عز وجل من حملة العرش ان ما بين اذنيه الى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » ورواه ابن ابي حاتم ولفظه تخفق الطير سبعمائة عام واما من حرف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك كيف يصنع بقوله تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ وقوله ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ايقول ويحمل ملكه يومئذ ثمانية وكان ملكه على الماء ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم الملك هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟ واما الكرسي فقال تعالى ﴿ وسع كرسيه السموات والارض ﴾ وقد قيل هو العرش والصحيح انه غيره نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره . روى ابن ابي شيبة في كتاب صفة العرش والحاكم في مستدركه وقال انه على شرط الشيخين ولم يخرجاه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وسع كرسيه السموات والارض ﴾ انه قال « الكرسي موضع القدمين والعرش لايقدر قدره الا الله تعالى » وقد روى مرفوعا والصواب انه موقوف على ابن عباس . وقال السدي « السموات والارض في جوف الكرسي بين يدي العرش » وقال ابن جرير قال ابو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما الكرسي في العرش الا كحلقة من حديد القيت بين ظهري فلاة من الارض » وقيل كرسيه علمه وينسب الى ابن عباس والمحفوظ عنه ما رواه ابن ابي شيبة كما تقدم ومن قال غير ذلك فليس له دليل الا مجرد الظن والظاهر انه من جراب الكلام المذموم كما قيل في العرش وانما هو كما قال غير واحد من السلف بين يدي العرش

كالمرقاة اليه . قوله ﴿ وهو مستغن عن العرش ومادونه منه محيط بكل شيء وفوقه وقد اعجز عن الاحاطة خلقه ﴾ اما قوله وهو مستغن عن العرش ومادونه فقال تعالى ﴿ ان الله غني عن العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الغني الحميد ﴾ وانما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا لانه لما ذكر العرش والكرسي ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش ومادون العرش ليبين ان خلقه للعرش لاستوائه عليه ليس لحاجته اليه بل له في ذلك حكمة اقتضته وكون العالي فوقا للسافل لا يلزم ان يكون السافل حاويا للعالي ، محيطا به حاملا له ، لا ان يكون الاعلى مفتقرا اليه فانظر الى السماء كيف هي فوق الارض وليست مفتقرة اليها فالرب تعالى أعظم شأنا وأجل من ان يلزم من علوه ذلك بل لوازم علوه من خصائصه وهي حمله بقدرته للسافل وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل واحاطته عزوجل به فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته وغناه عن العرش وفقر العرش اليه واحاطته بالعرش وعدم احاطة العرش به وحصره للعرش وعدم حصر العرش له وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق ونفاة العلو اهل التعطيل لو فصلوا بهذا التفصيل لهدوا الى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ولسلكوا خلف الدليل ولكن فارقوا الدليل فضلوا عن سواء السبيل والامر في ذلك كما قال الامام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول . ويروى هذا الجواب عن ام سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا الى النبي ﷺ (واما قوله محيط بكل شيء وفوقه وفي بعض النسخ محيط بكل شيء فوقه من قوله فوقه والنسخة بنسخة الاولى هي الصحيحة ومعناها انه تعالى محيط بكل

شيء وفوق كل شيء . ومعنى الثانية انه محيط بكل شيء فوق العرش وهذا
والله اعلم إما ان يكون أسقطها بعض النساخ سهواً ثم استنسخ بعض الناس
من تلك النسخة او ان بعض المحرفين الضالين اسقطها قصداً للفساد وانكاراً
لصفة الفوقية) والا فقد قام الدليل على ان العرش فوق المخلوقات وليس
فوقه شيء من المخلوقات فلا يبقى لقوله محيط - الا انه بكل شيء محيط -
بكل شيء فوق العرش والحالة هذه معنى اذ ليس فوق العرش من المخلوقات
ما يحاط به فتعين ثبوت الواو ويكون المعنى انه سبحانه محيط بكل شيء وفوق
كل شيء اما كونه محيط بكل شيء فقال تعالى ﴿والله من ورائهم محيط - ألا انه
بكل شيء محيط - ولله ما في السموات وما في الارض وكان الله بكل شيء محيطا﴾
وليس المراد من احاطته بخلقه انه كالفلك وان المخلوقات داخل ذاته المقدسة ،
تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وانما المراد احاطة عظمته وسعة علمه وقدرته وانها
بالنسبة الى عظمته كخردلة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال :
ما السموات السبع والارضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن الا كخردلة
في يد احدكم . ومن المعلوم ولله المثل الاعلى ان الواحد منا اذا كان عنده خردلة ان
شاء قبضها واحاط قبضته بها وان شاء جعلها تحته وهو في الحالين مباين لها عال
عليها فوقها من جميع الوجوه فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف فلو
شاء لقبض السموات والارض اليوم وفعل بها كما يفعل بها يوم القيمة فانه لا يتجدد
به اذ ذاك قدرة ليس عليها الآن فكيف يستبعد العقل مع ذلك انه يدنو
سبحانه من بعض اجزاء العالم وهو على عرشه فوق سمواته او يدني اليه من
يشاء من خلقه فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره . وفي حديث ابي رزين المشهور

الذي رواه عن النبي ﷺ في رؤية الرب تعالى فقال له ابو رزين كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جميع فقال سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله هذا القمر آية من آيات الله كلكم يراه مخليا به والله اكبر من ذلك واذا افل تبين انه اعظم واكبر من كل شيء فهذا يزيل كل اشكال ويبطل كل خيال . واما كونه فوق المخلوقات فقال تعالى ﴿وهو القاهر فوق عباده ـ يخافون ربهم من فوقهم﴾ . وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدم ذكره « والعرش فوق ذلك والله فوق ذلك كله » وقد انشد عبدالله بن رواحة شعره المذكور بين يدي النبي ﷺ واقره على ماقال وضحك منه وكذا انشده حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه قوله :

شهدت باذن الله ان محمدا * رسول الذي فوق السموات من عل
وان ابا يحيي ويحيي كلاهما * له عمل من ربه متقبل
وان الذي عادى اليهود ابن مريم * رسول اتى من عند ذي العرش مرسل
وان اخا الأحقاف اذ قام فيهم * يجاهد في ذات الاله ويعدل

فقال النبي ﷺ « وانا اشهد » وعن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال « لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي » وفي رواية تغلب غضبي رواه البخاري وغيره . وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه قال « بينما اهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا اليه رءوسهم فاذا الجبار جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم وقال يا اهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى ﴿سلام قولا من رب رحيم﴾ فينظر اليهم وينظرون اليه فلا يلتفتون الى شيء من النعيم ماداموا ينظرون »

وروي مسلم عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ وبقوله انت الأول فليس قبلك شيء وانت الآخر فليس بعدك شيء وانت الظاهر فليس فوقك شيء وانت الباطن فليس دونك شيء والمراد بالظهور هنا العلو . ومنه قوله تعالى ﴿ فما اسطاعوا ان يظهروه ﴾ اي يعلوه فهذه الاسماء الأربعة متقابلة (اسمان) منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وابديته (واسمان) لعلوه وقربه . وروي ابو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن ابيه عن جده قال اتى رسول الله ﷺ اعرابي فقال يا رسول الله جهدت الانفس ونهكت الاموال او هلك فاستسق لنا فانا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك فقال رسول الله ﷺ « ويحك اتدري ما الله ؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه اصحابه ثم قال ويحك انه لا يستشفع بالله على احد من خلقه شأن الله اعظم من ذلك ويحك اتدري ما الله ان الله فوق عرشه وعرشه فوق سمواته وقال بأصابعه مثل القبة وانه ليئط به اطيط الرحل الجديد بالراكب » وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة لما حكم فيهم ان تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم . فقال النبي ﷺ « لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات » وهو حديث صحيح اخرجه الأموي في مغازيه واصله في الصحيحين . وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها انها كانت تفخر على ازواج النبي ﷺ وتقول زوجكن اهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات . وعن عمر رضي الله عنه انه مر بعجوز فاستوقفته فوقف معها يحدثها فقال رجل يا أمير المؤمنين حبست الناس بسبب هذه العجوز فقال ويلك اتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع

سموات هذه خولة التي انزل الله فيها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى الى الله ﴾ اخرجه الدارمي . وروي عكرمة عن ابن عباس في قوله ﴿ ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ﴾ قال ولم يستطع ان يقول من فوقهم لأنه قد علم ان الله سبحانه من فوقهم ومن سمع احاديث الرسول ﷺ وكلام السلف وجد منه في اثبات الفوقية ما لا ينحصر ولا ريب ان الله سبحانه لما خلق الخلق لم يخلقهم في ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك فانه الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد فتعين انه خلقهم خارجا عن ذاته ولو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع انه قائم بنفسه غير مخالط للعالم لكان متصفاً بضد ذلك لان القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده وضد الفوقية السفول وهو مذموم على الاطلاق لأنه مستقر ابليس واتباعه وجنوده (فان قيل) لا نسلم انه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها (قيل) لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها فمتى اقررتم بانه ذات قائم بنفسه غير مخالط للعالم وانه موجود في الخارج ليس وجوده ذهنياً فقط بل وجوده خارج الاذهان قطعاً وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة ان ما كان وجوده كذلك فهو اما داخل العالم واما خارج عنه وانكار ذلك انكار ما هو اجل واظهر من الامور البديهيات الضرورية بلا ريب فلا يستدل على ذلك بدليل الا كان العلم بالمباينة اظهر منه واوضح وابين واذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصاً ولا يوجب محذورا ولا يخالف كتابا ولا سنة ولا اجماعا فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة اصلا فكيف اذا كان لا يمكن الاقرار بوجوده وتصديق رسله والايمان بكتابه وبما جاء به رسوله

إلا بذلك فكيف اذا انضم الى ذلك شهادة العقول السليمة والفطر المستقيمة والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده التي تقرب من عشرين نوعا : (احدها) التصريح بالفوقية مقرونا باداة من المعينة للفوقية بالذات كقوله تعالى ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ . (الثاني) ذكرها مجردة عن الاداة كقوله تعالى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ (الثالث) التصريح بالعروج نحو ﴿ تعرج الملائكة والروح اليه ﴾ وقوله ﷺ « يعرج الذين يأتون فيكم فيسألهم » (الرابع) التصريح بالصعود اليه كقوله تعالى ﴿ اليه يصعد الكلم الطيب ﴾ . (الخامس) التصريح برفعه بعض المخلوقات اليه كقوله تعالى ﴿ بل رفعه الله اليه ﴾ وقوله ﴿ اني متوفيك ورافعك الي ﴾ (السادس) التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو ذاتا وقدرا وشرفا كقوله تعالى ﴿ وهو العلي العظيم - وهو العلي الكبير - انه علي كبير ﴾ (السابع) التصريح بتنزل الكتاب منه كقوله تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم - تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم - تنزيل من الرحمن الرحيم - تنزيل من حكيم حميد - قل نزله روح القدس من ربك بالحق - حم والكتاب المبين انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل امر حكيم امرا من عندنا انا كنا مرسلين ﴾ (الثامن) التصريح باختصاص بعض المخلوقات بانها عنده وان بعضها اقرب اليه من بعض كقوله ﴿ ان الذين عند ربك - وله من في السموات والارض ومن عنده ﴾ ففرق بين من له عموما وبين من عنده من ملائكته وعبيده خصوصا وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه انه عنده فوق العرش (التاسع) التصريح بانه تعالى في السماء وهذا عند المفسرين من اهل

السنة على احد وجهين : اما ان يكون في بمعنى على واما ان يراد بالسماء العلو لايختلفون في ذلك ولايجوز الحمل على غيره . (العاشر) التصريح بالاستواء مقرونا باداة على مختص بالعرش الذي هو اعلى المخلوقات مصاحبا في الاكثر لاداة ثم الدالة على الترتيب والمهلة . (الحادي عشر) التصريح برفع الأيدي الى الله تعالى كقوله ﷺ « ان الله يستحي من عبده اذا رفع اليه يديه ان يردهما صفرا » والقول بان العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة وهذا يجده من نفسه كل داع كما يأتي ان شاء الله تعالى . (الثاني عشر) التصريح بنزوله كل ليلة الى سماء الدنيا والنزول المعقول عند جميع الامم انما يكون من علو الى سفل . (الثالث عشر) الاشارة اليه حسا الى العلو كما أشار اليه من هو اعلم بربه وبما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر لما كان بالمجمع الاعظم الذي لم يجتمع لاحد مثله في اليوم الاعظم في المكان الاعظم قال لهم « انتم مسئولون عني فماذا انتم قائلون » قالوا نشهد انك قد بلغت واديت ونصحت فرفع اصبعه الكريمة الى السماء رافعا لها الى من هو فوقها وفوق كل شيء قائلا « اللهم اشهد » فكأنا نشاهد تلك الاصبع الكريمة وهي مرفوعة الى الله وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع اصبعه اليه « اللهم اشهد » ونشهد انه بلغ البلاغ المبين وادى رسالة ربه كما امر ونصح امته غاية النصيحة فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وايضاحه الى تنطع المتنطعين وحذلقة المتحذلقين والحمد لله رب العالمين (الرابع عشر) التصريح بلفظ الاين كقول اعلم الخلق به وانصحهم لامته وافصحهم بيانا عن المعنى الصحيح بلفظ لايوهم باطلا بوجه « اين الله » في غير موضع (الخامس عشر) شهادته ﷺ لمن قال ان ربه في السماء بالايمان

(السادس عشر) اخباره تعالى عن فرعون انه رام الصعود الى السماء ليطلع الى اله موسى فيكذبه فيما اخبره من انه سبحانه فوق السموات فقال ﴿ ياهامان ابن لي صرحا لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات فاطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا ﴾ فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ومن اثبته فهو موسوي محمدي (السابع عشر) اخباره ﷺ انه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة فيصعد الى ربه ثم يعود الى موسى عدة مرار (الثامن عشر) النصوص الدالة على رؤية اهل الجنة له تعالى من الكتاب والسنة واخبار النبي ﷺ انهم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب فلا يرونه الامن فوقهم كما قال ﷺ « بينا اهل الجنة في نعيمهم اذ سطع لهم نور فرفعوا رؤسهم فاذا الجبار جل جلاله قد اشرف عليهم من فوقهم وقال يا أهل الجنة سلام عليكم ثم قرأ قوله تعالى ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ ثم يتوارى عنهم وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم » رواه الامام احمد في المسند وغيره من حديث جابر رضي الله عنه ولا يتم انكار الفوقية الا بانكار الرؤية ولهذا طرد الجهمية اليقين وصدق اهل السنة بالامرين معا واقروا بهما وصار من اثبت الرؤية ونفى العلو مذبذبا بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا الى هؤلاء وهذه الانواع من الادلة لو بسطت افرادها لبلغت نحو الف دليل فعلى المتأول ان يجيب عن ذلك كله وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك وكلام السلف في اثبات صفة العلو كثير جدا فمنه ماروى شيخ الاسلام ابو اسمعيل الانصاري في كتابه الفاروق بسنده الى مطيع البلخي انه سأل ابا حنيفة عمن قال لا اعرف ربي في السماء ام في الارض فقال قد كفر لان الله يقول ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾

وعرشه فوق سبع سمواته قلت فان قال انه على العرش ولكن يقول لا ادري العرش في السماء ام في الارض قال هو كافر لانه انكر انه في السماء فمن انكر انه في السماء فقد كفر وزاد غيره لان الله في اعلى عليين وهو يدعى من اعلى لا من اسفل انتهى ولا يلتفت الى من انكر ذلك ممن ينسبه الى مذهب ابى حنيفة فقد انتسب اليه طوائف معتزلة وغيرهم مخالفون له في كثير من اعتقاداته وقد ينتسب الى مالك والشافعي واحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتهم وقصة ابي يوسف في استتابة بشر المريسي لما انكر ان يكون الله عزوجل فوق العرش مشهورة رواه عبدالرحمن بن ابي حاتم وغيره ومن تأول فوق بانه خير من عباده وافضل منهم وانه خير من العرش وافضل منه كما يقال الامير فوق الوزير والدينار فوق الدرهم فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة وتشمئز منه القلوب الصحيحة فان قول القائل ابتداء الله خير من عباده وخير من عرشه من جنس قوله الثلج بارد والنار حارة والشمس اضوأ من السراج والسماء اعلى من سقف الدار والجبل اثقل من الحصا ورسول الله افضل من اليهود والسماء فوق الارض وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح بل هو من ارذل الكلام واسمجه واهجنه فكيف يليق بكلام الله الذي لواجتمع الانس والجن على ان يأتوا بمثله لما اتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا بل في ذلك تنقص . كما قيل في المثل السائر :

الم تر ان السيف ينقص قدره * اذا قيل ان السيف امضى من العصى

ولو قال قائل الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك لضحك منه العقلاء للتفاوت الذي بينهما فان التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق اعظم واعظم بخلاف

ما اذا كان يقتضي ذلك بان كان احتجاجا على مبطل كما في قول يوسف الصديق عليه السلام ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ وقوله تعالى ﴿ آلله خير اما يشركون ـ والله خير وأبقى ﴾ وانما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه فله سبحانه وتعالى فوقية القهر وفوقية القدر وفوقية الذات ومن اثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه فان قالوا بل علو المكانة لا المكان فالمكانة تانيث المكان والمنزلة تانيث المنزل فلفظ المكانة والمنزلة تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية كما يستعمل لفظ المكان والمنزل في الامكنة الجسمانية فاذا قيل لك في قلوبنا منزلة ومنزلة فلان في قلوبنا وفي نفوسنا اعظم من منزلة فلان كما جاء في الأثر « اذا احب احدكم ان يعرف كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله في قلبه فان الله ينزل العبد من نفسه حيث انزله العبد من قلبه » فقوله منزلة الله في قلبه هو ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك فاذا عرف ان المكانة والمنزلة تأنيث المكان والمنزل والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى وتابع له فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة اذا كان مطابقا كان حقا والا كان باطلا . فان قيل المراد علوه في القلوب وانه اعلى في القلوب من كل شيء . قيل وكذلك هو وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء فان لم يكن عاليا بنفسه على كل شيء كان علوه في القلوب غير مطابق كمن جعل ما ليس باعلى اعلى وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ثابت بالعقل والفطرة اما ثبوته بالعقل فمن وجوه (احدها) العلم البديهي القاطع بان كل موجودين . اما ان يكون احدهما ساريا

في الآخر قائما به كالصفات . واما ان يكون قائما بنفسه بائنا من الآخر . (الثاني) انه لما خلق العالم . فاما ان يكون خلقه في ذاته اوخارجا عن ذاته والاول باطل . اما اولا فبالاتفاق . واما ثانيا فلأنه يلزم ان يكون محلا للخسائس والقاذورات . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . والثاني يقتضى كون العالم واقعا خارج ذاته فيكون منفصلا فتعينت المباينة لأن القول بانه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه غير معقول (الثالث) ان كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه يقتضى نفي وجوده بالكلية لانه غير معقول فيكون موجودا اما داخله واماخارجه . والأول باطل فتعين الثاني فلزمت المباينة واما ثبوته بالفطرة فان الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون ايديهم عندالدعاء ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عندالتضرع الى الله تعالى . وذكر محمد بن طاهر المقدسي ان الشيخ ابا جعفر الهمداني حضر مجلس الاستاذ ابي المعالى الجوينى المعروف بأمام الحرمين وهو يتكلم في نفي صفة العلو ويقول كان الله ولاعرش وهو الآن على ما كان فقال الشيخ ابو جعفر اخبرنا يا استاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا فانه ماقال عارف قط ياالله الا وجد في قلبه ضرورة يطلب العلو لايلتفت يمنة ولا يسرة فكيف ندفع بهذه الضرورة عن انفسنا قال فلطم ابو المعالي على رأسه ونزل وأظنه قال وبكى وقال حيرني الهمداني حيرني اراد الشيخ ان هذا امر فطر الله عليه عباده من غير ان يتلقوه من المرسلين يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه الى الله ويطلبه في العلو وقد اعترض على الدليل العقلي بانكار بداهته لانه انكره جمهور العقلاء فلو كان بديهيا لما كان مختلفا فيه بين العقلاء بل هو قضية وهمية خيالية . والجواب عن هذا

الاعتراض مبسوط في موضعه ولـكن اشير اليه هنا اشارة مختصرة وهو ان يقال : ان العقـل ان قبل قولـكم فهو لقولنا اقبل وان رد العقل قولنا فهو لقولـكم اعظم رداً فان كان قولنا باطلا في العقل فقولـكم ابطل وان كان قولـكم حقا مقبولا في العقل فقولنا اولى ان يكون مقبولا في العقل فان دعوى الضرورة مشتركة فانا نقول نعلم بالضرورة بطلان قولكم وانتم تقولون كذلك فاذا قلتم تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من حكم العقل قابلناكم بنظير قولكم وعامة فطر الناس ليسوا منكم ولا منا موافقون لنا على هذا فان كان حكم فطر بني آدم مقبولا ترجحنا عليكم وان كان مردودا غير مقبول بطل قولكم بالكلية فانكم انما بنيتم قولكم على ماتدعون انه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية وبطلت عقلياتنا ايضا وكان السمع الذي جاءت به الانبياء معنا لا معكم فنحن مختصون بالسمع دونكم والعقل مشترك بيننا وبينكم فان قلتم : أكثر العقلاء يقولون بقولنا قيل : ليس الامر كذلك فان الذين يصرحون بأن صانع العالم ليس هو فوق العالم شيء موجود وانه لا مباين للعالم ولا حال في العالم طائفة من النظار واول من عرف عنه ذلك في الاسلام جهم بن صفوان واتباعه واعترض على الدليل الفطري ان ذلك انما كان لكون السماء قبلة للدعاء كما ان الكعبة قبلة للصلاة ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الارض مع انه ليس في جهة الارض . واجيب عن هذا الاعتراض من وجوه : (احدها) ان قولكم ان السماء قبلة الدعاء لم يقله احد من سلف الامة ولا انزل الله به من سلطان وهذا من الامور الشرعية الدينية فلا يجوز ان يخفى على جميع سلف الامة وعلمائها (الثاني) ان قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة فانه يستحب للداعي ان يستقبل القبلة

وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة فمن قال ان الداعاء قبلة غير قبلة الصلاة او ان له قبلتين احدهما الكعبة والاخرى السماء فقد ابتدع في الدين وخالف جماعة المسلمين (الثالث) ان القبلة هي ما يستقبله العابد بوجهه كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح وكما يوجه المحتضر والمدفون ولذلك سميت وجهة والاستقبال خلاف الاستدبار فالاستقبال بالوجه والاستدبار بالدبر فاما ماحاذاه الانسان برأسه او يديه اوجنبه فهذا لايسمى قبلة لاحقيقة ولا مجازا فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع ان يوجه الداعي وجهه اليها وهذا لم يشرع والموضع الذي ترفع اليد اليه لا يسمى قبلة لاحقيقة ولا مجازا ولأن القبلة في الدعاء امر شرعي تتبع فيه الشرائع ولم تأمر الرسل ان الداعي يستقبل السماء بوجهه بل نهوا عن ذلك. ومعلوم ان التوحيد بالقلب والالجاء والطلب الذي يجده الداعي من نفسه امر فطري يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل واكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله كما فطر على انه اذا مسه الضر يدعو الله مع ان امر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل كما تحولت القبلة من الصخرة الى الكعبة. وامر التوحيد في الدعاء الى الجهة العلوية مركوز في الفطر والمستقبل للكعبة يعلم ان الله تعالى ليس هناك بخلاف الداعي فانه يتوجه الى ربه وخالقه ويرجو الرحمة ان تنزل من عنده واما النقض بوضع الجبهة فما افسده من نقض فان واضع الجبهة انما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له لا بأن يميل اليه اذ هو تحته هذا لا يخطر في قلب ساجد لكن يحكى عن بشر المريسي انه سمع وهو يقول: في سجوده سبحان ربي الاسفل تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا وان كان من افضى

به النفي الى هذه الحال حري ان يتزندق ان لم يتداركه الله برحمته وبعيد من مثله الصلاح قال تعالى ﴿ ونقلب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ﴾ فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان نسأل الله العفو والعافية وقوله وقد اعجز عن الاحاطة خلقه اي لا يحيطون به علما ولا رؤية ولا غير ذلك من وجوه الاحاطة بل هو سبحانه محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء قوله ﴿ ونقول ان الله اتخذ ابراهيم خليلا وكلم الله موسى تكليما ايمانا وتصديقا وتسليما ﴾ قال الله تعالى ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ الخلة كمال المحبة وانكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين زعما منهم ان المحبة لا تكون الا لمناسبة بين المحب والمحبوب وانه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة . وكذلك انكروا حقيقة التكليم كما تقدم وكان اول من ابتدع هذا في الاسلام هو الجعد بن درهم في اوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري امير العراق والمشرق بواسط . خطب الناس يوم الاضحى فقال : ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ثم نزل فذبحه . وكان ذلك بفتوى اهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم فجزاه الله عن الدين واهله خيرا . واخذ هذا المذهب عن الجعد الجهم بن صفوان فاظهره وناظر عليه واليه اضيف قول الجهمية فقتله مسلم بن احوز امير خراسان بها ثم انتقل ذلك الى المعتزلة اتباع عمرو بن عبيد وظهر قولهم في اثناء خلافة المأمون حتى امتحن ائمة الاسلام ودعوهم الى الموافقة لهم على ذلك واصل

هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة وهم ينكرون ان يكون ابراهيم خليلا وموسى كليما لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب كما قيل :

قد تخللت مسلك الروح مني * ولذا سمي الخليل خليلا

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى كسائر صفاته . ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن ابي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال « لو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله » يعني نفسه وفي رواية « اني ابرأ الى كل خليل من خلته ولو كنت متخذا من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا » وفي رواية « ان الله اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا » فبين ﷺ انه لا يصلح له ان يتخذ من المخلوقين خليلا وانه لو امكن ذلك لكان احق الناس به ابو بكر الصديق . مع انه ﷺ قد وصف نفسه بانه يحب اشخاصا كقوله لمعاذ والله اني لأحبك وكذلك قوله للانصار . وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وابنه اسامة حبه وامثال ذلك وقال له عمرو بن العاص اي الناس احب اليك قال عائشة قال فمن الرجال قال ابوها فعلم ان الخلة اخص من مطلق المحبة والمحبوب بها لكمالها يكن محبوبا لذاته لا لشيء آخر اذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير ومن كمالها لا تقبل الشركة المزاحمة لتخللها المحبة ففيها كمال التوحيد وكمال الحب . ولذلك لما اتخذ الله ابراهيم خليلا وكان ابراهيم قد سأل ربه ان يهب له ولدا صالحا فوهب له اسمعيل فاخذ هذا الولد شعبة من قلبه فغار الخليل على قلب خليله ان يكون فيه مكان لغيره فامتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده فلما استسلم

لامر ربه وعزم على فعله وظهر سلطان الخلة في الاقدام على ذبح الولد ايثاراً
لمحبة خليله على محبته نسخ الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم لان المصلحة في الذبح
كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر فلما حصلت هذه المصلحة
عاد الذبح مفسدة فنسخ في حقه وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا
سنة في اتباعه الى يوم القيامة وكما ان منزلة الخلة الثابتة لابراهيم صلوات الله
عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما تقدم كذلك منزلة التكليم الثابتة لموسى
صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما ثبت ذلك في حديث الاسراء .
وهنا سؤال مشهور وهو ان النبي ﷺ افضل من ابراهيم ﷺ فكيف طلب
له من الصلاة مثل ما لابراهيم مع ان المشبه به أصله ان يكون فوق المشبه
وكيف الجمع بين هذين الامرين المتنافيين . وقد اجاب عنه العلماء بأجوبة
عديدة يضيق هذا المكان عن بسطها واحسنها ان آل ابراهيم فيهم الانبياء
الذين ليس في آل محمد مثلهم فاذا طلب للنبي ﷺ ولآله من الصلاة مثل ما
لابراهيم وآله وفيهم الانبياء حصل لآل محمد ما يليق بهم لا يبلغون مراتب
الانبياء وتبقى الزيادة التي للانبياء وفيهم ابراهيم لمحمد ﷺ فيحصل له من المزية ما لم
يحصل لغيره واحسن من هذا ان النبي ﷺ من آل ابراهيم بل هو افضل
آل ابراهيم فيكون قولنا كما صليت على آل ابراهيم متناولا الصلاة عليه وعلى
سائر النبيين من ذرية ابراهيم . ولما كان بيت ابراهيم عليه السلام اشرف بيوت
العالم على الاطلاق خصهم الله بخصائص (منها) انه جعل فيه النبوة والكتاب فلم
يأت بعد ابراهيم نبي الا من اهل بيته (ومنها) انه سبحانه جعلهم ائمة يهدون
بأمره الى يوم القيمة فكل من دخل الجنة من اولياء الله بعدهم فانما دخل من

طريقهم وبدعوتهم (ومنها) انه سبحانه اتخذ منهم الخليلين كما تقدم ذكره. (ومنها) انه جعل صاحب هذا البيت اماما للناس. قال تعالى ﴿ اني جاعلك للناس اماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين ﴾ (ومنها) انه اجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قياما للناس ومثابة للناس وامنا وجعله قبلة لهم وحجا فكان ظهور هذا البيت في الاكرمين. ومنها انه امر عباده ان يصلوا على اهل البيت الى غير ذلك من الخصائص. قوله ﴿ ونؤمن بالملائكة والنبيين والكتب المنزلة على المرسلين ونشهد انهم كانوا على الحق المبين ﴾ ش. هذه الامور من اركان الايمان قال تعالى ﴿ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ الايات وقال تعالى ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾ الآية فجعل الله سبحانه وتعالى الايمان هو الايمان بهذه الجملة وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾. وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي ﷺ عن الايمان فقال «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» فهذه الاصول التي اتفقت عليها الانبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ولم يؤمن بها حقيقة الايمان الا اتباع الرسل. واما اعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة واهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وانكارها واعظم الناس لها انكارا الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء فان من علم حقيقة قولهم علم انهم

لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر فان مذهبهم
ان الله سبحانه وجود موجود لا ماهية له ولا حقيقة فلا يعلم الجزئيات باعيانها
وكل موجود في الخارج فهو جزئي ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته وانما
العالم عندهم لازم له ازلا وابدا وان سموه مفعولا له فمصانعة ومصالحة للمسلمين
في اللفظ وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه وينفون عنه سمعه
وبصره وسائر صفاته فهذا ايمانهم بالله . واما كتبه عندهم فأنهم لا يصفونه
بالكلام فلا يكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول والقرآن عندهم فيض فاض
من العقل الفعال على قلب بشر زاك النفس طاهر متميز عن النوع الانساني
بثلاث خصائص قوة الادراك وسرعته لينال العلم اعظم مما يناله غيره وقوة
النفس ليؤثر بها في هيولى العلم يقلب صورة الى صورة وقوة التخييل ليخيل
بها القوى العقلية في اشكال محسوسة وهي الملائكة عندهم وليس في الخارج
ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول وانما
ذلك عندهم امور ذهنية لا وجود لها في الاعيان واما اليوم الآخر فهم اشد
الناس تكذيبا وانكارا له في الاعيان وعندهم ان هذا العالم لا يخرب ولا تنشق
السموات ولا تنفطر ولا تنكدر النجوم ولا تكور الشمس والقمر ولا يقوم
الناس من قبورهم ويبعثون الى جنة ونار كل هذا عندهم امثال مضروبة لتفهيم
العوام لا حقيقة لها في الخارج كما يفهم منها اتباع الرسل . فهذا ايمان هذه
الطائفة الذليلة الحقيرة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وهذه
هي اصول الدين الخمسة وقد ابدلتها المعتزلة باصولهم الخمسة التي هدموا بها
كثيرا من الدين فانهم بنوا اصل دينهم على الجسم والعرض الذي هو الموصوف

والصفة عندهم واحتجوا بالصفات التي هي الاعراض على حدوث الموصوف الذي هو الجسم وتكلموا في التوحيد على هذا الاصل فنفوا عن الله كل صفة تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الاجسام ثم تكلموا بعد ذلك في افعاله التي هي القدر وسموا ذلك العدل ثم تكلموا في النبوة والشرائع والامر والنهي والوعد والوعيد وهي مسائل الاسماء والاحكام التي هي المنزلة بين المنزلتين ومسئلة انفاذ الوعيد ثم تكلموا في الزام الغير بذلك الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمنوه جواز الخروج على الائمة بالقتال فهذه اصولهم الخمسة التي وضعوها بازاء اصول الدين الخمسة التي بعث بها الرسول. والرافضة المتأخرون جعلوا الاصول اربعة. التوحيد والعدل والنبوة والامامة. واصول اهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول. واصل الدين الايمان بما جاء به الرسول كما تقدم بيان ذلك ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة لما تضمنتا هذا الاصل لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ففي الصحيحين عن ابي مسعود عقبة بن عمرو عن النبي ﷺ قال « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال « بينا جبرائيل قاعدا عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط الا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك نزل الى الارض لم ينزل قط الا اليوم فسلم وقال « ابشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها الا اوتيته » وقال ابو طالب المكي اركان الايمان سبعة يعني هذه الخمسة والايمان بالقدر والايمان بالجنة والنار وهذا حق والادلة عليه ثابتة محكمة قطعية وقد

تقدم الاشارة الى دليل التوحيد والرسالة . واما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والارض فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة كما قال تعالى ﴿ فالمدبرات امرا فالمقسمات امرا ﴾ وهم الملائكة عند اهل الايمان واتباع الرسل واما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون هي النجوم . وقد دل الكتاب والسنة على اصناف الملائكة وانها موكلة باصناف المخلوقات وانه سبحانه وكل بالجبال ملائكة ووكل بالسحاب والمطر ملائكة ووكل بالرحم ملائكة تدبر امر النطفة حتى يتم خلقها ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ مايعمله واحصائه وكتابته ووكل بالموت ملائكة ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ووكل بالافلاك ملائكة يحركونها ووكل بالشمس والقمر ملائكة ووكل بالنار وايقادها وتعذيب اهلها وعمارتها ملائكة ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة فالملائكة اعظم جنود الله ومنهم : المرسلات عرفا والناشرات نشرا والفارقات فرقا والملقيات ذكرا ومنهم : النازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا ومنهم : الصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا . ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله الفرق والطوائف والجماعات التي مفردها فرقة وطائفة وجماعة ومنهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وملائكة قد وكلوا بحمل العرش وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس الى غير ذلك من اصناف الملائكة التى لا يحصيها الا الله ولفظ الملك يشعر بانه رسول منفذ لأمر مرسله فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله لله الواحد القهار وهم ينفذون امره ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون - يعلم مابين ايديهم وماخلفهم - ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون - يخافون

ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون ﴾ فهم عباد مكرمون ، منهم الصافون ومنهم المسبحون ليس منهم الا له مقام معلوم ولايتخطاه وهو على عمل قد امربه لايقصر عنه ولا يتعداه واعلاهم الذين عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون ومنهم : الاملاك الثلاثة جبرائيل وميكائيل واسرافيل الموكلون بالحياة فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والارواح وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الارض والنبات والحيوان واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم فهم رسل الله في خلقه وامره وسفراؤه بينه وبين عباده ينزلون بالامر من عنده في اقطار العالم ويصعدون اليه بالامر قد أطت السموات بهم وحق لها ان تئط ما فيها موضع اربع اصابع الا وملك قائم او راكع اوساجد لله ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون الفا لايعودون اليه آخر ما عليهم والقرآن مملوء بذكر الملائكة واصنافهم ومراتبهم فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم وصلاته بصلاتهم ويضيفهم اليه فى مواضع التشريف وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له ومراتبهم من الدنو وتارة يصفهم بالاكرام والكرم والتقريب والعلو والطهارة والقوة والاخلاص . قال تعالى ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله - شهد الله انه لا إله الا هو والملائكة واولوا العلم - هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور - الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا - وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم - بل عباد مكرمون - ان الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون -

فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون - كراما كاتبين - كرام بررة - يشهده المقربون - لا يسمعون الى الملأ الأعلى﴾ وكذلك الاحاديث طافحة بذكرهم . فلهذا كان الايمان بالملائكة احد الاصول الخمسة التي هي اركان الايمان وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر وتنسب الى اهل السنة تفضيل صالحي البشر والانبياء فقط على الملائكة والى المعتزلة تفضيل الملائكة . واتباع الاشعري على قولين : منهم من يفضل الانبياء والاولياء ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولا . وحكي عن بعضهم ميلهم الى تفضيل الملائكة . وحكي ذلك عن غيرهم من اهل السنة وبعض الصوفية وقالت الشيعة : ان جميع الأئمة افضل من جميع الملائكة . ومن الناس من فضل تفضيلا آخر ولم يقل احد ممن له قول يؤثر ان الملائكة افضل من بعض الانبياء دون بعض . وكنت ترددت في الكلام على هذه المسئلة لقلة ثمرتها وانها قريب مما لايعني . « ومن حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه » والشيخ رحمه الله لم يتعرض الى هذه المسئلة بنفي ولا اثبات ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصدا فان الامام اباحنيفة رحمه الله وقف في الجواب عنها ما ذكره في[1] مآل الفتاوى فانه ذكر مسائل لم يقطع ابو حنيفة فيها بجواب وعد منها التفضيل بين الملائكة والانبياء وهذا هو الحق فان الواجب علينا الايمان بالملائكة والنبيين وليس علينا ان نعتقد أي الفريقين أفضل فان هذا لو كان من الواجبات لبين لنا نصاً . وقد قال تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم - وما كان ربك نسيا﴾ وفي الصحيح « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم اشياء فلا تنتهكوها وسكت عن اشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا

(١) لعله مسائل

عنها » فالسكوت عن الكلام في هذه المسئلة نفيا واثباتا والحالة هذه اولى ولايقال انهذهالمسئلة نظيرغيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة لان الادلةهنا متكافئة على ماشير اليه انشاء الله تعالى وحملني على بسط الكلام هنا ان بعض الجاهلين يسيئون الادب بقولهم : كان الملك خادما للنبي ﷺ اوان بعض الملائكه خدام بني آدم يعنون الملائكة الموكلين بالبشر ونحو ذلك من الالفاظ المخالفة للشرع ، المجانبة للادب والتفضيل اذا كان على وجه التنقص او الحمية والعصبية للجنس لاشك في رده وليس هذه المسئلة نظير المفاضلة بين الانبياء فان تلك قدوجد فيها نص وهو قوله ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ الآية وقوله تعالى ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وقدتقدم الكلام في ذلك عند قول الشيخ - وسيد المرسلين - يعني النبي ﷺ والمعتبر رجحان الدليل ولايهجر القول لان بعض اهل الاهواء وافق عليه بعد ان تكون المسئلة مختلفا فيها بين اهل السنة وقد كان ابو حنيفة يقول اولا بتفضيل الملائكة على البشر ثم قال بعكسه والظاهر ان القول بالتوقف احد اقواله والادلة في هذه المسئلة من الجانبين انما تدل على الفضل لا على الافضلية ولا نزاع في ذلك . والشيخ تاج الدين الفزاري رحمه الله مصنف سماه (الاشارة في البشارة) في تفضيل البشر على الملك وقال في آخره . اعلم ان هذه المسئلة من بدع علم الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الاول من الامة ولا من بعدهم من اعلام الائمة ولايتوقف عليها اصل من اصول العقائد ولايتعلق بها من الامور الدينية كثير من المقاصد . ولهذاخلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن وامتنع من الكلام فيها جماعة من الاعيان

وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه لم يخل كلامه عن ضعف واضطراب
انتهى والله الموفق للصواب . فما استدل به على تفضيل الانبياء على الملائكة ان
الله امر الملائكة ان يسجدوا لآدم وذلك دليل على تفضيله عليهم . ولذلك امتنع
ابليس واستكبر وقال ﴿أرأيتك هذا الذي كرمت علي﴾ . قال الآخرون ان
سجود الملائكة كان امتثالا لامر ربهم وعبادة وانقيادا وطاعة له وتكريما لآدم
وتعظيما ولا يلزم من ذلك الافضلية كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه يوسف
عليهما السلام تفضيل ابنه عليه ولا تفضيل الكعبة على بنى آدم بسجودهم
اليها امتثالا لامر ربهم . واما امتناع ابليس فانه عارض النص برأيه وقياسه
الفاسد بأنه خير منه . وهذه المقدمة الصغرى والكبرى محذوفة تقديرها
والفاضل لا يسجد للمفضول وكلتا المقدمتين فاسدة . اما الاول فان التراب
يفوق النار في أكثر صفاته ولهذا خان ابليس عنصره فأبى واستكبر فان من
صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة وافساد ما تصل اليه ومحقه
وإهلاكه واحراقه ونفع آدم عنصره في التوبة والاستكانة والانقياد والاستسلام
لامر الله والاعتراف وطلب المغفرة فان من صفات التراب الثبات والسكون
والرصانة والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل وما دنا منه ينبت ويزكو
وينمي ويبارك فيه ضد النار . وأما المقدمة الثانية وهي ان الفاضل لا يسجد
للمفضول فباطلة فان السجود طاعة لله وامتثال لامره ولو أمر الله عباده ان
يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة ولا يدل ذلك على ان المسجود له
أفضل من الساجد وان كان فيه تكريمه وتعظيمه وانما يدل على فضله قالوا وقد
يكون قوله هذا الذي كرمت علي بعد طرده لامتناعه عن السجود له لا قبله

فينتفي الاستدلال به ومنه ان الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات والانبياء لهم عقول وشهوات فلما نهوا أنفسهم عن الهوى ومنعوها عما تميل اليه الطباع كانوا بذالك افضل . قال الآخرون يجوز أن تقع من الملائكة مداومة الطاعة وتحمل العبادة وترك الونى والفتور فيها مايفي بتجنب الانبياء شهواتهم مع طول مدة عبادة الملائكة . ومنه ان الله تعالى جعل رسلا الى الانبياء وسفراء بينه وبينهم وهذا الكلام قد اعتل به من قال ان الملائكة افضل واستدلالهم به أقوى فان الانبياء المرسلين ان ثبت تفضيلهم على المرسل اليهم بالرسالة ثبت تفضيل الرسل من الملائكة اليهم عليهم فان الرسول الملكي يكون رسولا الى الرسول البشري . ومنه قوله تعالى ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾ الآيات قال الآخرون هذا دليل على الفضل لا على التفضيل وآدم والملائكة لا يعلمون الاما علمهم الله وليس الخضر افضل من موسى بكونه علم ما لم يعلمه موسى وقد سافر موسى وفتاه في طلب العلم الى الخضر وتزود لذلك وطلب موسى منه العلم صريحا وقال له الخضر انك على علم من علم الله الى آخر كلامه ولا الهدهد افضل من سليمان بكونه أحاط بما لم يحط به سليمان علماً ومنه قوله تعالى ﴿ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي﴾ قال الاخرون هذا دليل الفضل لا الافضلية والا لزم تفضيله على محمد ﷺ فان قلتم هو من ذريته فمن ذريته البر والفاجر . بل يوم القيامة اذا قيل لآدم : ابعث من ذريتك بعثا الى النار يبعث من كل الف تسعمائة وتسعة وتسعين الى النار وواحدا الى الجنة فما بال هذا التفضيل سرى الى هذا الواحد من الالف فقط ومنه قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه ماخلق الله خلقاً اكرم عليه من محمد ﷺ الحديث فالشأن في ثبوته وان

صح عنه فالشأن في ثبوته في نفسه فانه يحتمل ان يكون من الاسرائيليات ومنه حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « ان الملائكة قالت يا ربنا اعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهوا فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة » قال « لا اجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان » اخرجه الطبراني . واخرجه عبدالله بن احمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رويم انه قال اخبرني الانصاري عن النبي ﷺ ان الملائكة قالوا الحديث وفيه « وينامون ويستريحون » فقال الله تعالى « لا » فاعادوا القول ثلاث مرات كل ذلك يقول لا والشان في ثبوتها فان في سنديها مقالا وفي متنها شيئا فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة . وقد اخبر الله تعالى عنهم انهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وهل يظن بهم انهم متبرمون باحوالهم متشوفون الى ما سواها من شهوات بني آدم والنوم اخو الموت فكيف يغبطونهم به وكيف يظن بهم انهم يغبطونهم باللهو وهو من الباطل . قالوا بل الامر بالعكس فان ابليس انما وسوس الى آدم ودلاه بغرور اذ اطمعه في ان يكون ملكا بقوله ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين فدل ان افضلية الملك امر معلوم مستقر في الفطرة . يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتي قطعن ايديهن عند رؤية يوسف ﴿وقلن حاشا لله ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم﴾ وقال تعالى ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك﴾ . قال الاولون ان هذا انما

كان لما هو مركوز في النفس ان الملائكة خلق جميل عظيم مقتدر على الافعال الهائلة خصوصا العرب فان الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا ان الملائكه بنات الله . تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . ومنه قوله تعالى ﴿ ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ . قال الآخرون قد يذكر العالمون ولا يقصد به العموم المطلق بل في كل مكان بحسبه كما في قوله تعالى ﴿ لتكون للعالمين نذيرا - اتأتون الذكران من العالمين - ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ ومنه قوله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ والبرية مشتقة من البرء بمعنى الخلق فثبت ان صالحي البشر خير الخلق . قال الآخرون انما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات والملائكة في هذا الوصف اكمل فانهم لا يسأمون ولا يفترون فلا يلزم ان يكونوا خيرا من الملائكة هذا على قراءة من قرأ البريئة بالهمز وعلى قراءة من قرأ بالياء ان قلنا انها مخففة من الهمزة وان قلنا انها نسبة الى البر وهو التراب كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في الصحاح يكون المعنى انهم خير من خلق من التراب فلا عموم فيها اذ الغير من خلق من التراب . قال الاولون انما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر اذا كملوا ووصلوا الى غايتهم واقصى نهايتهم وذلك انما يكون اذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى وسكنوا الدرجات العلى وحباهم الرحمن بمزيد قربه وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر الى وجهه الكريم . قال الآخرون الشأن في انهم هل صاروا الى حالة يفوقون فيها الملائكة او يساوونهم فيها . فان كان قد ثبت انهم يصيرون الى حال يفوقون فيها الملائكة سلم المدعى والا فلا . ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر قوله تعالى

﴿ لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ﴾ وقد ثبت من طريق اللغة ان مثل هذا الكلام يدل على ان المعطوف افضل من المعطوف عليه لانه لا يجوز ان يقال لن يستنكف الوزير ان يكون خادما للملك ولا الشرطي او الحراس وانما يقال لن يستنكف الشرطي ان يكون خادما للملك ولا الوزير ففي مثل هذا التركيب يترقى من الادنى الى الاعلى فاذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره اذ لم يقل احد انهم افضل من بعض الانبياء دون بعض. اجاب الآخرون بأوجوبة احسنها اومن احسنها انه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه وفي العبودية خضوع وذل وانقياد وعيسى عليه السلام لا استنكف عنها ولا من هو اقدر منه واقوى واعظم خلقا ولا يلزم من مثل هـذا التركيب الافضلية المطلقة من كل وجه ومنه قوله تعالى ﴿ قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ﴾ ومثل هذا يقال بمعنى اني لو قلت ذلك لادعيت فوق منزلتي ولست ممن يدعي ذلك أجاب الآخرون بأن الكفار كانوا قد قالوا ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق ﴾ فامر ان يقول لهم « اني بشر مثلكم احتاج الى ما يحتاج اليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب لست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة الى الطعام والشراب » فلا يلزم حينئذ الافضلية المطلقة ومنه ما روي مسلم باسناده عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوي خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » . ومعلوم ان قوة البشر لا تداني قوة الملك ولا تقاربها . قال الآخرون : الظاهر ان المراد المؤمن من البشر

والله اعلم فلا تدخل الملائكة في هذا العموم . ومنه ماثبت في الصحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال فيما يروي عن ربه عزوجل قال « يقول الله تعالى انا عند ظن عبدي بي وانا معه اذا ذكرني فان ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » الحديث وهذا نص في الافضلية . قال الآخرون يحتمل ان يكون المراد خير منه للمذكور لا الخيرة المطلقة . ومنه ماروا امام الأئمة محمد بن خزيمة بسنده في كتاب التوحيد . عن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « بينا انا جالس اذ جاء جبرائيل فوكز بين كتفي فقمت الى شجرة مثل وكري الطير فقعد في احدها وقعدت في الاخر فسمت وارتفعت حتى سددت الخافقين وانا اقلب بصري ولو شئت ان أمس السماء مسست فنظرت الى جبرائيل كأنه حلس لاطئ فعرفت فضل علمه بالله علي » الحديث قال الآخرون في سنده مقال فلانسلم الاحتجاج به الا بعد ثبوته وحاصل الكلام ان هذه المسئلة من فضول المسائل . ولهذا لم يتعرض لها كثير من اهل الاصول وتوقف ابو حنيفة رحمه الله في الجواب عنها كما تقدم . والله اعلم بالصواب . واما الانبياء والمرسلون فعلينا الايمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله والايمان بان الله تعالى ارسل رسلا سواهم وانبياء لايعلم اسماءهم وعددهم الا الله تعالى الذي ارسلهم فعلينا الايمان بهم جملة لانه لم يأت في عددهم نص . وقد قال تعالى ﴿ ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وعلينا الايمان بانهم بلغوا جميع ماارسلوا به على ما أمرهم الله به وانهم بينوه

بياناً لا يسع احداً ممن ارسلوا اليه جهله ولا يحل خلافه قال تعالى ﴿ فهل على الرسل الا البلاغ المبين — وان تولوا فانما عليك البلاغ المبين ـ وان تطيعوه تهتدوا ـ وما على الرسول الا البلاغ المبين ـ واطيعوا الرسول فان توليتم فانما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ واما اولوا العزم من الرسل فقد قيل فيهم اقوال احسنها ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة انهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم قال وهم المذكورون في قوله تعالى ﴿ واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ﴾ واما الايمان بمحمد ﷺ فتصديقه واتباع ماجاء به من الشرائع اجمالا وتفصيلا واما الايمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه من التوراة والانجيل والزبور ونؤمن بان لله تعالى سوى ذلك كتبا انزلها على انبيائه لا يعرف اسماءها وعددها الا الله تعالى. واما الايمان بالقرآن فالاقرار به واتباع ما فيه وذلك امر زائد على الايمان بغيره من الكتب فعلينا الايمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله اتتهم من عند الله وانها حق وهدى ونور وبيان وشفاء قال تعالى ﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا ـ الى قوله وما اوتي النبيون من ربهم ـ آلم الله لا اله الا هو الحي القيوم ـ الى قوله وانزل الفرقان ـ آمن الرسول بما انزل اليه من ربه ـ افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ الى غير ذلك

من الآيات الدالة على ان الله تكلم بها وانها نزلت من عنده وفي ذلك اثبات صفة الكلام والعلو . وقال تعالى ﴿ كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب بالحق - وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد - ويرى الذين اوتوا العلم الذي انزل اليك من ربك هو الحق - يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين - قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء - فامنوا بالله ورسوله والنور الذي انزلنا ﴾ وامثال ذلك في القرآن كثيرة قوله ﴿ ونسمي اهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قاله واخبر مصدقين ﴾ قال رسول الله ﷺ « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا واكل ذبيحتنا فهو المسلم له مالنا وعليه ما علينا » ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى ان الأسلام والأيمان واحد وان المسلم لا يخرج من الاسلام بارتكاب الذنب مالم يستحله والمراد بقوله اهل قبلتنا من يدعي الأسلام ويستقبل الكعبة وان كان من اهل الاهواء او من اهل المعاصى مالم يكذب بشيء مما جاء به الرسول ﷺ . وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ ولا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب مالم يستحله وعند قوله والاسلام والايمان واحد واهله في اصله سواء قوله ﴿ ولا نخوض فى الله ولا نماري في دين الله ﴾ يشير الشيخ رحمه الله الى الكف عن كلام المتكلمين الباطل وذم علمهم فانهم يتكلمون في الآله بغير علم وغير سلطان اتاهم ﴿ ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ وعن ابي حنيفة رحمه الله انه قال لا ينبغي لاحد ان ينطق

في ذات الله بشيء بل يصفه بما وصف به نفسه وقال بعضهم الحق سبحانه يقول من الزمته القيام مع اسمائي وصفاتي الزمته الادب ومن كشفت له حقيقة ذاتي الزمته العطب فاختر الادب او العطب . ويشهد لهذا انه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات . وقال السبكي الانبساط بالقول مع الحق ترك الادب وقوله ولا نماري في دين الله معناه لا نخاصم اهل الحق بالقاء شبهات أهل الاهواء عليهم التماساً لامترائهم وميلهم لانه في معنى الدعاء الى الباطل وتلبيس الحق وافساد دين الاسلام قوله ﴿ ولا نجادل في القرآن ونشهد انه كلام رب العالمين نزل به الروح الامين

فعلمه سيد المرسلين محمداً ﷺ وهو كلام الله تعالى لا يساويه شيء من كلام

المخلوقين ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين ﴾ . فقوله ولا نجادل في

القرآن يحتمل انه أراد الا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق بل نقول انه كلام رب العالمين نزل به الروح الامين الى آخر كلامه ويحتمل انه أراد انا لا نجادل في القراءة الثابتة بل نقرأه بكل ما ثبت وصح وكل من المعنيين حق . يشهد بصحة المعنى الثاني ماروي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه انه قال سمعت رجلا قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها فأخذت بيده فانطلقت به الى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فعرفت في وجهه الكراهة وقال « كلاكما محسن ولا تختلفوا فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » رواه مسلم نهى رسول الله ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق لان كلا القارين كان محسناً فيما قرأه وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا . ولهذا قال

حذيفة رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه ادرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلف الامم قبلهم فجمع الناس على حرف واحد اجماعا سائغا وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ولم يكن في ذلك ترك لواجب ولا فعل لمحظور اذ كان قراءة القرآن على سبعة احرف جائزة لا واجبة رخصة من الله تعالى وقد جعل الاختيار اليهم في اي حرف اختاروه كما ان ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم منصوصا ولهذا كان ترتيب مصحف عبدالله على غير ترتيب المصحف العثماني وكذلك مصحف غيره. وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه فلم يكن لهم ان يقدموا آية على آية بخلاف السور فلما رأى الصحابة ان الامة تفترق وتختلف وتتقاتل ان لم تجتمع على حرف واحد جمعهم الصحابة عليه هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء. قال ابن جرير وغيره منهم من يقول: ان الترخص في الأحرف السبعة كان في اول الاسلام لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم اولا فلما تذللت السنتهم بالقراءة وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم وهو اوفق لهم أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الاخيرة وذهب طوائف من الفقهاء واهل الكلام الى ان المصحف مشتمل على الاحرف السبعة. وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني وترك ما سواه وقد تقدمت الاشارة الى الجواب وهو ان ذلك كان جائزا لا واجبا اوانه صار منسوخا واما من قال عن ابن مسعود انه كان يجوز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه وانما قال: قد نظرت الى القراء فرأيت قراءتهم متقاربة. وانما هو كقول احدكم هلم واقبل وتعال فاقرؤا كما علمتم او كما قال. والله تعالى قد امرنا ان لا نجادل اهل الكتاب الا بالتي هي أحسن الا الذين ظلموا منهم فكيف بمناظرة اهل القبلة فان اهل القبلة

من حيث الجملة خير من اهل الكتاب فلا يجوز ان يناظر من لم يظلم منهم الا بالتي هي احسن وليس اذا أخطأ يقال انه كافر قبل ان تقام عليه الحجة التي حكم الرسول بكفر من تركها والله تعالى قدعفا لهذه الامة عن الخطأ والنسيان. ولهذا ذم السلف اهل الاهواء وذكروا ان آخر امرهم السيف. وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان ان شاء الله تعالى عند قول الشيخ: ونرى الجماعة حقا وصوابا والفرقة زيغا وعذابا. وقوله: ونشهد انه كلام رب العالمين قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: وان القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا.

وقوله ﴿ نزل به الروح الامين ﴾ هو جبرائيل عليه السلام سمي روحا لانه حامل الوحي الذي به حياة القلوب الى الرسل من البشر صلوات الله عليهم اجمعين وهو امين حق امين صلوات الله عليه قال تعالى ﴿ نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين ﴾ وهذا وصف جبرائيل بخلاف قوله تعالى ﴿ انه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر ﴾ الآيات فان الرسول هنا هو محمد ﷺ. وقوله فعلمه سيد المرسلين تصريح بتعليم جبرائيل اياه ابطالا لتوهم القرامطة وغيرهم انه تصوره في نفسه الهاما.

وقوله: ولا نقول بخلقه ولا نخالف جماعة المسلمين تنبيه على ان من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين فان سلف الامة كلهم متفقون على ان كلام الله بالحقيقة غير مخلوق بل قوله ولا نخالف جماعة المسلمين مجرى على اطلاقه انا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فان خلافهم زيغ وضلال

وبدعة . قوله ﴿ ولا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب مالم يستحله ولا نقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله ﴾ اراد باهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله ونسمى اهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ماداموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين وله بكل ما قال واخبر مصدقين يشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام الى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب. واعلم رحمك الله وايانا ان باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه وكثر فيه الافتراق وتشتتت فيه الاهواء والآراء وتعارضت فيه دلائلهم فالناس فيه في جنس تكفير اهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الامر والمخالفة لذلك في اعتقادهم على طرفين ووسط من جنس الاختلاف في تكفير اهل الكبائر العملية فطائفة تقول : لا نكفر من اهل القبلة احدا فتنفي التكفير نفياً عاما مع العلم بان في أهل القبلة المنافقين الذين فيهم من هو اكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والاجماع وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم وهم يتظاهرون بالشهادتين . وأيضاً فلا خلاف بين المسلمين ان الرجل لو اظهر انكار الواجبات الظاهرة المتواترة والمحرمات الظاهرة المتواترة ونحو ذلك فانه يستتاب فان تاب والا قتل كافراً مرتداً والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور كما ذكره الخلال في كتاب السنة بسنده الى محمد ابن سيرين انه قال ان اسرع الناس ردة أهل الاهواء وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم ﴿ واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فاعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ ولهذا امتنع كثير من الائمة عن اطلاق القول بانا لا نكفر احدا بذنب بل يقال لا نكفرهم بكل ذنب كما تفعله الخوارج وفرق

بين النفي العام ونفي العموم والواجب انما هو نفي العموم مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب . ولهذا والله اعلم قيده الشيخ رحمه الله بقوله ما لم يستحله وفي قوله ما لم يستحله اشارة الى ان مراده من هذا النفي العام لكل ذنب من الذنوب العملية لا العلمية وفيه اشكال فان الشارع لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل وليس العمل مقصورا على عمل الجوارح بل اعمال القلوب اصل لعمل الجوارح واعمال الجوارح تبع الا ان يضمن قوله يستحله بمعنى يعتقده او نحو ذلك . وقوله ولا نقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمل الخ . كلامه رد على المرجئة فانهم يقولون لا يضر مع الايمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة فهؤلاء في طرف والخوارج في طرف فانهم يقولون يكفر المسلم بكل ذنب او بكل ذنب كبير وكذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط ايمانه كله بالكبيرة فلا يبقى معه شيء من الايمان لكن الخوارج يقولون يخرج من الايمان ويدخل في الكفر . والمعتزلة يقولون يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر وهذه المنزلة بين المنزلتين وبقولهم بخروجه من الايمان اوجبوا له الخلود في النار . وطوائف من اهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك في الاعمال لكن في الاعتقادات البدعية وان كان صاحبها متأولا فيقولون يكفر كل من قال هذا القول لا يفرقون بين المجتهد المخطيء وغيره او يقولون يكفر كل مبتدع وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الاثبات العام امور عظيمة فان النصوص المتواترة قد دلت على انه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها اولئك والكلام

في الوعيد مبسوط في موضعه . وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ
واهل الكبائر في النار لا يخلدون اذا ماتوا وهم موحدون . والمقصود هنا
ان البدع هي من هذا الجنس فان الرجل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا لكن
تأول تأويلا أخطأ فيه اما مجتهدا واما مفرطا مذنبا فلا يقال ان ايمانه حبط
لمجرد ذلك الا ان يدل على ذلك دليل شرعي بل هذا من جنس قول الخوارج
والمعتزلة ولا نقول لا يكفر بل بالعدل هو الوسط وهو ان الاقوال الباطلة
المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما اثبته الرسول أو اثبات ما نفاه أو الامر بما نهى
عنه او النهي عما امر به يقال فيها الحق ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص
ويبين انها كفر ويقال من قالها فهو كافر ونحو ذلك كما يذكر من الوعيد في
الظلم في النفس والاموال وكما قد قال كثير من اهل السنة المشاهير بتكفير من
قال بخلق القرآن وان الله لا يرى في الآخرة ولا يعلم الاشياء قبل وقوعها
وعن ابي يوسف رحمه الله انه قال ناظرت ابا حنيفة رحمه الله مدة حتى اتفق
رأيي ورأيه ان من قال بخلق القرآن فهو كافر واما الشخص المعين اذا قيل
هل تشهدون انه من اهل الوعيد وانه كافر فهذا لا نشهد عليه الا بأمر تجوز
معه الشهادة فانه من اعظم البغي ان يشهد على معين ان الله لا يغفر له ولا يرحمه
بل يخلده في النار فان هذا حكم الكافر بعد الموت . ولهذا ذكر ابو داود في
سننه في كتاب الادب باب النهي عن البغي وذكر فيه عن ابي هريرة رضي الله
عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « كان رجلان في بني اسرائيل متواخيين
فكان احدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر
على الذنب فيقول اقصر فوجده يوما على ذنب فقال له اقصر فقال خلني وربي

ابعثت على رقيبا فقال والله لا يغفر الله لك او لا يدخلك الجنة فقبض ارواحهما فاجتمعا
عند رب العالمين فقال لهذا المجتهد كنت بي عالما او كنت على ما في يدي قادرا
وقال للمذنب اذهب فادخل الجنة برحمتي وقال للآخر اذهبوا به الى النار» وقال
ابو هريرة والذي نفسي بيدي لتكلم بكلمة او بقت دنياه وآخرته وهو حديث
حسن ولان الشخص المعين يمكن ان يكون مجتهدا مخطئا مغفورا له او يمكن ان
يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص ويمكن ان يكون له
ايمان عظيم وحسنات او جبت له رحمة الله كما غفر للذي قال اذا مت
فاسحقوني ثم ذروني ثم غفر الله له لخشيته وكان يظن ان الله لا يقدر على جمعه
واعادته او شك في ذلك لكن هذا التوقف في امر الآخرة لا يمنعنا ان نعاقبه
في الدنيا لمنع بدعته وان نستتيبه فان تاب والا قتلناه ثم اذا كان القول في نفسه
كفرا قيل انه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع ولا يكون ذلك
الا اذا صار منافقا زنديقا فلا يتصور ان يكفر احد من اهل القبلة المظهرين
الاسلام الا من يكون منافقا زنديقا وكتاب الله يبين ذلك فان الله صنف
الخلق فيه ثلاثة اصناف : كفار من المشركين ومن اهل الكتاب وهم الذين
لا يقرون بالشهادة . وصنف المؤمنون باطنا وظاهرا . وصنف اقروا به ظاهرا
لا باطنا وهذه الاقسام الثلاثة مذكورة في اول سورة البقرة وكل من ثبت انه
كافر في نفس الامر وكان مقرا بالشهادتين فانه لا يكون الا زنديقا والزنديق
هو المنافق . وهنا يظهر غلط الطرفين فانه من كفر كل من قال القول المبتدع
في الباطن يلزمه ان يكفر اقواما ليسوا في الباطن منافقين بل هم في الباطن
يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وان كانوا مذنبين كما ثبت في صحيح

البخاري عن اسلم مولى عمر رضي الله عنه عن عمر ان رجلا كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله وكان يلقب حمارا وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد جلده من الشراب فاتى به يوما فأمر به فجلد فقال رجل من القوم: اللهم العنه ما اكثر ما يؤتى به فقال رسول الله ﷺ « لا تلعنه فانه يحب الله ورسوله » وهذا امر متيقن به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم والدين وفيهم بعض مقالات الجهمية والمرجئة اوالقدرية اوالشيعة اوالخوارج ولكن الائمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة بل بفرع منها. ولهذا انتحل اهل هذه الاهواء لطوائف من السلف المشاهير فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ومن ممادح اهل العلم انهم يخطئون ولا يكفرون. ولكن بقي هنا اشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله وهو ان الشارع قد سمى بعض الذنوب كفرا قال الله ﴿ ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ﴾. وقال ﷺ «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وقال ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض واذا قال الرجل لاخيه يا كافر فقد باء بها احدهما » متفق عليهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنه. وقال ﷺ « اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق وحتى يدعها: اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا عاهد غدر واذا خاصم فجر » متفق عليه من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنه. وقال ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن والتوبة معروضة بعد » وقال ﷺ

« بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة » رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه.
وقال ﷺ « من اتى كاهنا فصدقه او أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما انزل على محمد » وقال ﷺ « من حلف بغير الله فقد كفر » رواه الحاكم بهذا اللفظ وقال ﷺ « ثنتان في امتي هما بهم كفر : الطعن في الانساب والنياحة على الميت » ونظائر ذلك كثيرة. والجواب ان اهل السنة متفقون كلهم على ان مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملة بالكلية كما قالت الخوارج إذلو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً على كل حال ولا يقبل عفو ولي القصاص ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الاسلام ومتفقون على انه لا يخرج من الايمان والاسلام، ولا يدخل في الكفر ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة فان قولهم باطل ايضاً اذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ الى أن قال ﴿ فمن عفي له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف ﴾ فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا وجعله أخا لولي القصاص. والمراد اخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ﴾ الى ان قال ﴿ انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم ﴾ ونصوص الكتاب والسنة والاجماع تدل على ان الزاني والسارق والقاذف لا يقتل بل يقام عليه الحد فدل على انه ليس بمرتد. وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « من كانت عنده لاخيه اليوم مظلمة من عرض او شيء فليتحلله منه اليوم قبل ان لا يكون درهم ولا دينار ان كان له عمل صالح اخذ منه بقدر مظلمته وان لم يكن

له حسنات اخذ من سيئآت صاحبه فطرحت عليه ثم القي في النار » اخرجاه في الصحيحين فثبت ان الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « ما تعدون المفلس فيكم قالوا المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار قال المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات امثال الجبال فيأتي وقد شتم هذا واخذ مال هذا وسفك دم هذا وقذف هذا وضرب هذا فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته فاذا فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه اخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » رواه مسلم وقد قال تعالى ﴿ ان الحسنات يذهبن السيئآت ﴾ فدل ذلك على انه في حال اساءته يعمل حسنات تمحوا سيئآته وهذا مبسوط في موضعه والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة فانهم وافقوهم على ان مرتكب الكبيرة مخلد في النار قالت الخوارج نسميه كافرا وقالت المعتزلة نسميه فاسقا فالخلاف بينهم لفظي فقط واهل السنة ايضا متفق على انه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب كما وردت به النصوص لا كما يقوله المرجئة من انه لا يضر مع الايمان ذنب ولا ينفع مع الكفر طاعة واذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة تبين لك فساد القولين ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى انك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الاخرى . ثم بعد هذا الاتفاق تبين ان اهل السنة اختلفوا خلافا لفظيا لا يترتب عليه فساد وهو انه هل يكون الكفر على مراتب كفرا دون كفر كما اختلفوا هل يكون الايمان على مراتب ايمانا دون ايمان . وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى الايمان

هل هو قول وعمل يزيد وينقص ام لا بعد اتفاقهم على ان من سماه الله تعالى ورسوله كافرا نسميه كافرا اذ من الممتنع ان يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما انزل الله كافرا ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافرا ولا نطلق عليهما اسم الكفر ولكن من قال ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص قال هو كفر عملي لا اعتقادي والكفر عنده على مراتب كفر دون كفر كالايمان عنده. ومن قال ان الايمان هو التصديق ولا يدخل العمل في مسمى الايمان والكفر هو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان قال هو كفر مجازي غير حقيقي اذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة وكذلك يقول في تسمية بعض الاعمال بالايمان كقوله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم ﴾ اي صلاتكم الى بيت المقدس انها سميت ايمانا مجازا لتوقف صحتها على الايمان او لدلالتها على الايمان اذ هي دالة على كون مؤديها مؤمنا. ولهذا يحكم باسلام الكافر اذا صلى كصلاتنا فليس بين فقهاء الملة نزاع في اصحاب الذنوب اذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه انهم من اهل الوعيد ولكن الاقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار كالخوارج والمعتزلة ولكن اردأ ما في ذلك التعصب على من يضللهم والزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه والتشنيع عليه. واذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين وان يجادلوا بالتي هي احسن فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى ﴾ الآية وهنا امر يجب ان يتفطن له وهو ان الحكم بغير ما انزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة وقد يكون معصية كبيرة او

صغيرة ويكون كفرا أما مجازيا واما كفرا اصغر على القولين المذكورين وذلك
بحسب حال الحاكم فانه ان عتقد ان الحكم بما انزل الله غير واجب وانه مخير
فيه او استهان به مع تيقنه انه حكم فهذا كفر اكبر وان اعتقد وجوب الحكم
بما انزل الله وعلمه في هذه الواقعة وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة
فهذا عاص ويسمى كافرا كفرا مجازيا او كفرا اصغر وان جهل حكم الله
فيها مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم واخطأ فهذا مخطيء
له اجر على اجتهاده وخطأه مغفور. واراد الشيخ رحمه الله بقوله ولا
نقول لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله مخالفة للمرجئة وشبهتهم كانت
قد وقعت لبعض الاولين فاتفق الصحابة على قتلهم أن لم يتوبوا من ذلك
فان قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى
﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا
وعملوا الصالحات ﴾ الآية فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه
اتفق هو وعلي بن ابي طالب وسائر الصحابة على انهم ان اعترفوا بالتحريم
جلدوا وان اصروا على استحلالها قتلوا . وقال عمر لقدامة اخطأت استك
الحفرة اما انك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر وذلك
ان هذه الآية نزلت بسبب ان الله سبحانه لما حرم الخمر وكان تحريمها بعد
وقعة احد قال بعض الصحابة فكيف باصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر
فانزل الله هذه الآية بين فيها ان من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا
جناح عليه اذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين كما كان من امر استقبال
بيت المقدس ثم ان أولئك الذين فعلوا ذلك يذمون على انهم اخطأوا وايسوا

من التوبة فكتب عمر الى قدامة يقول له . ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ ما ادرى اي ذنبك اعظم استحلالك المحرم اولا ام يأسك من رحمة الله ثانيا وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين ائمة الاسلام قوله ﴿ ونرجوا للمحسنين من المؤمنين ان يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم ولا نشهد لهم بالجنة ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم ﴾ وعلى المؤمن ان يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره قال تعالى ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ واياي فاتقون ـ واياي فارهبون ـ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ ومدح اهل الخوف فقال تعالى ﴿ ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ الى قوله ﴿أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون﴾ وفي المسند والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت قلت يارسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق قال «لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ان لا يقبل منه» قال الحسن رضي الله عنه عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا ان ترد عليهم ان المؤمن جمع احسانا وخشية والمنافق جمع اساءة وامنا انتهى وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ . فتأمل كيف جعل رجاءهم مع ايمانهم بهذه الطاعات فالرجاء انما يكون مع الاتيان بالاسباب التى اقتضتها

حكمة الله تعالى شرعه وقدرته وثوابه وكرامته ولو ان رجلا له ارض يؤمل
ان يعود عليه من مغلها ما ينفعه فاهملها ولم يحرثها ولم يبذرها ورجا انه يأتي
من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الارض لعده الناس من اسفه
السفهاء وكذا لو رجا وحسن ظنه ان يجيئه ولد من غير جماع او يصير اعلم اهل
زمانه من غير طلب العلم وحرص تام وامتثال ذلك فكذلك من حسن ظنه
وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب
الى الله تعالى بامتثال اوامره واجتناب نواهيه . ومما ينبغي ان يعلم ان من رجا
شيئا استلزم رجاؤه امورا احدها محبة ما يرجوه. الثاني خوفه من فواته. الثالث
سعيه في تحصيله بحسب الامكان . واما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من
باب الاماني والرجاء شيء والاماني شيء آخر فكل راج خائف والسائر على
الطريق اذا خاف اسرع السير مخافة الفوات . وقال تعالى ﴿ ان الله لا يغفر
ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فالمشرك لا نرجى له المغفرة لان
الله نفي عنه المغفرة وما سواه من الذنوب في مشيئة الله ان شاء الله غفر له
وان شاء عذبه . وفي معجم الطبراني الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين
ديوان لا يغفر الله منه شيئا وهو الشرك بالله ثم قرأ ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك
به ﴾ وديوان لا يترك الله منه شيئاً وهو مظالم العباد بعضهم بعضاً وديوان
لا يعبأ الله به وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه وقد اختلفت عبارات العلماء
في الفرق بين الكبائر والصغائر وستأتي الاشارة الى ذلك عند قول الشيخ
رحمه الله وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون . ولكن ثم أمر
ينبغي التفطن له وهو أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف

والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر وهذا أمر مرجعه الى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل والانسان يعرف ذلك من نفسه وغيره وايضا فانه قد يعفى لصاحب الاحسان العظيم ما لا يعفى لغيره فان فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة اسباب عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة . (السبب الاول) التوبة قال تعالى ﴿ الا من تاب ـ الا الذين تابوا ﴾ والتوبة النصوح وهي الخالصة لا يختص بها ذنب دون ذنب لكن هل يتوقف صحتها على ان تكون عامة حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل والصحيح انها تقبل وهل يجب الاسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وان لم يتب منها ام لابد مع الاسلام من التوبة من غير الشرك حتى لو اسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر مثلا هل يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر ام لابد ان يتوب من ذلك الذنب مع اسلامه او يتوب توبة عامة من كل ذنب وهذا هو الاصح انه لابد من التوبة مع الاسلام وكون التوبة سببا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الامة وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب الا التوبة قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ﴾ وهذا لمن تاب ولهذا قال لا تقنطوا . وقال بعدها ﴿ وانيبوا الى ربكم ﴾ الاية (السبب الثاني) الاستغفار قال تعالى ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ لكن الاستغفار تارة يذكر وحده وتارة يقرن بالتوبة فان ذكر وحده دخلت معه التوبة كما

اذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار فالتوبة تتضمن الاستغفار والاستغفار يتضمن التوبة وكل واحد منهما يدخل في مسمي الآخر عند الاطلاق واما عند اقتران احدى اللفظتين بالاخرى فالاستغفار طلب وقاية شر مامضى والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر مايخافه في المستقبل من سيئات اعماله ونظير هذا الفقير والمسكين اذا ذكر احد اللفظين شمل الآخر واذا ذكرا معا كان لكل منهما معنى قال تعالى ﴿ فاطعام عشرة مساكين - فاطعام ستين مسكينا - وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ لا خلاف ان كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما افرد شمل المقل والمعدم ولما قرن احدهما بالآخر في قوله تعالى ﴿ انما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية كان المراد باحدهما المقل والآخر المعدم على خلاف فيه وكذلك الاثم والعدوان والبر والتقوى والفسوق والعصيان ويقرب من هذا المعنى الكفر والنفاق فان الكفر أعم فاذا ذكر الكفر شمل النفاق وان ذكرا معا كان لكل منهما معنى وكذلك الايمان والاسلام على ما يأتي الكلام فيه ان شاء الله تعالى (السبب الثالث) الحسنات فأن الحسنة بعشر امثالها والسيئة بمثلها فالويل لمن غلبت آحاده عشراته . وقال تعالى ﴿ ان الحسنات يذهبن السيئات ﴾ وقال ﷺ « واتبع السيئة الحسنة تمحها » . (السبب الرابع) المصائب الدنيوية قال ﷺ « ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها الا كفر بها من خطاياه » وفي المسند انه لما نزلت قوله تعالى ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾ قال ابو بكر يا رسول الله نزلت قاصمة الظهر وأينا لم يعمل سوءا فقال « يا ابا بكر الست تنصب الست تحزن الست

يصيبك اللاوى فذلك ما تجزون به » فالمصائب نفسها مكفرة وبالصبر عليها يثاب العبد وبالسخط يأثم والصبر والسخط امر آخر غير المصيبة فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه ويكفر ذنبه بها وانما يثاب المرء ويأثم على فعله والصبر والسخط من فعله وان كان الاجر قد يحصل بغير عمل من العبد بل هدية من الغير او فضل من الله من غير سبب قال تعالى ﴿ ويؤت من لدنه اجرا عظيما ﴾ فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم وكثيرا مايفهم من الاجر غفران الذنوب وليس ذلك مدلوله وانما يكون من لازمه (السبب الخامس) عذاب القبر . وسيأتي الكلام عليه ان شاء الله تعالى (السبب السادس) دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات (السبب السابع) ما يهدى اليه بعد الموت من ثواب صدقة او قراءة او حج ونحو ذلك وسيأتي الكلام على ذلك ان شاء الله تعالى (السبب الثامن) اهوال يوم القيامة وشدائده (السبب التاسع) ما ثبت في الصحيحين ان المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فاذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة . (السبب العاشر) شفاعة الشافعين كما تقدم عند ذكر الشفاعة واقسامها . (السبب الحادي عشر) عفو ارحم الراحمين من غير شفاعة كما قال تعالى ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ فان كان ممن لم يشأ الله ان يغفر له لعظم جرمه فلابد من دخوله الى الكير لتخلص طيب ايمانه من خبث معاصيه فلا يبقى في النار من في قلبه ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان بل من قال : لا إله الا الله كما تقدم من حديث انس رضي الله عنه واذا كان الامر كذلك امتنع القطع لاحد معين من الامة غير من شهد له الرسول ﷺ بالجنة ولكن نرجو

للمحسنين ونخاف عليهم . قوله ﴿ والامن واليأس سبيلان عن ملة الاسلام وسبيل الحق بينهما لاهل القبلة ﴾ يجب ان يكون العبد خائفا ، راجيا فان الخوف المحمود الصادق ما حال بين صاحبه وبين محارم الله فاذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط . والرجاء المحمود رجاء رجل عمل لطاعة الله على نور من الله فهو راج لثوابه اورجل اذنب ذنبا ثم تاب منه الى الله فهو راج لمغفرته قال الله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ اما اذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب قال ابو علي الروذبادي رحمه الله الخوف والرجاء كجناحي الطائر اذا استويا استوى الطير وتم طيرانه واذا نقص احدهما وقع فيه النقص واذا ذهبا صار الطائر في حد الموت وقد مدح الله اهل الخوف والرجاء بقوله ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ الآية وقال ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعاً ﴾ الآية فالرجاء يستلزم الخوف ولو لا ذلك لكان امناً والخوف يستلزم الرجاء ولو لا ذلك لكان قنوطاً ويأساً وكل احد اذا خفته هربت منه إلا الله تعالى فانك اذا خفته هربت اليه فالخائف هارب من ربه الى ربه . وقال صاحب منازل السائرين رحمه الله الرجاء اضعف منازل المريد وفي كلامه نظر بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من اشرف منازل المريد وفي الصحيح عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث « لا يموتن

أحدكم الا وهو يحسن الظن بربه » ولهذا قيل : ان العبد ينبغي ان يكون رجاؤه في مرضه ارجح من خوفه بخلاف زمن الصحة فانه يكون خوفه ارجح من رجائه وقال بعضهم من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجي ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ولقد احسن محمود الوراق في قوله

لو قد رأيت الصغير * من عمل الخير ثوابا عجبت من كبره
أو قد رأيت الحقير من عمل الشر * جزءا أشفقت من حذره

قوله ﴿ ولا يخرج العبد من الايمان الا بجحود ما ادخله فيه ﴾ يشير الشيخ الى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الايمان بارتكاب الكبيرة وفيه تقدير لما قال اولا لا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب ما لم يستحله وتقدم الكلام على هذا المعنى قوله ﴿ والايمان هو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق والايمان واحد وأهله في أصله سواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الاولى ﴾ اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الايمان اختلافا كثيرا فذهب مالك والشافعي واحمد والاوزاعي واسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين الى انه تصديق بالجنان واقرار باللسان وعمل بالاركان وذهب كثير من اصحابنا الى ماذكره الطحاوي انه الاقرار باللسان والتصديق بالجنان ومنهم من يقول ان الاقرار باللسان ركن زائد ليس باصلي والى هذا ذهب ابو منصور الماتريدى رحمه الله ويروى عن ابي حنيفة رضي الله عنه وذهب الكرامية الى ان الايمان هو الاقرار

باللسان فقط فالمنافقون عنده مؤمنون كاملو الايمان لكن يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به وقولهم ظاهر الفساد وذهب الجهم بن صفوان وأبو الحسين الصالحي احد رؤساء القدرية الى ان الايمان هو المعرفة بالقلب وهذا القول اظهر فسادا مما قبله فان لازمه ان فرعون وقومه كانوا مؤمنين فانهم عرفوا صدق موسي وهارون ولم يؤمنوا بهما ولهذا قال موسى لفرعون ﴿ لقد علمت ما انزل هؤلاء الارب السموات والارض بصائر ﴾ وقال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ واهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون ابناءهم ولم يكونوا مؤمنين به بل كافرين به معادين له وكذلك ابو طالب عنده يكون مؤمنا فانه قال :

ولقد علمت بأن دين محمد * من خير اديان البرية دينا

لو لا الملامة او حذار مسبة * لوجدتني سمحا بذاك مبينا

بل ابليس يكون عند الجهم مؤ منا كامل الايمان فانه لم يجهل ربه بل هو عارف به ﴿ قال رب فانظرني الى يوم يبعثون - قال رب بما اغويتني - قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين ﴾ والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى ولا احد أجهل منه بربه فانه جعله الوجود المطلق وسلب عنه جميع صفاته ولا جهل اكبر من هذا فيكون كافرا بشهادته على نفسه وبين هذه المذاهب مذاهب أخر بتفاصيل وقيود اعرضت عن ذكرها اختصارا ذكر هذه المذاهب ابو المعين النسفي في تبصرة الادلة وغيره . وحاصل الكل يرجع الى ان الايمان اما ان يكون مايقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح كما ذهب اليه جمهور

السلف من الائمة الثلاثة وغيرهم كما تقدم او بالقلب واللسان دون الجوارح كما ذكره الطحاوي عن ابي حنيفة واصحابه رحمهم الله او باللسان وحده كما تقدم ذكره عن الكرامية اوبالقلب وحده وهواما المعرفة كما قاله الجهم اوالتصديق كما قاله ابو منصور الماتريدي وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر والاختلاف الذي بين ابي حنيفة والائمة الباقين من اهل السنة اختلاف صوري فان كون اعمال الجوارح لازمة لايمان القلب اوجزءا من الايمان مع الاتفاق على ان مرتكب الكبيرة لايخرج من الايمان بل هو في مشيئة الله ان شاء عذبه وان شاء عفى عنه نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا الى هذا الاصل ادلة اخرى . والا فقد نفى النبي ﷺ الايمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب ولم يوجب ذلك زوال اسم الايمان عنهم بالكلية اتفاقا ولاخلاف بين اهل السنة ان الله تعالى اراد من العباد القول والعمل واعني بالقول التصديق بالقلب والاقرار باللسان وهذا الذي يعني به عند اطلاق قولهم الايمان قول وعمل لكن هذا المطلوب من العباد هل يشمله اسم الايمان ام الايمان احدهما وهو القول وحده والعمل مغاير له لايشمله اسم الايمان عند افراده بالذكر وان اطلق عليهما كان مجازا هذا محل النزاع . وقد اجمعوا على انه لو صدق بقلبه واقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه انه عاص لله ورسوله مستحق الوعيد لكن فيمن يقول ان الاعمال غير داخلة في مسمى الايمان من قال لما كان الايمان شيئا واحدا فايمان[1] كايمان ابي بكر الصديق وعمر بل قال كايمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل

---

(١) لعله فايماني

وميكائيل وهذا غلو منه فان الكفر مع الايمان كالعمى مع البصر ولاشك ان البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه فمنهم الاخفش والاعشى ويرى الخط الثخين دون الدقيق الا بزجاجة ونحوها ولا يرى عن قرب زائد على العادة واخر بضده ولهذا والله اعلم . قال الشيخ رحمه الله واهله في اصله سواء يشير الى ان التساوي انما هو في اصله ولا يلزم منه التساوي من كل وجه بل تفاوت نور لا إله الا الله في قلوب اهلها لا يحصيها الا الله تعالى . فمن الناس من نور لا إله الا الله في قلبه كالشمس ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري وآخر كالمشعل العظيم وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف . ولهذا تظهر الانوار يوم القيامة بايمانهم وبين ايديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور الايمان والتوحيد علما وعملا وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم احرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته بحيث انه ربما وصل الى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبا الا احرقه وهذه حال الصادق في توحيده فسماء ايمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق ومن عرف هذا عرف ان قول النبي ﷺ « ان الله حرم على النار من قال لا إله الا الله يبتغي بذلك وجه الله » وقوله « لا يدخل النار من قال لا إله الا الله » وما جاء من هذا النوع من الاحاديث التي اشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم منسوخة وظنها بعضهم قبل ورود الاوامر والنواهي وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار واول بعضهم الدخول بالخلود ونحو ذلك والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط فأن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الاسلام فان المنافقين يقولونها بالسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك

الاسفل من النار فأن الاعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وانما تتفاضل بتفاضل مافي القلوب وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها . ومعلوم ان كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار . وتأمل ماقام بقلب قاتل المائة من حقائق الايمان التى لم تشغله عند السياق عن السير الى القرية وحملته وهو في تلك الحال ان جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت . وتأمل ما قام بقلب البغي من الايمان حيث نزعت موقها وسقت الكلب من الركية فغفر لها وهكذا العقل ايضا فانه يقبل التفاضل واهله في اصله سواء مستوون في انهم عقلاء غير مجانين وبعضهم اعقل من بعض وكذلك الأيجاب والتحريم فيكون ايجاب دون ايجاب وتحريم دون تحريم هذا هو الصحيح وان كان بعضهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب . واما زيادة الايمان من جهة الاجمال والتفصيل فمعلوم انه لا يجب في اول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله . ولا يجب على كل احد من الايمان المفصل مما اخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره كما في حق النجاشي وامثاله . واما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب والجوارح فهو اكمل من التصديق الذي لا يستلزمه فالعلم الذي يعمل به صاحبه اكمل من العلم الذي لا يعمل به فاذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم . ولهذا قال النبي ﷺ « ليس المخبر كالمعاين » وموسى عليه السلام لما اخبر ان قومه عبدوا العجل لم يلق الالواح فلما رآهم قد عبدوه القاها وليس ذلك لشك موسى في خبر الله لكن المخبر وان جزم بصدق المخبر فقد لا يتصور المخبر به في نفسه كما

يتصوره اذا عاينه » كما قال ابراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه
﴿ رب ارني كيف تحيي الموتي قال اولم تؤمن قال بلى ولـكن ليطمئن قلبي ﴾
وايضا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلا يجب عليه من الايمان ان يعلم ما
امر به ويؤمن بأن الله اوجب عليه مالا يجب على غيره الا مجملا وهذا يجب
عليه فيه الايمان المفصل . وكذلك الرجل اول مايسلم انما يجب عليه الاقرار
المجمل ثم اذا جاءوقت الصلاة كان عليه ان يؤمن بوجوبها ويؤديها فلم يتساو
الناس فيما امروا به من الايمان . ولا شك ان من قام بقلبه التصديق الجازم
الذي لايقوى على معارضته شهوة ولاشبهة لاتقع معه معصية ولولا ما حصل
له من الشهوة والشبهة او احداهما لما عصى بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما
يواقعه من المعصية فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصي . ولهذا والله اعلم
قال ﷺ « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » الحديث فهو حين يزني
يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا وان بقي اصل التصديق في قلبه ثم يعاوده
فان المتقين كما وصفهم الله بقوله ﴿ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان
تذكروا فاذاهم مبصرون ﴾ قال ليث عن مجاهد هو الرجل يهم بالذنب فيذكر
الله فيدعه. والشهوة والغضب مبدأ السيئات فاذا ابصر رجع . ثم قال تعالى
﴿ واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴾ اي واخوان الشياطين تمدهم
الشياطين في الغي ثم لا يقصرون . قال ابن عباس لا الأنس تقصر عن السيئات
ولا الشياطين تمسك عنهم فاذا لم يبصر يبقي قلبه في عمى والشيطان يمده في
غيه وان كان التصديق في قلبه لم يكذب فذلك النور والابصار وتلك الخشية
والخوف تخرج من قلبه وهذا كما ان الانسان يغمض عينه فلا يرى وان لم

يكن اعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق وان لم يكن اعمى كعمى الكافر وجاء هذا المعنى مرفوعا الى النبي ﷺ انه قال « اذا زنا العبد نزع منه الايمان فاذا تاب اعيد اليه » واذا كان النزاع في هذه المسئلة بين اهل السنة نزاعا لفظيا فلا محذور فيه سوى ما يحصل من عدوان احدى الطائفتين على الاخرى والافتراق بسبب ذلك وان يصير ذلك ذريعة الى بدع اهل الكلام المذموم من اهل الارجاء ونحوهم والى ظهور الفسق والمعاصي بأن يقول انا مؤمن مسلم حقا كامل الايمان والاسلام ولي من اولياء الله فلا يبالي بما يكون منه من المعاصي وبهذا المعنى قالت المرجئة: لا يضر مع الايمان ذنب لمن عمله وهذا باطل قطعا . فالامام ابو حنيفة رضي الله عنه نظر الى حقيقة الايمان لغة مع ادلة من كلام الشارع . وبقية الائمة رحمهم الله نظروا الى حقيقته في عرف الشارع فان الشارع ضم الى التصديق اوصافا وشرائط كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك فمن ادلة الاصحاب لأبي حنيفة رحمه الله أن الايمان في اللغة عبارة عن التصديق قال تعالى خبرا عن اخوة يوسف ﴿ وما انت بمؤمن لنا ﴾ اي بمصدق لنا ومنهم من ادعى اجماع اهل اللغة على ذلك ثم هذا المعنى اللغوي وهو التصديق بالقلب هو الواجب على العبد حقا لله وهو ان يصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله فمن صدق الرسول بما جاء به من عند الله فهو مؤمن فيما بينه وبين الله تعالى والاقرار بشرط اجراء احكام الاسلام في الدنيا هذا على احد القولين كما تقدم ولانه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود وهما يكونان بالقلب فكذا ما يضادهما وقوله (الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان) يدل على ان القلب هو موضع الايمان لا اللسان ولانه لو كان مركبا من قول وعمل

لزال كله بزوال جزئه ولان العمل قد عطف على الايمان والعطف يقتضي المغايرة قال تعالى ﴿ آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فى مواضع من القرآن . وقد اعترض على استدلالهم بأن الايمان في اللغة عبارة عن التصديق بمنع الترادف بين التصديق والايمان فهب ان الامر يصح في موضع فلم قلتم انه يوجب الترادف مطلقا وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الاسلام والايمان.

ومما يدل على عدم الترادف انه يقال للمخبر اذا صدق صدقه ومنه لا يقال: آمنه ولا آمن به بل يقال آمن له كما قال تعالى ﴿ فآمن له لوط ـ فما آمن لموسى الا ذرية من قومه ﴾ . وقال تعالى ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ ففرق بين المعدى بالباء والمعدى باللام فالاول يقال للمخبر به والثاني للمخبر ولا يرد كونه يجوز ان يقال : ما انت بمصدق لنا لان دخول اللام لتقوية العامل كما اذا تقدم المعمول او كان العامل اسم فاعل او مصدرا على ما عرف في موضعه فالحاصل انه لا يقال : قد آمنته ولا صدقت له انما يقال : آمنت له كما يقال اقررت له فكان تفسيره بأقررت اقرب من تفسيره بصدقت مع الفرق بينهما ولان الفرق بينهما ثابت في المعنى فان كل مخبر عن شاهد اوغيب يقال له في اللغة صدقت كما يقال له كذبت فمن قال : السماء فوقنا قيل له صدقت.

واما لفظ الايمان فلا يستعمل الا في الخبر عن الغائب فيقال لمن قال : طلعت عليه الشمس صدقناه ولا يقال امنا له فان فيه اصل معنى الامن والايمان انما يكون في الخبر عن الغائب فالامر الغائب هو الذي يؤتمن[1] عليه المخبر. ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له الا في هذا النوع ولانه لم يقابل

(١) كذا بالاصل ولعله يؤمن عليه إلخ

لفظ الايمان قط بالتكذيب كما يقابل لفظ التصديق وانما يقابل بالكفر والكفر لايختص بالتكذيب بل لوقال اناعلم انك صادق ولكن لااتبعك بل اعاديك وابغضك واخالفك لكان كفرا اعظم فعلم ان الايمان ليس التصديق فقط ولاالكفر التكذيب فقط بل اذا كان الكفر يكون تكذيبا ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب فكذلك الايمان يكون تصديقا وموافقة وموالاة وانقيادا ولايكفي مجرد التصديق فيكون الاسلام جزء مسمى الايمان ولوسلم الترادف فالتصديق يكون بالافعال ايضا كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « العينان تزنيان وزناهما النظر والاذن تزني وزناها السمع » الى ان قال « والفرج يصدق ذلك ويكذبه » وقال الحسن البصري رحمه الله: ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ولكنه ما وقر في الصدور وصدقته الاعمال. ولو كان تصديقا فهو تصديق مخصوص كما في الصلاة ونحوها كما تقدم وليس هذا نقلا للفظ ولاتغيرا له فان الله لم يأمر بايمان مطلق بل بايمان خاص وصفه وبينه فالتصديق الذي هو الايمان ادنى احواله ان يكون نوعا من التصديق العام فلايكون مطابقا له في العموم والخصوص من غير تغير اللسان ولاقلبه بل يكون الايمان في كلام الشارع مؤلفا من العام والخاص كالانسان الموصوف بانه حيوان ناطق. ولان التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من اعمال القلب والجوارح. فان هذه لوازم الايمان التام وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم ونقول ان هذه لوازم تدخل في مسمى اللفظ تارة وتخرج عنه اخرى اوان اللفظ باق على معناه في اللغة ولكن الشارع زاد فيه احكاما وان يكون الشارع استعمله في معناه المجازي فهو حقيقة شرعية مجاز لغوى او ان يكون قد نقله

الشارع . وهذه الاقوال لمن سلك هذا الطريق وقالوا ان الرسول قد وافقنا
على معاني الايمان وعلمنا من مراده علما ضروريا ان من قال انه صدق ولم
يتكلم بلسانه بالايمان مع قدرته على ذلك ولاصلى ولاصام ولا احب الله ورسوله
ولاخاف الله بل كان مبغضا للرسول معاديا له يقاتله ان هذا ليس بمؤمن كما
علمنا انه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الاخلاص والعمل
بمقتضاها . فقد قال ﷺ « الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها قول لا إله
الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق » وقال ايضا ﷺ « الحياء شعبة
من الايمان » وقال ايضا ﷺ « اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا » وقال
ايضا ﷺ « البذاذة من الايمان » فاذا كان الايمان اصلا له شعب متعددة
وكل شعبة منها تسمى ايمانا فالصلاة من الايمان . وكذلك الزكاة والصوم
والحج والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والانابة اليه حتى
تنتهي هذه الشعب الى اماطة الاذى عن الطريق فانه من شعب الايمان وهذه
الشعب منها ما يزول الايمان بزوالها اجماعا كشعبة الشهادتين ومنها مالا يزول
بزوالها اجماعا كترك اماطة الاذى عن الطريق وبينهما شعب متفاوتة تفاوتا
عظيما منها مايقرب من شعبة الشهادة ومنها مايقرب من شعبة اماطة الاذى
وكما ان شعب الايمان ايمان فكذا شعب الكفر كفر فالحكم بما انزل الله
مثلا من شعب الايمان والحكم بغير ما انزل الله كفر . وقد قال ﷺ « من
رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه »
وذلك اضعف الايمان » رواه مسلم وفي لفظ ليس وراء ذلك من الايمان
حبة خردل . وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ انه قال « من احب لله

وابغض لله واعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان . ومعناه والله اعلم ان الحب والبغض اصل حركة القلب وبذل المال ومنعه هو كمال ذلك فان المال آخر المتعلقات بالنفس والبدن متوسط بين القلب والمال فمن كان اول امره وآخره كله لله كان الله الهه في كل شيء فلم يكن فيه شيء من الشرك وهو ارادة غير الله وقصده ورجاؤه فيكون مستكملا الايمان الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الايمان وضعفه بحسب العمل . وسيأتي في كلام الشيخ رحمه الله في شأن الصحابة وحبهم دين وايمان واحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان فسمى حب الصحابة ايمانا وبغضهم كفرا وما اعجب ما اجاب به ابو المعين النسفي وغيره عن استدلالهم بحديث شعب الايمان المذكور وهو ان الراوي قال بضع وستون او بضع وسبعون فقد شهد الراوي بفعله نفسه حيث شك فقال بضع وستون او بضع وسبعون ولا يظن برسول الله ﷺ الشك في ذلك وان هذا الحديث مخالف للكتاب فطعن فيه بغفلة الراوي ومخالفته الكتاب فانظر الى هذا الطعن ما اعجبه فان تردد الراوي بين الستين والسبعين لا يلزم منه عدم ضبطه مع ان البخاري رحمه الله انما رواه بضع وستون من غير شك . واما الطعن بمخالفته الكتاب فاين في الكتاب ما يدل على خلافه وانما فيه ما يدل على وفاقه وانما هذا الطعن من ثمرة شؤم التقليد والتعصب . وقالوا ايضا وهنا اصل آخر وهو ان القول قسمان قول القلب وهو الاعتقاد وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الاسلام والعمل قسمان عمل القلب وهو نيته واخلاصه وعمل الجوارح فاذا زالت هذه الاربعة زال الايمان بكماله واذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الآخر فان تصديق القلب شرط في اعتبارها وكونها نافعة واذا بقي تصديق القلب وزال الباقي فهذا

موضع المعركة ولا شك انه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب
اذ لو اطاع القلب وانقاد لاطاعت الجوارح وانقادت ويلزم من عدم طاعة القلب
وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة قال ﷺ « ان في الجسد مضغة اذا
صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد الا وهي القلب»
فمن صلح قلبه صلح جسده قطعا بخلاف العكس واما كونه يلزم من زوال جزئه
زوال كله فان اريد ان الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت فمسلم ولكن
لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الاجزاء فيزول عنه الكمال فقط والادلة
على زيادة الايمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية
كثيرة جدا منها قوله تعالى ﴿ واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا
ويزيد الله الذين اهتدوا هدى - ويزداد الذين آمنوا ايمانا - هو الذي انزل
السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم - الذين قال لهم الناس
ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾
وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها ان الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به فهل في قول
الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم زيادة مشروع وهل في انزال السكينة في قلوب
المؤمنين زيادة مشروع وانما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم
من الحديبية ليزدادوا طمانينة ويقينا ويزيد ذلك قوله تعالى ﴿ هم للكفر
يومئذ اقرب منهم للايمان﴾ وقال تعالى ﴿ واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول
ايكم زادته هذه ايمانا فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون
واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾
واما ما رواه الفقيه ابو الليث السمرقندي في تفسيره عند هذه الآية فقال

حدثنا محمد بن الفضل وابو القاسم الساباذي قالا حدثنا فارس بن مردويه قال حدثنا محمد بن الفضل بن العابد قال حدثنا يحيى بن عيسى قال حدثنا ابو مطيع عن حماد بن سلمة عن ابي المهزم عن ابي هريرة قال جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ فقالوا يارسول الله الايمان يزيد وينقص فقال لا « الايمان مكمل في القلب زيادته ونقصانه كفر » فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير رحمه الله عن هذا الحديث فاجاب بأن الاسناد من ابي الليث الى ابي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة واما ابو مطيع فهو الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ضعفه احمد بن حنبل ويحيى ابن معين وعمرو بن علي الفلاس والبخاري وابو داود والنسائي وابو حاتم الرازي وابو حاتم محمد بن حبان البستي والعقيلي وابن عدي والدارقطني وغيرهم واما ابو المهزم الراوي عن ابي هريرة فقد تصحف على الكاتب واسمه يزيد ابن سفيان فقد ضعفه ايضا غير واحد وتركه شعبة بن الحجاج وقال النسائي متروك وقد اتهمه شعبة بالوضع حيث قال لو اعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثا وقد وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين . وقال ﷺ « لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين » والمراد نفي الكمال ونظائره كثيرة وحديث شعب الايمان وحديث الشفاعة وانه يخرج من النار من في قلبه ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان فكيف يقال بعد هذا ان ايمان اهل السموات والارض سواء وانما التفاضل بينهم بمعان اخر غير الايمان وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير ايضا . منه قول ابي الدرداء رضي الله عنه من فقه العبد ان يتعاهد ايمانه وما نقص منه ومن فقه

العبد ان يعلم ايزداد هو ام ينقص وكان عمر رضي الله عنه يقول لاصحابه: هلموا نزداد إيمانا فيذكرون الله تعالى عز وجل . وكان أبو مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفقها . وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل اجلس بنا نؤمن ساعة ومثله عن عبدالله بن رواحة . وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه انه قال : ثلاث من كن فيه فقد استكمل الايمان انصاف من نفسه والانفاق من اقتار وبذل السلام العالم . ذكره البخاري رحمه الله في صحيحه وفي هذا القدر كفاية وبالله التوفيق . وأما كون عطف العمل على الايمان يقتضي المغايرة فلا يكون العمل داخلا في مسمى الايمان فلاشك ان الايمان تارة يذكر مطلقا عن العمل وعن الاسلام وتارة يقرن بالعمل الصالح وتارة يقرن بالاسلام فالمطلق مستلزم للاعمال . قال تعالى ﴿ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ الآية ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الآية ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما انزل اليه ما اتخذوهم أولياء ﴾ وقال ﷺ « لايزني الزاني حين يزني وهو مؤمن - الحديث لا تؤمنوا حتى تحابوا - من غشنا فليس منا - من حمل علينا السلاح فليس منا » وما ابعد قول من قال ان معنى قوله فليس منا اي فليس مثلنا فليت شعري فمن لم يغش يكون مثل النبي ﷺ واصحابه . وأما اذا عطف عليه العمل الصالح فاعلم ان عطف الشيء على الشيء يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذكر لهما والمغايرة على مراتب أعلاها أن يكونا متباينين ليس احدهما هو الآخر ولا جزءا منه ولا بينهما تلازم لقوله تعالى ﴿ خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور - وانزل

التوراة والانجيل ﴾ وهذا هو الغالب ويليه ان يكون بينهما تلازم كقوله تعالى ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون ـ واطيعوا الله واطيعوا الرسول ﴾ (الثالث) عطف بعض الشيء عليه كقوله تعالى ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى — من كان عدوا لله وملائكته وكتبه ورسله وجبريل وميكال — واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ﴾ وفي مثل هذا وجهان (احدهما) ان يكون داخلا في الاول فيكون مذكورا مرتين (والثاني) ان عطفه عليه يقتضي انه ليس داخلا فيه هنا وان كان داخلا فيه منفردا كما قيل مثل ذلك في لفظ الفقراء والمساكين ونحوهما تتنوع دلالته بالافراد والاقتران (الرابع) عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين كقوله تعالى ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط كقوله : * فألفى قولها كذبا ومينا *

ومن الناس من زعم ان في القرآن من ذلك قوله تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ والكلام على ذلك معروف في موضعه فاذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه. نظرنا في كلام الشارع كيف ورد فيه الايمان فوجدناه اذا اطلق يراد به ما يراد بلفظ البر والتقوى والدين ودين الاسلام ذكر في اسباب النزول انهم سألوا عن الايمان فانزل الله هذه الآية ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ الآيات . قال محمد ابن نصر حدثنا اسحق بن ابراهيم حدثنا عبد الله بن يزيد المقري والملائي قالا حدثنا المسعودي عن القاسم . قال جاء رجل الى ابي ذر فسأله عن الايمان فقرأ ﴿ ليس البر ان تولوا وجوهكم ﴾ الى آخر الآية فقال الرجل ليس عن

هذا سألتك فقال جاء رجل الى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فقرأ عليه الذي قرأت عليك فقال له الذي قلت لي فلما ابى ان يرضى قال ان المؤمن الذي اذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها واذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها وكذلك اجاب جماعة من السلف بهذا الجواب. وفي الصحيح قوله لوفد عبد القيس آمركم بالايمان بالله وحده اتدرون ما الايمان بالله شهادة ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وايقام الصلاة وايتاء الزكاة وان تؤدوا الخمس من المغنم. ومعلوم انه لم يرد ان هذه الاعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب لما قد اخبر في مواضع أنه لابد من ايمان القلب فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو الايمان وأي دليل على ان الاعمال داخلة في مسمى الايمان فوق هذا الدليل فانه فسر الايمان بالاعمال ولم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الاعمال لا تفيد مع الجحود. وفي المسند عن أنس عن النبي ﷺ انه قال الاسلام علانية والايمان في القلب. وفي هذا الحديث دليل على المغايرة بين الاسلام والايمان ويؤيده قوله وقد قال فيه النبي ﷺ «هذا جبرائيل اتاكم يعلمكم دينكم» فجعل الدين هو الاسلام والايمان والاحسان فتبين ان ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاثة مسلم ثم مؤمن ثم محسن والمراد بالايمان ما ذكر مع الاسلام قطعاً كما أنه أريد بالاحسان ما ذكر مع الايمان والاسلام لان الاحسان يكون مجردا عن الايمان هذا محال. وهذا كما قال تعالى ﴿ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله﴾. والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة بخلاف الظالم لنفسه فانه معرض للوعيد وهكذا من اتي بالاسلام الظاهر مع التصديق بالقلب لكن لم يقم بما يجب عليه من الايمان

الباطن فانه معرض للوعيد فأما الاحسان فهواعم من جهة نفسه وأخص من جهةاهله والايمان أعم من جهة نفسه واخص من جهة اهله من الاسلام فالاحسان يدخل فيه الايمان والايمان يدخل فيه الاسلام والمحسنون أخص من المؤمنين والمؤمنون أخص من المسلمين وهذا كالرسالة والنبوة فالنبوة داخلة في الرسالة والرسالة اعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها فكل رسول نبي ولا ينعكس.
وقد صار الناس في مسمى الاسلام على ثلاثة اقوال فطائفة جعلت الاسلام هو الكلمة وطائفة اجابوا بما اجاب به النبي ﷺ حين سئل عن الاسلام والايمان حيث فسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمان بالايمان بالاصول الخمسة. وطائفة جعلوا الاسلام مرادفا للايمان وجعلوا معنى قول الرسول ﷺ ان الاسلام شهادة ان لا اله الا الله واقام الصلاة » الحديث شعائر الاسلام والاصل عدم التقدير مع انهم قالوا: انا الايمان هو التصديق بالقلب ثم قالوا: الاسلام والايمان شيء واحد فيكون الاسلام هو التصديق وهذا لم يقله احد من اهل اللغة وانما هو الانقياد والطاعة وقد قال النبي ﷺ « اللهم لك اسلمت وبك آمنت » وفسر الاسلام بالاعمال الظاهرة والايمان بالايمان بالاصول الخمسة. فليس لنا اذا جمعنا بينهما ان نجيب بغير ما اجاب النبي ﷺ. واما اذا افرد اسم الايمان فانه يتضمن الاسلام واذا افرد الاسلام فقد يكون مع الاسلام مؤمنا بلا نزاع وهذا هو الواجب وهل يكون مسلما ولا يقال له مؤمن وقد تقدم الكلام فيه.
وكذلك هل يلتزم الاسلام الايمان فيه النزاع المذكور وانما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الايمان كما قال تعالى ﴿ ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وقال تعالى ﴿ سابقوا

الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ . وأما اسم الاسلام مجردا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه واخبر انه دينه الذي لايقبل من احد سواه وبه بعث النبيين ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ فالحاصل ان حالة اقتران الاسلام بالايمان غير حالة افراد احدهما عن الآخر فمثل الاسلام من الايمان كالشهادتين احداهما من الاخرى فشهادة الرساله غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الاعيان واحداهما مرتبطة بالاخرى في المعنى والحكم كشيء واحد . كذلك الاسلام والايمان لا ايمان لمن لا اسلام له ولا اسلام لمن لا ايمان اذ لايخلو المؤمن من اسلام به يتحقق ايمانه ولا يخلو المسلم من ايمان به يصح اسلامه . ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة اعني في الافراد والاقتران منها لفظ الكفر والنفاق فالكفر اذا ذكر مفردا في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون كقوله تعالى ﴿ ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ونظائره كثيرة . واذا قرن بينهما كان الكافر من اظهر كفره والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه وكذلك لفظ البر والتقوى . ولفظ الاثم والعدوان . ولفظ التوبة والاستغفار ولفظ الفقير والمسكين . وامثال ذلك ويشهد للفرق بين الاسلام والايمان قوله تعالى ﴿ قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ﴾ الخ السورة وقد اعترض على هذا بان معنى الآية ﴿ قولوا اسلمنا ﴾ انقدنا بظواهرنا فهم منافقون في الحقيقة وهذا احد قول المفسرين في هذه الآية الكريمة . وأجيب بالقول الآخر ورجح وهو انهم ليسوا بمؤمنين كاملي الايمان لانهم منافقون كما نفي

الايمان عن القاتل والزاني والسارق ومن لا ايمان له ويؤيد هذا سياق الآية فان السورة من اولها الى هنا في النهي عن المعاصي . واحكام بعض العصيات ونحو ذلك وليس فيها ذكر المنافقين . ثم قال بعد ذلك ﴿ وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من اعمالكم شيئا ﴾ ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة ثم قال ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الآية يعني والله اعلم ان المؤمنين الكاملي الايمان هم هؤلاء لا انتم بل انتم منتف عنكم الايمان الكامل . يؤيد هذا انه امرهم او اذن لهم ان يقولوا اسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك ولو كانوا منافقين لنفي عنهم الاسلام كما نفى عنهم الايمان ونهاهم ان يمنوا باسلامهم فاثبت لهم اسلاما ونهاهم ان يمنوا به على رسوله ولو لم يكن اسلاما صحيحا لقال : لم تسلموا بل انتم كاذبون كما كذبهم في قوله[1] نشهد انك لرسول الله والله اعلم بالصواب وينتفي بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف وتشنيع من الزم بان الاسلام لو كان هو الامور الظاهرة لكان ينبغي ان لا يقابل بذلك ولا يقبل ايمان المخلص وهذا ظاهر الفساد فانه قد تقدم تفسير الايمان والاسلام بالشهادتين وغيرهما وان حالة الاقتران غير حالة الانفراد فانظر الى كلمة الشهادة فان النبي ﷺ قال « امرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله » الحديث فلو قالوا : لا إله الا الله وانكروا الرسالة ما كانوا يستحقون العصمة بل لابد ان يقولوا لا إله الا الله قائمين بحقها ولا يكون قائما بلا إله الا الله حق القيام الا من صدق بالرسالة وكذا من شهد ان محمداً رسول الله لا يكون قائما بهذه الشهادة حق القيام الا من صدق هذا الرسول في كل ما جاء به

(١) كذا بالاصل ولعله قولهم

فتضمنت التوحيد واذا ضممت شهادة ان لا إله الا الله الى شهادة ان محمدا رسول الله كان المراد من شهادة ان لا إله الا الله اثبات التوحيد ومن شهادة ان محمد رسول الله اثبات الرسالة كذلك الاسلام والايمان اذا قرن احدهما بالآخر كما في قوله تعالى ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ وقوله ﷺ « اللهم لك اسلمت وبك آمنت » كان المراد من احدهما غير المراد من الآخر . وكما قال ﷺ « الاسلام علانية والايمان في القلب واذا انفرد احدهما شمل معنى الآخر وحكمه وكما في الفقير والمسكين ونظائره فان لفظي الفقير والمسكين اذا اجتمعا افترقا واذا افترقا اجتمعا فهل يقال في قوله تعالى ﴿ فاطعام عشرة مساكين ﴾ انه يعطى المقل دون المعدم او بالعكس . وكذا في قوله تعالى ﴿ وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ ويندفع ايضا تشنيع من قال ماحكم من آمن ولم يسلم او اسلم ولم يؤمن في الدنيا والآخرة فمن اثبت لاحدهما حكما ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله ويقال له في مقابلة تشنيعه انت تقول المسلم هو المؤمن والله تعالى يقول ﴿ ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ فجعلهما غيرين وقد قيل لرسول الله ﷺ « مالك عن فلان والله اني لاراه مؤمنا قال او مسلما » قالها ثلاثا فاثبت له الاسلام وتوقف في اسم الايمان فمن قال هما سواء كان مخالفا والواجب رد موارد النزاع الى الله ورسوله وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة ولا معارضة بحمد الله تعالى ولكن الشأن في التوفيق وبالله التوفيق . واما الاحتجاج بقوله تعالى ﴿ فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ على ترادف الاسلام والايمان فلا حجة فيه لان البيت المخرج كانوا مؤمنين بالاسلام

والايمان ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما والظاهر ان هذه المعارضات لم تثبت عن ابي حنيفة رحمه الله وانما هي من الاصحاب فان غالبها ساقط لا يرتضيه ابو حنيفة وقد حكى الطحاوي حكاية ابي حنيفة مع حماد بن زيد وان حماد بن زيد لما روى له حديث اي الاسلام افضل الى آخره قال له الا تراه يقول اي الاسلام افضل قال الايمان ثم جعل الهجرة والجهاد من الايمان فسكت ابو حنيفة فقال بعض اصحابه الا تجيبه يا ابا حنيفة قال بما اجيبه وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ . ومن ثمرات هذا الاختلاف مسئلة الاستثناء في الايمان وهو ان يقول اي الرجل انا مؤمن ان شاء الله والناس فيه على ثلاثة اقوال طرفان ووسط منهم من يوجبه ومنهم من يحرمه ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار وهذا اصح الاقوال امامن يوجبه فلهم ماخذان (احدهما) ان الايمان هو مامات الانسان عليه والانسان انما يكون عندالله مؤمنا او كافرا باعتبار الموافاة وما سبق في علمه انه يكون عليه وما قبل ذلك لا عبرة به قالوا والايمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرا اي ليس بايمان كالصلاة التي افسدها صاحبها قبل الكمال والصيام الذي يفطر صاحبه قبل الغروب وهذا مأخذ كثير من الكلابية وغيرهم وعند هؤلاء ان الله يحب في الازل من كان كافرا اذا علم منه انه يموت مؤمنا فالصحابة مازالوا محبوبين قبل اسلامهم وابليس ومن ارتد عن دينه مازال الله يبغضه وان كان لم يكفر بعد وليس هذا قول السلف ولا كان يقول بهذا من يستثنى من السلف في ايمانه وهو فاسد فان الله تعالى قال ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فأخبر انه يحبهم ان اتبعوا الرسول فاتباع الرسول شرط المحبة والمشروط يتأخر عن الشرط وغير

ذلك من الادلة . ثم صار الى هذا القول طائفة غلوا فيه حتى صار الرجل منهم يستثنى في الاعمال الصالحة يقول صليت ان شاء الله ونحو ذلك يعني القبول . ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء فيقول احدهم هذا ثوب ان شاء الله هذا حبل ان شاء الله فاذا قيل لهم هذا لاشك فيه يقولون لكن اذا شاء الله ان يغيره غيره (المأخذ الثاني) ان الايمان المطلق يتضمن فعل ما امر الله به عبده كله وترك ما نهاه عنه كله فاذا قال الرجل انا مؤمن بهذا الاعتبار فقد شهد لنفسه انه من الابرار المتقين القائمين بجميع ما امروا به وترك كل ما نهوا عنه فيكون من اولياء الله المقربين وهذا من تزكية الانسان لنفسه ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغي ان يشهد لنفسه بالجنة ان مات على هذه الحال وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون وان جوزوا ترك الاستثناء بمعنى آخر كما سنذكره ان شاء الله تعالى . ويحتجون ايضا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه كما قال تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ﴾ وقال ﷺ حين وقف على المقابر « وانا ان شاء الله بكم لاحقون » وقال ايضا « اني لارجو ان اكون اخشاكم لله » ونظائر هذا واما من يحرمه فكل من جعل الايمان شيئا واحدا فيقول انا اعلم اني مؤمن كما اعلم اني تكلمت بالشهادتين فقولي انا مؤمن كقولي انا مسلم . فمن استثنى في ايمانه فهو شاك فيه وسموا الذين يستثنون في ايمانهم الشكاكة . واجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين ﴾ بانه يعود الى الامن والخوف فاما الدخول فلا شك فيه وقيل لتدخلن جميعكم او بعضكم لانه علم ان بعضهم يموت وفي كلا الجوابين نظر فانهم وقعوا فيما فروا منه فاما الامن والخوف

فقد اخبرانهم يدخلون آمنين مع علمه بذلك فلا شك في الدخول ولا في الامن ولا في دخول الجميع أو البعض فان الله قد علم من يدخل فلا شك فيه ايضا فكان قول ان شاء الله هنا تحقيقا للدخول كما يقول الرجل فيما عزم على ان يفعله ولا محالة والله لافعلن كذا ان شاء الله لا يقولها لشك في ارادته وعزمه ولكن انما لا يحنث الحالف في مثل هذا اليمين لانه لا يجزم بحصول مراده . واجيب بجواب آخر لا بأس به وهو انه قال ذلك تعليما لنا كيف نستثني اذا اخبرنا عن مستقبل وفي كون هذا المعنى مرادا من النص ففيه نظر فانه ماسيق الكلام له الا ان يكون مرادا من اشارة النص . واجاب الزمخشري بجوابين آخرين باطلين وهما ان يكون الملك قد قاله فاثبت قرآنا او ان الرسول قاله فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله فيدخل في وعيد من قال ان هذا الا قول البشر نسأل الله العافية . واما من يجوز الاستثناء وتركه فهم اسعد بالدليل من الفريقين وخير الامور اوسطها فان اراد المستثني الشك في اصل ايمانه منع من الاستثناء وهذا مما لا خلاف فيه وان اراد انه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله ﴿ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون - اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون ﴾ فالاستثناء حينئذ جائز . وكذلك من استثنى واراد عدم علمه بالعاقبة وكذلك من استثنى تعليقا للأمر بمشيئة الله لا شكا في

ايمانه وهذا القول في القوة كما ترى . قوله وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق . يشير الشيخ رحمه الله بذلك الى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة القائلين بان الاخبار قسمان متواتر واحاد فالمتواتر وان كان قطعي السند لكنه غير قطعي الدلالة فان الادلة اللفظية لا تفيد اليقين . ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات قالوا والاحاد لا تفيد العلم ولا يحتج بها من جهة طريقها ولا من جهة متنها فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى واسمائه وصفاته وافعاله من جهة الرسول واحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية سموها قواطع عقلية وبراهين يقينية وهي في التحقيق كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور . ومن العجب انهم قدموها على نصوص الوحي وعزلوا لأجلها النصوص فاقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح الموافق للفطرة السليمة بل كل فريق من ارباب البدع يعرض النصوص على بدعته وما ظنه معقولا فما وافقه قال انه محكم وقبله واحتج به وما خالفه قال انه متشابه ثم رده وسمى رده تعويضا او حرفه وسمي تحريفه تأويلا . فلذلك اشتد انكار اهل السنة عليهم وطريق اهل السنة ان لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقوله ولا قول فلان كما اشار اليه الشيخ رحمه الله . وكما قال البخاري رحمه الله سمعت الحميدي

يقول كنا عند الشافعي رحمه الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة فقال قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا فقال رجل للشافعي ما تقول انت فقال سبحان الله تراني في كنيسة ، تراني في بيعة ، تراني على وسطي زنارا ، اقول لك قضي رسول الله ﷺ وأنت تقول ما تقول أنت ونظائر ذلك في كلام السلف كثير وقال تعالى ﴿وماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان يكون لهم الخيرة من امرهم﴾ . وخبر الواحد اذا تلقته الامة بالقبول عملا به وتصديقا له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الامة وهو احد قسمي المتواتر ولم يكن بين سلف الامة في ذلك نزاع كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه « انما الاعمال بالنيات » وخبر ابن عمر « نهى عن بيع الولاء وهبته » وخبر ابي هريرة « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها » وكقوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وامثال ذلك وهو نظير خبر الذى اتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت الى الكعبة فاستداروا اليها . وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله احادا ويرسل كتبه مع الاحاد ولم يكن المرسل اليهم يقولون لا نقبله لانه خبر واحد وقد قال تعالى ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ فلابد ان يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه لئلا يبطل حججه وبيانه ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته وبين حاله للناس . قال سفيان ابن عيينة : ماستر الله احدا يكذب في الحديث . وقال عبد الله ابن المبارك : لوهم رجل في البحران يكذب في الحديث لاصبح والناس يقولون فلان كذاب . وخبر الواحدوان كان يحتمل الصدق والكذب ولكن التفريق بين صحيح الاخبار وسقيمها لاينال احد الا بعدان يكون معظم اوقاته مشتغلا

بالحديث والبحث عن سيرة الرواة ليقف على احوالهم واقوالهم وشدة حذرهم من الطغيان والزلل وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا احدا في كلمة يتقولها على رسول الله ﷺ ولا فعلوا هم بانفسهم ذلك . وقد نقلوا هذا الدين الينا كما نقل اليهم فهم بزك الاسلام وعصابة الايمان وهم نقاد الاخبار وصيارفة الاحاديث فاذا وقف المرء على هذا من شأنهم وعرف حالهم وخبر صدقهم وورعهم وامانتهم ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه ومن له عقل ومعرفة يعلم ان اهل الحديث لهم العلم باحوال نبيهم وسيرته واخباره ماليس لغيرهم به شعور فضلا ان يكون معلوما لهم او مظنونا كما ان النحاة عندهم من اخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ماليس عند غيرهم وعند الاطباء من كلام بقراط وجالينوس ماليس عند غيرهم وكل ذي صنعة هو أخبر بها من غيره فلو سألت البقال عن امر العطر او العطار عن البز ونحو ذلك لعد ذلك جهلا كثيرا ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ مستندا لهم في رد الاحاديث الصحيحة فكل ماجاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم وماوضعته خواطرهم وأفكارهم ردوه بليس كمثله شيء تلبسا منهم وتلبيسا على من هو اعمى قلبا منهم وتحريفا لمعنى الآي عن مواضعه ففهموا من اخبار الصفات مالم يرده الله ولا رسوله ولا فهمه احد من أئمة الاسلام انه يقتضي اثباتها التمثيل بالمخلوقين ثم استدلوا على بطلان ذلك بليس كمثله شيء تحريفا للنصين ويصنفون الكتب ويقولون هذا اصول دين الاسلام الذي امر الله به وجاء من عنده ويقرأون كثيرا من القرآن ويفوضون معناه الى الله تعالى من غير تدبر لمعناه الذي بينه الرسول واخبر انه معناه الذي اراده الله . وقد ذم الله تعالى اهل الكتاب الاول على هذه الصفات الثلاث وقص

علينا ذلك من خبرهم لنعتبر ونزجر عن مثل طريقتهم . فقال تعالى ﴿ أفتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون ﴾ الى ان قال ﴿ ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أماني وان هم الا يظنون ﴾ والاماني التلاوة المجردة ثم قال تعالى ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما تكسبون ﴾ فذمهم على نسبة ما كتبوه الى الله وعلى اكتسابهم بذلك فكلا الوصفين ذميم ان ينسب الى الله ماليس عن عنده وان يأخذ بذلك عوضا من الدنيا مالا ورياسة . نسأل الله تعالى ان يعصمنا من الزلل في القول والعمل بمنه وكرمه . ويشير الشيخ رحمه الله بقوله من الشرع والبيان الى ان ماصح عن النبي ﷺ نوعان : شرع ابتدائي وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز وجميع ذلك حق واجب الاتباع وقوله واهله فى اصله سواء والتفاضل بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى وملازمة الاولى . وفي بعض النسخ بالخشية والتقى بدل قوله بالحقيقة ففي العبارة الاولى يشير الى ان الكل مشتركون في اصل التصديق ولكن التصديق يكون بعضه اقوى من بعض واثبت كما تقدم نظيره بقوة البصر وضعفه وفي العبارة الاخرى يشير الى ان التفاوت بين المؤمنين باعمال القلوب واما التصديق فلا تفاوت فيه والمعنى الأول اظهر قوة والله اعلم بالصواب قوله ﴿ والمؤمنون كلهم اولياء الرحمن ﴾ قال تعالى ﴿ الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ الآية الولي من الولاية بفتح الواو التى هي ضد العداوة وقد قرأ حمزة مالكم من ولايتهم من شيء بكسر الواو

والباقون بفتحها وقيل هما لغتان وقيل بالفتح للنصرة وبالكسر الامارة قال الزجاج وجاز الكسر لأن في تولي بعض القوم بعضا جنسا من الصناعة والعمل وكل ما كان كذلك مكسور مثل الخياطة ونحوها فالمؤمنون اولياء الله والله تعالى وليهم قال الله تعالى ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وان الكافرين لا مولى لهم - والمؤمنون بعضهم اولياء بعض ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم اولياء بعض ﴾ الى آخر السورة وقال تعالى ﴿ انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ﴾ فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض وانهم اولياء الله وان الله وليهم ومولاهم فالله يتولى عباده المؤمنين فيحبهم ويحبونه ويرضى عنهم ويرضون عنه ومن عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة وهذه الولاية من رحمته واحسانه ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته اليه قال تعالى ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً ﴾ فالله تعالى ليس له ولي من الذل بل لله العزة جميعا خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذله وحاجته الى ولي ينصره والولاية ايضا نظير الايمان فيكون مراد الشيخ ان اهلها في اصلها سواء وتكون كاملة وناقصة فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين كما قال تعالى ﴿ الا ان اولياء الله لاخوف

عليهم ولا هم يحزنون - الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة» فالذين آمنوا وكانوا يتقون منصوب على انه صفة اولياء الله او بدل منه او بأضمار مدح او مرفوع باضمارهم او خبر ثان لان واجيز فيه الجر بدلا من ضمير عليهم وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم اهل الوعد المذكور في الآيات الثلاث وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا تملق ولا رياضة وقيل الذين آمنوا مبتدأ والخبر لهم البشرى وهو بعيد لقطع الجملة مما قبلها وانتشار نظم الآية وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه وعداوة من وجه كما قد يكون فيه كفر وايمان وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ونفاق وايمان وان كان في هـذا الاصل نزاع لفظي بين اهل السنة ونزاع معنوي بينهم وبين اهل البدع كما تقدم في الايمان ولـكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى اولى من موافقة في المعنى وحده قال تعالى «وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون» وقال تعالى «قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا اسلمنا» الآية. وقد تقدم الكلام على هذه الآية وانهم ليسوا منافقين على اصح القولين وقال ﷺ «اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا خاصم فجر» وفي رواية «واذا ائتمن خان» بدل «واذا وعد أخلف» اخرجاه في الصحيحين. وحديث «شعب الايمان» تقدم. وقوله ﷺ «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من ايمان» فعلم ان من كان معه من الايمان أقل القليل لم يخلد في النار وان كان معه كثير من النفاق فهو يعذب في النار

على قدر مامعه من ذلك ثم يخرج من النار . فالطاعات من شعب الايمان والمعاصي من شعب الكفر وان كان رأس شعب الكفر الجحود ورأس شعب الايمان التصديق . واما مايروى مرفوعا الى النبي ﷺ انه قال «مامن جماعة اجتمعت الا وفيهم ولي لله لاهم يدرون به ولاهو يدري بنفسه» فلا أصل له وهو كلام باطل فان الجماعة قد يكونون كفارا او قد يكونون فساقا يموتون على الفسق وأما اولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى ﴿ألا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ الآية والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين﴾ الى قوله ﴿اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون﴾ وهم قسمان مقتصدون ومقربون فالمقتصدون الذين يتقربون الى الله بالفرائض من اعمال القلوب والجوارح والسابقون الذين يتقربون الى الله بالنوافل بعد الفرائض . كما في صحيح البخاري عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى «من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذني لاعيذنه وما ترددت في شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت واكره مساءته» والولي خلاف العدو وهو مشتق من الولاء وهو الدنو والتقرب (١) فولي الله هو من والى الله بموافقته في محبوباته والتقرب اليه

(١) كذا بالاصل ولعله القرب

بمرضاته وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال ابو ذر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ يا أبا ذر لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم فالمتقون يجعل الله لهم مخرجا مما ضاق على الناس ويرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع الله عنهم المضار ويجلب لهم المنافع ويعطيهم الله اشياء يطول شرحها من المكاشفات والتأثيرات

قوله ﴿ وا كرمهم عند الله اطوعهم وأتبعهم للقرآن ﴾ أراد اكرم المؤمنين

هو الاطوع لله والاتبع للقرآن وهو الاتقى والاتقى هو الاكرم قال تعالى ﴿ ان اكرمكم عند الله اتقاكم ﴾ وفي السنن عن النبي ﷺ انه قال « لافضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لابيض على اسود ولا لاسود على ابيض الا بالتقوى الناس من آدم وآدم من تراب » وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم في مسئلة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح احدهما على الآخر وان التحقيق ان التفضيل لا يرجع الى ذات الفقر والغنى وانما يرجع الى الاعمال والاحوال والحقائق فالمسئلة فاسدة في نفسها . فان التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الايمان لا بفقر ولا غنى . ولهذا والله اعلم قال عمر رضي الله عنه الغنى والفقر مطيتان لا ابالي ايهما ركبت والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده كما قال تعالى ﴿ فاما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن ﴾ الآية فان استويا الفقير الصابر والغني الشاكر في التقوى استويا في الدرجة وان فضل احدهما فيها فهو الافضل عند الله فان الفقر والغنى لا يوزنان وانما يوزن الصبر والشكر ومنهم من احال المسئلة من وجه آخر وهو ان الايمان نصف صبر ونصف شكر فكل منهما لا بد له من صبر

وشكر وانما اخذ الناس فرعا من الصبر وفرعا من الشكر واخذوا في الترجيح فجردوا غنيا منفقا متصدقا باذلا ماله في وجوه القرب شاكرا الله عليه وفقيرا متفرغا لطاعة الله ولأداء العبادات صابرا على فقره . وحينئذ يقال ان اكملهما اطوعهما واتبعهما فان تساويا تساوت درجتهما والله اعلم . ولو صح التجريد لصح ان يقال ايما افضل معافى شاكر أو مريض صابرا ومطاع شاكراً ومهان صابر وآمن شاكر أوخائف صابر ونحو ذلك قوله ﴿ والايمان هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى ﴾ تقدم ان هذه الخصال هي اصول الدين وبها اجاب النبي ﷺ في حديث جبرائيل المشهور المتفق على صحته حين جاء الى النبي ﷺ على صورة رجل اعرابي وسأله عن الاسلام فقال ان تشهد ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت اليه سبيلا . وسأله عن الايمان فقال ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره . وسأله عن الاحسان فقال ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك . وقدثبت ذلك في الصحيح عنه ﷺ انه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بصورتي الاخلاص ﴿ قل يا أيها الكافرون - وقل هو الله احد ﴾ وتارة بآيتي الايمان والاسلام التى في سورة البقرة ﴿ قولوا آمنا بالله وما انزل الينا ﴾ الاية والتي في آل عمران ﴿ قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية فسر ﷺ الايمان في حديث وفد عبد القيس المتفق على صحته حيث قال لهم « آمركم بالايمان بالله وحده اتدرون ما الايمان بالله وحده شهادة ان لا إله الا الله وحده لا شريك له وإقام الصلاة

وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم» . ومعلوم انه لم يرد ان هذه الاعمال تكون ايمانا بالله بدون ايمان القلب لما قد اخبر في غير موضع انه لابد من ايمان القلب فعلم ان هذه مع ايمان القلب هو الايمان وقد تقدم الكلام على هذا والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على ان الرجل لا يثبت له حكم الايمان الا بالعمل مع التصديق وهذا اكثر من معنى الصلاة والزكاة فان تلك انما فسرتها السنة والايمان بين معناه الكتاب والسنة . فمن الكتاب قوله تعالى ﴿ انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ الآية . وقوله تعالى ﴿ انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ الآية . وقوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ فنفى الايمان حتى توجد هذه الغاية دل على ان هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من اهل الوعيد لم يكن قد اتى بالايمان الواجب الذي وعد اهله بدخول الجنة بلا عذاب ولا يقال ان بين تفسير النبي ﷺ الايمان في حديث جبرائيل وتفسيره اياه في حديث وفد عبد القيس معارضة لانه فسر الايمان في حديث جبرائيل بعد تفسير الاسلام فكان المعنى انه الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الاعمال التي ذكرها في تفسير الاسلام كما ان الاحسان متضمن للايمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره بخلاف حديث وفد عبد القيس لانه فسره ابتداء لم يتقدم قبله تفسير الاسلام . ولكن هذا الجواب لا يتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الايمان لحديث وفد عبد القيس مشكل عليه ومما يسأل عنه انه اذا كان ما اوجبه الله من الاعمال الظاهرة اكثر من الخصال الخمس التي اجاب بها النبي

ﷺ في حديث جبرائيل المذكور فلم قال ان الاسلام هذه الخصال الخمس .
وقد أجاب بعض الناس بان هذه اظهر شعائر الاسلام وأعظمها وبقيامه بها
يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال انقياده . والتحقيق ان النبي ﷺ ذكر
الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً الذي يجب لله على عباده محضه على
الاعيان فيجب على كل من كان قادرا عليه ليعبدالله مخلصاله الدين وهذه هي
الخمس وما سوى ذلك فانما يجب بأسباب مصالح فلايعم وجوبها جميع الناس
بل اما ان يكون فرضاً على الكفاية كالجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر
وما يتبع ذلك من امارة وحكم وفتيا واقراء وتحديث وغير ذلك . وأما ما يجب
بسبب حق الآدميين يختص به من وجب له وعايه وقد يسقط بأسقاطه من
قضاء الديون ورد الامانات والغصوب والانصاف من المظالم من الدماء
والاموال والاعراض وحقوق الزوجة والاولاد وصلة الارحام ونحو ذلك فان
الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو بخلاف صوم رمضان وحج
البيت والصلوات الخمس والزكاة فان الزكاة وان كانت ماليا فانها واجبة لله والاصناف
الثمانية مصارفها . ولهذا وجبت فيها النية ولم يجز ان يفعلها الغير عنه بلا اذنه
ولم تطلب من الكفار وحقوق العباد لا يشترط لها النية ولو اداها غيره عنه بغير
اذنه برئت ذمته ويطالب بها الكفار وما يجب حقاً لله تعالى كالكفارات
هو سبب من العبد وفيها معنى العقوبة ولهذا كان التكليف شرطا في الزكاة
فلا يجب على الصغير والمجنون عند ابي حنيفة واصحابه رحمهم الله تعالى لما عرف
في موضعه . وقوله والقدر خيره وشره حلوه ومره من الله تعالى تقدم قوله
ﷺ في حديث جبرائيل « وتؤمن بالقدر خيره وشره » وقال تعالى ﴿ قل لن

يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ وقال تعالى ﴿ ان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمالهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا - ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ الآية فان قيل كيف وجه الجمع بين قوله كل من عند الله وبين قوله فمن نفسك قيل قوله كل من عند الله الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله فمن نفسك أي ما اصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك كما قال تعالى ﴿ وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ يدل على ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه انه قرأ ﴿ وما اصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وانا كتبتها عليك والمراد بالحسنة هنا النعمة وبالسيئة البلية في اصح الاقوال . وقد قيل الحسنة الطاعة والسيئة المعصية قيل الحسنة ما اصابه يوم بدر والسيئة ما أصابه يوم احد والقول الاول شامل لمعنى القول الثالث والمعنى الثاني ليس مرادا دون الاول قطعا ولكن لا منافاة بين ان يكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه مع ان الجميع مقدر فان المعصية الثانية قد تكون عقوبة الاولى فتكون من سيآت الجزاء مع انها من سيآت العمل والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الاولى كما دل على ذلك الكتاب والسنة وليس للقدرية ان يحتجوا بقوله تعالى ﴿ فمن نفسك ﴾ فانهم يقولون ان فعل العبد حسنة كان او سيئة فهو منه لا من الله والقرآن قد فرق بينهما وهم لا يفرقون ولانه قال تعالى ﴿ كل من عند الله ﴾ فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله وهم لا يقولون بذلك في الاعمال بل في الجزاء وقوله بعد هذا ما اصابك من حسنة ومن سيئة مثل قوله وان تصبهم حسنة وان تصبهم سيئة وفرق سبحانه وتعالى

بين الحسنات التي هي النعم وبين السيآت التي هي المصائب فجمل هذه من الله وهذه من نفس الانسان لان الحسنة مضافة الى الله اذ هو احسن بها من كل وجه فما وجه من اوجهها الا وهو يقتضي الأضافة اليه واما السيئة فهو انما يخلقها لحكمة وهي باعتبار تلك الحكمة من احسانه فان الرب لا يفعل سيئة قط بل فعله كله حسن وخير . ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح « والخير كله بيديك والشر ليس اليك » اي فانك لا تخلق شرا محضا بل كل ما يخلقه ففيه حكمة هو باعتبارها خير ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس فهذا شر جزئي اضافي فاما شر كلي اوشر مطلق فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه وهذا هو الشر الذي ليس اليه ولهذا لا يضاف الشر اليه مفردا قط بل اما ان يدخل في عموم المخلوقات كقوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء - كل من عند الله ﴾ واما ان يضاف الى السبب . كقوله من شر ما خلق واما ان يحذف فاعله كقول الجن وانا لا ندري اشر اريد بمن في الارض ام اراد بهم ربهم رشدا وليس اذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة بل لله من الرحمة والحكمة ما لا يقدر قدره الا الله تعالى وليس اذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالاضافة يكون شرا كلياً عاما بل الامور العامة الكلية لا تكون الا خيرا أو مصلحة للعباد كالمطر العام وكارساله رسولا عاما وهذا مما يقتضي انه لا يجوز ان يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي أيد بها الصادقين فان هذا شر عام للناس يضلهم فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم وليس هذا كالملك الظالم والعدو فان الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر اكثر من ظلمه وقد قيل ستون سنة بأمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا امام واذا قدر كثرة ظلمه فذاك خير في الدين

كالمصائب تكون كفارة لذنوبهم ويثابون على الصبر عليه ويرجعون فيه الى الله ويستغفرونه ويتوبون اليه وكذلك ما يسلط عليهم من العدوان . ولهذا قد يمكن الله كثيرا من الملوك الظالمين مدة واما المتنبؤن الكذابون فلا يطيل تمكينهم بل لابد ان يهلكهم لان فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة قال تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ وفي قوله فمن نفسك من الفوائد ان العبد لا يطمئن الى نفسه ولا يسكن اليها فان الشر كامن فيها لا يجيء الا منها ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم اذا أساؤا اليه فان ذلك من السيئات التي اصابته وهي انما اصابته بذنوبه فيرجع الى الذنوب ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ويسأل الله ان يعينه على طاعته فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر ولهذا كان انفع الدعاء واعظمه واحكمه دعاء الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ فانه اذا هداه هذا الصراط اعانه على طاعته وترك معصيته فلم يصبه شر لا في الدنيا ولا في الآخرة لكن الذنوب هي لوازم نفس الانسان وهو محتاج الى الهدى كل لحظة وهو الى الهدى احوج منه الى الطعام والشراب ليس كما يقوله بعض المفسرين انه قد هداه فلماذا يسأل الهدى وان المراد التثبيت او مزيد الهداية بل العبد محتاج الى ان يعلمه الله مايفعله من تفاصيل احواله والى ما يتركه من تفاصيل الامور في كل يوم والى ان يلهمه ان يعمل ذلك فانه لا يكفي مجرد علمه ان لم يجعله مريدا للعمل بما يعلمه والا كان العلم حجة عليه ولم يكن مهتديا ومحتاج الى ان يجعله قادرا على العمل بتلك الارادة الصالحة فان المجهول لنا من الحق اضعاف المعلوم وما لا نريد فعله تهاونا وكسلا مثل ما نريده

او اكثر منه او دونه وما لانقدر عليه مما نريده كذلك وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله فأمر يفوت الحصر ونحن محتاجون الى الهداية التامة فمن كملت له هذه الامور كان سؤاله سؤال تثبيت وهي آخر الرتب وبعد ذلك كله هداية اخرى وهي الهداية الى طريق الجنة في الآخرة ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة لفرط حاجتهم اليه فليسوا الى شيء أحوج منهم الى هذا الدعاء فيجب ان يعلم ان الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من اعظم الاسباب المقتضية للخير المانعة من الشر فقد بين القرآن ان السيئات من النفس وان كانت بقدر الله وان الحسنات كلها من الله تعالى واذا كان الامر كذلك وجب ان يشكر سبحانه وان يستغفره العبد من ذنوبه وان لا يتوكل الا عليه وحده فلا يأتي بالحسنات الا هو فاوجب ذلك توحيده والتوكل عليه وحده والشكر له وحده والاستغفار من الذنوب وهذه الامور كان النبي ﷺ يجمعها في الصلاة كما ثبت عنه في الصحيح انه كان اذا رفع رأسه من الركوع يقول « ربنا لك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد اهل الثنا والمجد احق ماقال العبد وكلنا لك عبد » فهذا حمد وهو شكر لله تعالى وبيان ان حمده احق ما قاله العبد ثم يقول بعد ذلك « لا مانع لما اعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وهذا تحقيق لوحدانيته لتوحيد الربوبية خلقا وقدرا وبداية ونهاية هو المعطي المانع لا مانع لما اعطى ولا معطي لما منع وتوحيد الالهية شرعا وامرا ونهيا وان العباد وان كانوا يعطون جدا ملكا وعظمة وبختا ورياسة في الظاهر او في الباطن كاصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة فلا ينفع ذا الجد منك

الجد اي لاينجيه ولايخلصه ولهذا قال لاينفعه منك ولم يقل ولاينفعه عندك
لانه لو قيل ذلك اوهم انه لايتقرب به اليك لكن قد لايضره فتضمن هذا الكلام
تحقيق التوحيد او تحقيق قوله ﴿ اياك نعبد واياك نستعين ﴾ فانه لو قدر
ان شيئا من الاسباب يكون مستقلا بالمطلوب وانما يكون بمشيئة الله
وتيسيره لكان الواجب أن لا يرجى الا الله ولا يتوكل الا عليه ولا يسأل الا
هو ولا يستغاث الا به ولا يستعان الا هو فله الحمد واليه المشتكى وهو المستعان
وبه المستغاث ولا حول ولا قوة الا بالله فكيف وليس شيء من الاسباب
مستقلا بمطلوب بل لابد من انضمام اسباب أخر اليه ولا بد ايضا من صرف
الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود فكل سبب فله شريك وله ضد
فاذا لم يعاونه شريكه ولم ينصرف عنه ضده لم تحصل مشيئة فالمطر وحده لا ينبت
النبات الا بما ينضم اليه من الهواء والتراب وغير ذلك ثم الزرع لا يتم حتى
تصرف عنه الآفات المفسدة له والطعام والشراب لا يغذي الا بما جعل في
البدن من الاعضاء والقوى ومجموع ذلك لايفيد ان لم تصرف عنه المفسدات
والمخلوق الذي يعطيك او ينصرك فهو مع ان الله يجعل فيه الارادة والقوة
والفعل فلا يتم ما يفعله الا باسباب كثيرة خارجة عن قدرة تعاونه على مطلوبه
ولو كان ملكا مطاعا ولا بد ان يصرف عنه الاسباب المتعاونة الى ما يعارضها
ويمانعها فلا يتم المطلوب الا بوجود المقتضى وعدم المانع وكل سبب معين فانما
هو جزء من المقتضى فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضى تام وان سمي
مقتضيا وسمي سائر ما يعينه شروطا فهذا نزاع لفظي واما ان يكون في
المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل ومن عرف هذا حق المعرفة

انفتح له باب توحيد الله وعلم انه لايستحق ان يسأل غيره فضلاعن ان يعبد غيره ولايتوكل على غيره ولايرجى غيره قوله ﴿ ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين احد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاؤا به ﴾ الاشارة بذلك الى ماتقدم مما يجب الايمان به تفصيلا وقوله ﴿ لا نفرق بين احد من رسله ﴾ الى آخر كلامه اي لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم فأن من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل قال تعالى ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقاً ﴾ فان المعنى الذي لأجله امن بمن آمن منهم موجود في الذي لم يؤمنوا به وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين فاذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافرا بمن في زعمه انه يؤمن به لان ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم فكان كافراً حقاً وهو يظن انه مؤمن فكان من الاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً . قوله ﴿ وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يخلدون اذا ماتوا وهم موحدون وان لم يكونوا تائبين بعد ان لقوا الله عارفين وهم في مشيئته وحكمه ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عزوجل في كتابه ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ وان شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من اهل طاعته ثم يبعثهم الى جنته ذلك بان الله تعالى مولى اهل معرفته ولم يجعلهم في الدارين كاهل نكرته الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته اللهم ياولي الاسلام واهله ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به ﴾ فقوله واهل الكبائر من امة محمد ﷺ في النار لا يخلدون اذا ماتوا وهم موحدون ردلقول

الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد اهل الكبائر في النار لكن الخوارج يقولون بتكفيرهم والمعتزلة بخروجهم من الايمان لابدخولهم في الكفر بل لهم منزلة بين منزلتين كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله ولا نكفر احدا من اهل القبلة بذنب مالم يستحله . وقوله واهل الكبائر من امة محمد تخصيصه امة محمد يفهم منه ان اهل الكبائر من امة غير محمد ﷺ قبل نسخ تلك الشرائع حكمهم مخالف لاهل الكبائر من امة محمد وفي ذلك نظر فان النبي ﷺ اخبر انه يخرج من النار من كان في قلبه ذرة من ايمان ولم يخص امته بذلك بل ذكر الايمان مطلقا فتأمله وليس في بعض النسخ ذكر الامة وقوله في النار معمول لقوله لايخلدون وانما قدمه لاجل السجعة لاان يكون في النار خبر لقوله واهل الكبائر كما ظنه بعض الشارحين واختلف العلماء في الكبائر على اقوال فقيل سبعة وقيل سبعة عشر وقيل مااتفقت الشرائع على تحريمه وقيل ما يسد باب المعرفة بالله وقيل ذهاب الاموال والابدان وقيل سميت كبائر بالنسبة والاضافة الى ما دونها وقيل لاتعلم اصلا اوانها اخفيت كليلة القدر وقيل انها الى السبعين اقرب وقيل كل مانهى الله عنه فهو كبيرة وقيل انها مايترتب عليها حد اوتوعد عليها بالنار او اللعنة او الغضب وهذا امثل الاقوال . واختلفت عبارات السلف في تعريف الصغائر منهم من قال : الصغير مادون الحدين : حد الدنيا وحد الآخرة . ومنهم من قال : كل ذنب ختم بلعنة اوغضب او نار . ومنهم من قال : الصغيرة ماليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة والمراد بالوعيد الوعيد الخاص بالنار او اللعنة او الغضب فان الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا اعني المقدرة فالتعزير في الدنيا

نظير الوعيد بغير النار او اللعنة اوالغضب وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره فانه يدخل فيه كل مايثبت بالنص انه كبيرة كالشرك والقتل والزنا والسحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ونحو ذلك كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وا كل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة الزور وامثال ذلك وترجيح هذا القول من وجوه . (احدها) انه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل وغيرهم . (الثاني) ان الله تعالى قال ﴿ ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ فلا يستحق هذا الوعد الكريم من اوعد بغضب الله ولعنته وناره وكذلك من استحق ان يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر . (الثالث) ان هذا الضابط مرجعه الى ماذكره الله ورسوله من الذنوب فهو حد متلقى من خطاب الشارع . (الرابع) ان هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر بخلاف تلك الاقوال فان من قال سبع أوسبعة عشر اوالى السبعين اقرب مجرد دعوى . ومن قال ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه يقتضي ان شرب الخمر والفرار من الزحف والتزوج ببعض المحارم والمحرم بالرضاعة والصهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر وان الحبة من مال اليتيم والسرقة لها والكذبة الواحدة الخفيفة ونحو ذلك من الكبائر وهذا فاسد ومن قال ما سد باب المعرفة بالله او ذهاب الاموال والابدان يقتضي ان شرب الخمر واكل الخنزير والميتة والدم وقذف المحصنات ليس من الكبائر وهذا فاسد ومن قال انها سميت كبائر بالنسبة الى ما دونها او كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة تقتضي ان الذنوب في نفسها لا تنقسم الى صغائر وكبائر وهذا فاسد

لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب الى صغائر وكبائر ومن قال انها لا تعلم اصلا او انها مبهمة فانما اخبر عن نفسه انه لا يعلمها فلا يمنع ان يكون قد علمها غيره والله اعلم . وقوله وان لم يكونوا تائبين لأن التوبة لا خلاف انها تمحو الذنوب وانما الخلاف في غير التائب . وقوله بعد ان لقوا الله تعالى عارفين لو قال مؤمنين بدل قوله عارفين كان اولى لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر وانما اكتفى بالمعرفة وحدها الجهم وقوله مردود باطل كما تقدم فان ابليس عارف بربه قال رب فانظرني الى يوم يبعثون قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين . وكذلك فرعون واكثر الكافرين قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله - قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله ﴾ الى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى . وكان الشيخ رحمه الله اراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التي يشير اليها اهل الطريقة وحاشا أولئك ان يكونوا من اهل الكبائر بل هم سادات الناس وخاصتهم . وقوله وهم في مشيئة الله وحكمه ان شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله الى آخر كلامه فصل الله تعالى بين الشرك وغيره لأن الشرك اكبر الكبائر كما قال ﷺ واخبر الله تعالى ان الشرك غير مغفور وعلق غفران ما دونه بالمشيئة والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى ولانه علق هذا الغفران بالمشيئة وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة كما قال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم ﴾ فوجب ان

يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة . وقوله ذلك بأن الله مولى اهل معرفته فيه مواخذة لطيفة كما تقدم وقوله اللهم يا ولي الاسلام واهله مسكنا بالاسلام وفي نسخة ثبتنا على الاسلام حتى نلقاك به . روي شيخ الاسلام ابو اسمعيل الانصاري في كتابه الفاروق بسنده عن انس رضي الله عنه قال كان من دعاء رسول الله ﷺ يقول «يا ولي الاسلام واهله مسكني بالاسلام حتى القاك عليه» ومناسبة ختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة . وبمثل هذا الدعاء دعاء يوسف الصديق صلوات الله عليه حيث قال رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الاحاديث فاطر السموات والارض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين وبه دعاء السحرة الذين كانوا اول مؤمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه حيث قالوا ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين . ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمني الموت فلا دليل له فيه فان الدعاء انما هو بالموت على الاسلام لا بمطلق الموت ولا بالموت الآن والفرق ظاهر قوله ﴿ ونرى الصلاة خلف

كل بر وفاجر من اهل القبلة وعلى من مات منهم ﴾ قال ﷺ « صلوا خلف

كل بر وفاجر » رواه مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه واخرجه الدارقطني وقال مكحول لم يلق ابا هريرة وفي اسناده معاوية بن صالح متكلم فيه وقد احتج به مسلم في صحيحه . وخرج له الدارقطني ايضا وابو داود عن مكحول عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم بر وان هو عمل بالكبائر والجهاد واجب مع كل امير بر او فاجر عمل بالكبائر . وفي صحيح البخاري ان عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان

يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي وكذا انس بن مالك وكان الحجاج فاسقا ظالما
وفي صحيحه ايضا ان النبي ﷺ قال « يصلون لكم فان اصابوا فلكم ولهم وان أخطأوا
فلكم وعليهم » وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « صلوا
خلف من قال لا إله الا الله وصلوا على من مات من اهل لا إله الا الله » اخرجه الدار
قطني من طرق وضعفها . اعلم رحمك الله وايانا انه يجوز للرجل ان يصلي خلف من
لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الائمة وليس من شرط الائتمام ان يعلم المأموم
اعتقاد امامه ولا ان يمتحنه فيقول ما ذا تعتقد بل يصلي خلف المستور الحال
ولو صلى خلف مبتدع يدعو الى بدعته او فاسق ظاهر الفسق وهو الامام
الراتب الذى لا يمكنه الصلاة الا خلفه كامام الجمعة والعيدين والامام في صلاة
الحج بعرفة ونحو ذلك فان المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف ومن
ترك الجمعة والجماعة خلف الامام الفاجر فهو مبتدع عند اكثر العلماء والصحيح
انه يصليها ولا يعيدها فان الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة
خلف الائمة الفجار ولا يعيدون كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج
ابن يوسف . وكذلك أنس رضي الله عنه كما تقدم وكذلك عبدالله بن مسعود
رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن ابي معيط وكان يشرب
الخمر حتى انه صلى بهم الصبح مرة اربعا ثم قال ازيدكم فقال له ابن مسعود مازلنا
معك منذ اليوم في زيادة وفي الصحيح ان عثمان بن عفان رضي الله عنه لما
حصر صلى بالناس شخص فسأل سائل عثمان انك امام عامة وهذا الذي صلى
بالناس امام فتنة فقال يا ابن اخي ان الصلاة من احسن ما يعمل الناس فاذا أحسنوا
فاحسن معهم واذا اساؤا فاجتنب اساءتهم والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها

صحيحة فاذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته لـكن انما كره من كره الصلاة
خلفه لان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب . ومن ذلك ان من اظهر
بدعة وفجورا لا يرتب اماماً للمسلمين فانه يستحق التعزير حتى يتوب فاذا
امكن هجره حتى يتوب كان حسنا واذا كان بعض الناس اذا ترك الصلاة
خلفه وصلى خلف غيره اثر ذلك في انكار المنكر حتى يتوب او يعزل او ينتهي
الناس عن مثل ذنبه فمثل هذا اذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة
شرعية ولم يفت المأموم الجمعة ولا جماعة وأما اذا كان ترك الصلاة خلفه
يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفه الا مبتدع مخالف
للصحابة رضي الله عنهم وكذلك اذا كان الامام قد رتبه ولاة الامور ليس
في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية فهنا لا يترك الصلاة خلفه بل الصلاة
خلف الافضل أفضل فاذا امكن الانسان ان لايقدم مظهرا للمنكر في
الامامة وجب عليه ذلك لـكن اذا ولاه غيره ولم يمكنه صرفه عن الامامة
او كان لايتمكن من صرفه عن الامامة الا بشر اعظم ضررا من ضرر ما اظهر
من المنكر فلا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الـكثير ولا دفع اخف الضررين
بحصول اعظمهما فان الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد
وتقليلها بحسب الامكان فتفويت الجمع والجماعات اعظم فسادا من الاقتداء
فيهما بالامام الفاجر لا سيما اذا كان التخلف عنها لايدفع فجورا فيبقى تعطيل
المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة . واما اذا امكن فعل الجمعة والجماعة
خلف البر فهذا اولى من فعلها خلف الفاجر . وحينئذ فاذا صلى خلف الفاجر
من غير عذر فهو موضع اجتهاد للعلماء منهم من قال يعيد ومنهم من قال لا يعيد

وموضع بسط ذلك في كتب الفروع . واما الامام اذا نسي او أخطأ ولم يعلم المأموم بحاله فلا اعادة على المأموم للحديث المتقدم . وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جنب ناسيا الجنابة فاعاد الصلاة ولم يأمر المأمومين بالاعادة ولو علم أن امامه بعد فراغه كان على غير طهارة اعاد عند ابي حنيفة خلافا لمالك والشافعي واحمد في المشهور عنه وكذلك لو فعل الامام ما لا يسوغ عند المأموم وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع . ولو علم ان امامه يصلي على غير وضوء فليس له ان يصلي خلفه لانه لاعب وليس بمصل وقد دلت نصوص الكتاب والسنة واجماع سلف الامة ان ولي الامر وامام الصلاة والحاكم وامير الحرب وعامل الصدقة يطاع في مواضع الاجتهاد وليس عليه ان يطيع اتباعه في موارد الاجتهاد بل عليهم طاعته في ذلك وترك رأيهم لرأيه فان مصلحة الجماعة والائتلاف ومفسدة الفرقة والاختلاف اعظم من امر المسائل الجزئية . ولهذا لم يجز للحكام ان ينقض بعضهم حكم بعض والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض . ويروى عن ابي يوسف انه لما حج مع هرون الرشيد فاحتجم الخليفة وافتاه مالك بانه لا يتوضأ وصلى بالناس فقيل لأبي يوسف أصليت خلفه قال : سبحان الله امير المؤمنين يريد بذلك ان ترك الصلاة خلف ولاة الامور من فعل اهل البدع . وحديث ابي هريرة الذي رواه البخاري ان رسول الله ﷺ قال « يصلون لكم فان اصابوا فلكم ولهم وان اخطاؤا فلكم وعليهم » نص صحيح صريح في ان الامام اذا أخطأ فخطأه عليه لا على المأموم والمجتهد غايته انه اخطأ بترك واجب اعتقد انه ليس واجبا او فعل محظورا اعتقد انه ليس محظورا ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر ان يخالف هذا الحديث

الصريح الصحيح بعد ان يبلغه وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية ان الامام اذا ترك مايعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به فان الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي الى الفساد . وقوله وعلى من مات منهم اي ونرى الصلاة على من مات من الابرار والفجار وان كان يستثني من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق وكذا قاتل نفسه خلافا لابي يوسف لا الشهيد خلافا لمالك والشافعي رحمهما الله على ماعرف في موضعه لكن الشيخ انما ساق هذا لبيان انا لانترك الصلاة على من مات من اهل البدع والفجور لا للعموم الكلي ولكن الكلام لاهل الاسلام قسمان : اما مؤمن واما منافق فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ومن لم يعلم ذلك منه صلى عليه فاذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه وصلى عليه من لم يعلم نفاقه وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة لانه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن الصلاة على المنافقين وأخبر انه لا يغفر لهم باستغفاره وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله فمن كان مؤمنا بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية او العملية الفجورية ماله بل قد امره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين فقال تعالى ﴿ فاعلم انه لا إله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ فالتوحيد اصل الدين والاستغفار له وللمؤمنين كماله فالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات اما واجب واما مستحب وهو على نوعين عام وخاص اما العام فظاهر كما في هذه الآية واما الدعاء الخاص فالصلاة على الميت فما من مؤمن يموت الا وقد امر المؤمنون ان يصلوا عليه

صلاة الجنازة وهم مأمورون في صلاتهم عليه ان يدعوا له . كما روى ابو داود وابن ماجه عن ابي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « اذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء » . قوله ﴿ ولا ننزل احدا منهم جنة ولا نارا ﴾ يريد انا لا نقول عن احد معين من اهل القبلة انه من اهل الجنة او من اهل النار الا من اخبر الصادق ﷺ انه من اهل الجنة كالعشرة رضي الله عنهم وان كنا نقول انه لابد ان يدخل النار من اهل الكبائر من يشاء الله ادخاله النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ولكنا نقف في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار الا عن علم لان الحقيقة باطنة وما مات عليه لا نحيط به لكن نرجو للمحسنين ونخاف على المسيء وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة اقوال (احدها) ان لا يشهد لاحد الا للأنبياء وهذا ينقل عن محمد ابن الحنفية والاوزاعي (والثاني) انه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص وهذا قول كثير من العلماء واهل الحديث (والثالث) انه شهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون كما في الصحيحين « انه مر بجنازة فاثنوا عليها بخير فقال النبي ﷺ وجبت ومر بأخرى فاثنى عليها بشر فقال وجبت » وفي رواية كرر وجبت ثلاث مرات فقال عمر يا رسول الله ما وجبت فقال رسول الله ﷺ « هذا اثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة وهذا اثنيتم عليه شرا وجبت له النار انتم شهداء الله في الأرض » وقال ﷺ « توشكوا ان تعلموا اهل الجنة من اهل النار » قالوا بم يا رسول الله قال « بالثناء الحسن والثناء السيء » فاخبر ان ذلك مما يعلم به اهل الجنة واهل النار قوله ﴿ ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ونذر سرائرهم الى الله تعالى ﴾ لانا قد امرنا بالحكم بالظاهر ونهينا عن الظن

واتباع ماليس لنا به علم قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا ﴾ قوله ﴿ ولا نرى [1] على احد من أمة محمد ﷺ الامن وجب عليه السيف ﴾ في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ان لا إله الا الله واني رسول الله الا باحدى ثلاث الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق الجماعة » قوله ﴿ ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة امورنا وان جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عزوجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة ﴾ ش . قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « من اطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصا الله ومن يطع الامير فقد اطاعني ومن عصى الامير فقد عصاني » وعن ابي ذر رضي الله عنه قال « ان خليلي اوصاني ان اسمع واطيع وان كان عبدا حبشيا مجدع الاطراف » وعند البخاري ولو الحبشي كأن رأسه زبيبة . وفي الصحيحين أيضاً « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما احب وكره الا ان يؤمر بمعصية فان أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » وعن حذيفة ابن اليمان قال كان الناس يسئلون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت اسأل عن الشر مخافة ان يدركني فقلت يارسول الله انا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر فقال نعم فقلت هل بعد ذلك الشر من خير قال نعم

(١) كذا بالاصل ولعله القتل على أحد الخ

وفيه دخن قال قلت وما دخنه قال « قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هدي يعرف منهم وينكر » فقلت هل بعد ذلك الخير من شر قال « نعم دعاة على ابواب جهنم من اجابهم قذفوه فيها » فقلت يا رسول الله صفهم لنا قال نعم « قوم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا » قلت يارسول الله فما ترى ان ادركني ذلك قال « تلزم جماعة المسلمين وامامهم » قلت فان لم يكن جماعة ولا امام قال « فاعتزل تلك الفرق كلها ولو ان تعض على شجرة حتى يدركك الموت وانت على ذلك » وعن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « من رأى من اميره شيئا يكرهه فليصبر فانه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتته جاهلية » وفي رواية « فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » وعن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما » وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » فقلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك قال « لا ما اقاموا فيكم الصلاة الا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزع يدا من طاعة » فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولى الامر مالم يأمروا بمعصية فتأمل قوله تعالى ﴿ اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ﴾ كيف قال واطيعوا الرسول ولم يقل واطيعوا اولي الامر منكم لان اولى الامر لا يفردون بالطاعة بل يطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله وأعاد الفعل مع

الرسول (١) فقد اطاع الله فان الرسول لا يأمر بغير طاعة الله بل هو معصوم في ذلك وأما أولي الامر فقد يأمر بغير طاعة الله فلا يطاع الا فيما هو طاعة لله ورسوله وأما لزوم طاعتهم وان جاروا فلانه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الاجور فان الله تعالى ماسلطهم علينا الا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة واصلاح العمل قال تعالى ﴿ وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير ﴾ وقال تعالى ﴿ او لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ فاذا أراد الرعية ان يتخلصوا من ظلم الامير الظالم فليتركوا الظلم وعن مالك بن دينار انه جاء في بعض كتب الله « انا الله مالك الملك قلوب الملوك بيدي فمن اطاعني جعلتهم عليه رحمة ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة فلا تشغلوا انفسكم بسبب الملوك لكن توبوا اعطفهم عليكم » قوله ﴿ ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة ﴾ السنة طريقة الرسول ﷺ والجماعة المسلمون وهم الصحابة والتابعون لهم بأحسان الى يوم الدين فاتباعهم هدى وخلافهم ضلال قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ وقال ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين

---

(١) كذا بالاصل ولعل فيه سقطا وهو قوله تنبيه على أن من أطاع الرسول فقد أطاع الله الخ

نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ وقال تعالى ﴿ قل اطيعوا الله واطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين ﴾ وقال تعالى ﴿ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وقال تعالى ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما امرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ .

وثبت في السنن الحديث الذي صححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد الينا فقال «أوصيكم بالسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة »وقال ﷺ « ان اهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاثة وسبعين ملة يعني الاهوا كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة . وفي رواية قالوا من هي يا رسول الله قال ما انا عليه واصحابي فبين ﷺ ان عامة المختلفين هالكون من الجانبين الا اهل السنة والجماعة . وما احسن قول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فان الحي لاتؤمن عليه الفتنة أولئك اصحاب محمد ﷺ كانوا افضل هذه الامة ابرها قلوبا واعمقها علما واقلها تكلفا قوم اختارهم الله لصحبة

نبيه واقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم وتمسكوا بما استطعتم
من اخلاقهم ودينهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم وسيأتي لهذا المعنى بيان
انشاءالله تعالى عندقول الشيخ ونرى الجماعة حقاوصوابا والفرقة زيغاً وعذابا
قوله ﴿ ونحب اهل العدل والامانةونبغض أهل الجور والخيانة ﴾ وهذا من
كمال الايمان وتمام العبودية فان العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايتها وكمال الذل
ونهايته فمحبة رسل الله وانبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله وان كانت المحبة
التى لا يستحقها غيره فغير الله يحب في الله لامع الله فان المحب يحب ما يحب
محبوبه ويبغض ما يبغض ويوالى من يواليه ويعادي من يعاديه ويرضى لرضائه
ويغضب لغضبه ويأمر بما يأمر به وينهي عما ينهي عنه فهو موافق لمحبوبه في كل
حال والله تعالى يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب التوابين ويحب المتطهرين
ونحن نحب من يحبه الله والله لا يحب الخائنين ولا يحب المفسدين ولايحب
المستكبرين ونحن لا نحبهم ايضاً ونبغضهم موافقة له سبحانه وتعالى . وفي
الصحيحين عن النبي ﷺ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله
ورسوله أحب اليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لايحبه الا لله ومن كان يكره
أن يرجع في الكفر بعد ان انقذه الله منه كما يكره ان يلقى في النار » فالمحبة
التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته . ومن
المعلوم ان من أحب الله المحبة الواجبة فلابد ان يبغض اعداؤه ولا بد ان يحب
ما يحبه من جهادهم كما قال تعالى ﴿ ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً
كأنهم بنيان مرصوص ﴾ والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير
والشر فان العبد يجتمع فيه سبب الولاية وسبب العداوة والحب والبغض

فيكون محبوبا من وجه ومبغوضاً من وجه والحكم الغالب وكذلك حكم العبد عند الله فان الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر كما قال ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل «وما ترددت في شيء انا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وانا اكره مساءته ولا بد له منه» فبين انه يتردد لان التردد تعارض ارادتين وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المؤمن ويكره ما يكرهه وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال «وانا اكره مساءته» وهو سبحانه قضى بالموت فهو يريد كونه فسمى ذلك ترددا ثم بين انه لا بد من وقوع ذلك اذ هو مفض الى ما هو احب منه. قوله ﴿ ونقول الله اعلم فيما اشتبه علينا علمه ﴾ تقدم في كلام الشيخ رحمه الله انه ما سلم في دينه الا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه الى عالمه ومن تكلم بغير علم فانما يتبع هواه وقد قال تعالى ﴿ ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله ويهديه الى عذاب السعير ﴾ وقال تعالى ﴿ الذين يجادلون في ايات الله بغير سلطان اتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ وقال تعالى ﴿ قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾. وقد امر الله نبيه ﷺ ان يرد علم ما لم يعلم اليه فقال تعالى ﴿ قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض - قل ربي اعلم بعدتهم ﴾. وقد قال ﷺ لما سئل عن اطفال المشركين « الله اعلم بما كانوا عاملين » وقال عمر رضي الله عنه: اتهموا الرأي في الدين فلو رأيتني يوم ابي جندل فلقد رأيتني واني لارد امر رسول

الله ﷺ برأى فاجتهد ولا آلو (١) وذلك يوم ابي جندل والكتاب يكتب. وقال: اكتب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ قال: اكتب باسمك اللهم فرضي رسول الله ﷺ وكتب وابيت فقال «ياعمر تراني قدرضيت وتأبى» وقال ايضا رضي الله عنه «السنة ما سنه الله ورسوله ﷺ لاتجعلوا خطأ الرأي سنة للامة». وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه: أي ارض تقاني وأي سماء تظلني ان قلت في آية من كتاب الله برأي او بما لا اعلم. وذكر الحسن بن علي الحلواني حدثنا عارم حدثنا حماد بن زيد عن سعيد بن ابي صدقة عن ابن سيرين قال: لم يكن احد اهيب لما لا يعلم من ابي بكر ولم يكن بعد ابي بكر اهيب لما لا يعلم من عمر رضي الله عنه وان ابا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها اصلا ولا في السنة اثراً فاجتهد برأيه ثم قال: هذا رأيي فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فني واستغفر الله. قوله ﴿ونرى المسح على الخفين في السفر والحضر كما جاء في الاثر﴾ تواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة فيقال لهم الذين نقلوا عن النبي ﷺ الوضوء قولا وفعلا والذين تعلموا الوضوء منه وتوضأوا على عهده وهو يراهم ويقرهم ونقلوه الى من بعدهم اكثر عددا من الذين نقلوا لفظ هذه الآية. فان جميع المسلمين كانوا يتوضأون على عهده ولم يتعلموا الوضوء الا منه فان هذا العمل لم يكن معهودا عندهم في الجاهلية وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصى عدده الا الله تعالى ونقلوا عنه غسل الرجلين في ماشاء الله من الحديث حتى نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرهما انه قال «ويل للاعقاب وبطون

---

(١) كذا بالاصل ولعله رأيتني ولو أستطيع ان أرد الخ

الاقدام من النار » مع ان الفرض اذا كان مسح ظاهر القدم كان غسل الجميع كلفة لاتدعو اليها الطباع كما تدعو الطباع الى طلب الرياسة والمال فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء لكان في نقل لفظ آية اقرب الى الجواز واذا قالوا : لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه اولى واكمل ولفظ الاية لاتخالف ماتواتر من السنة فان المسح كما يطلق ويراد به الاصابة كذلك يطلق ويراد به الاسالة كما تقول العرب تمسحت للصلاة وفي الآية ما يدل على انه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسم الغسل بل المسح الذي الغسل قسم منه فانه قال ﴿ الى الكعبين ﴾ ولم يقل الى الكعاب كما قال ﴿ الى المرافق ﴾ فدل على انه ليس في كل رجل كعب واحد كما في كل يد مرفق واحد بل في كل رجل كعبان فيكون تعالى قدامر بالمسح الى العظمين الناتئين وهذا هو الغسل فان من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين وجعل الكعبين في الآية غاية يرد قولهم فدعواهم ان الفرض مسح الرجلين الى الكعبين الذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك مردود بالكتاب والسنة وفي الآية قراءتان مشهورتان النصب والخفض وتوجيه اعرابهما مبسوط في موضعه وقراءة النصب نص في وجوب الغسل لان العطف على المحل انما يكون اذا كان المعنى واحدا كقوله : * فلسنا بالجبال ولا الحديدا *

وليس معنى مسحت برأسي ورجلي هو معنى مسحت رأسي ورجلي بل ذكر الباء مفيد معنى زائدا على مجرد المسح وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس فتعين العطف على قوله وايديكم فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن فان الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه .

كما قال ابو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهم انهم كانوا اذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا معناها وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه على قلة الصب في الرجلين فان السرف يعتاد فيها كثيرا والمسئلة معروفة والكلام عليها في كتب الفروع قوله ﴿ والحج والجهاد ماضيان مع اولي الامر من المسلمين برهم وفاجرهم الى قيام الساعة لا يبطلها شيء ولا ينقضها ﴾ يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على الرافضة حيث قالوا لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضى من آل محمد وينادي مناد من السماء اتبعوه وبطلان هذا القول اظهر من ان يستدل عليه بدليل وهم شرطوا في الامام ان يكون معصوما اشتراطا بغير دليل بل في صحيح مسلم عن عوف بن مالك الاشجعي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » قال قلنا يا رسول الله افلا ننابذهم عند ذلك قال « لا ما اقاموا فيكم الصلاة الا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعته » وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث في الامامة ولم يقل ان الامام يجب ان يكون معصوما والرافضة اخسر الناس صفقة في هذه المسئلة لأنهم جعلوا الامام المعصوم هو الامام المعدوم الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا فانهم يدعون انه الامام المنتظر محمد بن الحسن العسكري الذي دخل السرداب في زعمهم سنة ستين ومائتين او قريبا من ذلك بسامرا وقد يقيمون هناك دابة اما بغلة واما فرسا ليركبها اذا خرج

ويقيمون هناك في اوقات عينوا فيها من ينادي عليه بالخروج يامولانا اخرج يامولانا اخرج ويشهرون السلاح ولا احد هناك يقاتلهم الى غير ذلك من الامور التي يضحك عليهم فيها العقلاء . وقوله مع اولي الامر برهم وفاجرهم لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر فلا بد من سائس يسوس فيها ويقاوم فيها العدو وهذا المعنى كما يحصل بالامام البر يحصل بالامام الفاجر قوله ﴿ ونؤمن بالكرام الكاتبين فان الله قد جعلهم علينا حافظين ﴾ قال تعالى ﴿ وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ وقال تعالى ﴿ اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد ﴾ وقال تعالى ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ﴾ وقال تعالى ﴿ ام يحسبون انا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ وقال تعالى ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد اليه الذين كانوا فيكم فيسألهم والله اعلم بهم كيف تركتم عبادي فيقولون اتيناهم وهم يصلون وفارقناهم وهم يصلون » وفي الحديث الآخر « ان معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم واكرموهم » جاء في التفسير اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الاعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وواحد امامه فهو بين اربعة املاك بالنهار واربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان وقال عكرمة عن ابن عباس يحفظونه من امر الله قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه

فاذا جاء قدر الله خلوا عنه . وروى مسلم والامام احمد عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « مامنكم من احد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا واياك يا رسول الله قال واياي ولكن اعانني الله عليه فاسلم فلا يأمرني الا بخير الرواية بفتح الميم من فاسلم ومن رواه فاسلم برفع الميم فقد حرف لفظه ومعنى فاسلم أي فاستسلم وانقاد لي في اصح القولين . ولهذا قال فلا يأمرني الا بخير ومن قال ان الشيطان صار مؤمناً فقد حرف معناه فان الشيطان لا يكون مؤمنا ومعنى يحفظونه من امر الله قيل حفظهم له من امر الله اي الله أمرهم بذلك يشهد لذلك قراءة من قرأ يحفظونه بأمر الله ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة ان الملائكة تكتب القول والفعل وكذلك النية لانها فعل القلب فدخلت في عموم يعلمون ما تفعلون ويشهد لذلك قوله ﷺ قال الله عز وجل « اذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فان عملها فاكتبوها عليه سيئة واذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فان عملها فاكتبوها عشرا » وقال رسول الله ﷺ « قالت الملائكة ذاك عبد يريد ان يعمل سيئة وهو ابصر به فقال ارقبوه فان عملها فاكتبوها بمثلها وان تركها فاكتبوها له حسنة انما تركها من جرائي » خرجاهما في الصحيحين واللفظ لمسلم قوله ﴿ ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض ارواح العالمين ﴾ قال تعالى

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون ﴾ ولا تعارض هذه الآية قوله ﴿ حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ وقوله تعالى ﴿ الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ﴾ لان ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة او ملائكة العذاب

ويتولونها بعده كل ذلك باذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره فصحت اضافة التوفي الى كل بحسبه . وقد اختلف في حقيقة النفس ماهي وهل هي جزء من اجزاء البدن او عرض من اعراضه اوجسم مساكن له مودع فيه او جوهر مجرد وهل هي الروح او غيرها وهل الامارة وهل اللوامة والمطمئنة نفس واحدة ام هي ثلاثة انفس وهل تموت الروح اوالموت للبدن وحده . وهذه المسئلة تحتمل مجلدا ولكن اشير الى الكلام عليها مختصرا ان شاء الله تعالى . فقيل الروح قديمة وقد اجمعت الرسل على انها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة . وهذا معلوم بالضرورة من دينهم ان العالم محدث ومضى على هذا الصحابة والتابعون حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة فزعم انها قديمة واحتج بانها من امر الله وامره غير مخلوق وبان الله اضافها اليه بقوله ﴿ قل الروح من امر ربي ﴾ وبقوله ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ كما اضاف اليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده وتوقف آخرون واتفق اهل السنة والجماعة على انها مخلوقة . وممن نقل الاجماع على ذلك محمد بن نصر المروزي وابن قتيبة وغيرهما ومن الادلة على ان الروح مخلوقة قوله تعالى ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل في ذلك صفات الله تعالى فانها داخلة في مسمى اسمه . فالله تعالى هو الاله الموصوف بصفات الكمال فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته داخلة في مسمى اسمه فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وماسواه مخلوق . ومعلوم قطعا ان الروح ليست هي الله ولا صفة من صفاته وانما هي من مصنوعاته ومنها قوله تعالى ﴿ هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ وقوله تعالى لزكريا ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك

شيئا ﴾ والانسان اسم لروحه وجسده والخطاب لزكريا لروحه وبدنه والروح توصف بالوفاة والقبض والامساك والارسال وهذا شأن المخلوق المحدث . واما احتجاجهم بقوله ﴿ من امر ربي ﴾ فليس المراد هنا بالامر الطلب بل المراد به المأمور والمصدر يذكر ويراد به اسم المفعول وهذا معلوم مشهور . واما استدلالهم باضافتها اليه بقوله ﴿ من روحي ﴾ فينبغي ان يعلم ان المضاف الى الله تعالى نوعان صفات لا تقوم بانفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر فهذه اضافة صفة إلى الموصوف بها فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له وكذا وجهه ويده سبحانه والثاني اضافة اعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح فهذه اضافة مخلوق الى خالقه لكن اضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز بها المضاف عن غيره . واختلف في الروح هل هي مخلوقة قبل الجسد أم بعده وقد تقدم عند ذكر الميثاق الاشارة الى ذلك واختلف في الروح ما هي فقيل هي جسم وقيل عرض وقيل لا ندري ما الروح أجوهر أم عرض وقيل ليس الروح شيئاً اكثر من اعتدال الطبائع الاربع وقيل هي الدم الصافي الخالص من الكدرة والعفونات وقيل هي الحرارة الغريزية وهي الحياة وقيل هو جوهر بسيط منبعث في العالم كله من الحيوان على جهة الاعمال له والتدبير وهي على ما وصفت من الانبساط في العالم غير منقسمة الذات والبنية وانها في كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير وقيل النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس وقيل غير ذلك . وللناس في مسمى الانسان هل هو الروح فقط او البدن فقط أو مجموعهما او كل منهما وهذه الاقوال الاربعة لهم في كلامه هل هو اللفظ أو المعنى فقط اوهما او كل منهما فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه

والحق ان الانسان اسم لهما وقد يطلق على احدهما بقرينة وكذلك الكلام
والذي يدل عليه الكتاب والسنة واجماع الصحابة وادلة العقل ان النفس جسم
مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف حي
متحرك ينتقل في جوهر الاعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان
الدهن في الزيتون والنار في الفحم فما دامت هذه الاعضاء صالحة لقبول الآثار
الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف ساريا في هذه
الاعضاء وافادتها هذه الآثار من الحس والحركة الارادية واذا فسدت هذه
بسبب استيلاء الاخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق
الروح البدن وانفصل الى عالم الارواح والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ الله
يتوفى الانفس حين موتها ﴾ الآية ففيها الاخبار بتوفيها وامساكها وارسالها
وقوله تعالى ﴿ ولو ترى اذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا
ايديهم اخرجوا انفسكم ﴾ ففيها بسط الملائكة ايديهم لتناولها ووصفها بالاخراج
والخروج والاخبار بعذابها ذلك اليوم والاخبار عن مجيئها الى ربها وقوله تعالى
﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾ الآية ففيها
الاخبار بتوفي النفس بالليل وبعثها الى اجسادها بالنهار وتوفي الملائكة لها
عندالموت وقوله تعالى ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية
فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ ففيها وصفها بالرجوع والدخول والرضى .
وقال ﷺ « ان الروح اذا قبض تبعه البصر ففيه وصفه بالقبض وان البصر
يراه » وقال ﷺ في حديث بلال « قبض ارواحكم وردها عليكم » وقال ﷺ
« نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة » وسيأتي في الكلام على عذاب

القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لها وانها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء وانها تصعد ويوجدمنها كأطيب ريح ومن الكافر كأنتن ريح الى غير ذلك من الصفات وعلى ذلك اجمع السلف ودل العقل وليس مع من خالف سوى الظنون الكاذبة والشبه الفاسدة التي لا يعارض بها مادل عليه نصوص الوحي والادلة العقلية . واما اختلاف الناس في مسمى النفس والروح هل هما متغيران أو مسماهما واحد فالتحقيق ان النفس تطلق على امور وكذلك الروح فيتحد مدلولهما تارة ويختلف تارة فالنفس تطلق على الروح ولكن غالب ما تسمى نفساً اذا كانت متصلة بالبدن وأما اذا أخذت مجردة فتسمية الروح اغلب عليها وتطلق على الدم ففي الحديث « مالا نفس له سائلة لا ينجس الماء اذا مات فيه » والنفس العين يقال اصابت فلانا نفس أي عين والنفس الذات فسلموا على انفسكم - لا تقتلوا انفسكم ونحو ذلك . واما الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس وتطلق الروح على القرآن وعلى جبرائيل ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحا من امرنا — نزل به الروح الامين ﴾ وتطلق الروح على الهواء المتردد في بدن الانسان ايضاً . وأما ما يؤيد الله به اولياءه فهي روح أخرى كما قال تعالى ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ﴾ وكذلك القوى التي في البدن فانها ايضاً تسمى أرواحا فيقال الروح الباصر والروح السامع والروح الشام وتطلق الروح على اخص من هذا كله وهو قوة المعرفة بالله والانابة اليه ومحبته وانبعاث الهمة الى طلبه وارادته ونسبة هذه الروح الى الروح كنسبة الروح الى البدن فالعلم روح والاحسان روح والمحبة روح والتوكل روح والصدق روح والناس متفاوتون في هذه الروح

فمن الناس من تغلب عليه هذه الارواح فتصير روحا ومنهم من يفقدها أو اكثرها فتصير ارضيا بهيميا . وقد وقع في كلام كثير من الناس ان لابن آدم ثلاثة انفس : مطمئنة ، ولوامة ، وامارة ، قالوا وان منهم من تغلب عليه هذه ومنهم من تغلب عليه هذه كما قال تعالى ﴿ يا ايتها النفس المطمئنة - ولا اقسم بالنفس اللوامة - ان النفس لأمارة بالسوء ﴾ والتحقيق انها نفس واحدة لها صفات فهي امارة بالسوء فاذا عارضها الايمان صارت لوامة تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها وتلوم بين الفعل والترك فاذا قوي الايمان صارت مطمئنة . ولهذا قال النبي ﷺ «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن» وقوله لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن الحديث واختلف الناس هل تموت الروح ام لا فقالت طائفة تموت لانها نفس وكل نفس ذائقة الموت وقد قال تعالى ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ وقال تعالى ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ قالوا واذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية اولى بالموت وقال آخرون لا تموت الارواح فأنها خلقت للبقاء وانما تموت الابدان . قالوا وقد دل على ذلك الاحاديث الدالة على نعيم الارواح وعذابها بعد المفارقة الى ان يرجعها الله في اجسادها والصواب ان يقال موت النفوس هو مفارقتها لاجسادها وخروجها منها فان اريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت وان اريد انها تعدم وتفنى بالكلية فهي لا تموت بهذا الاعتبار بل هي باقية بعد خلقها في نعيم او في عذاب . كما سيأتي ان شاء الله تعالى وقد اخبر سبحانه ان اهل الجنة لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى وتلك الموتة هي مفارقة الارواح للجسد . واما قول اهل النار ربنا امتنا اثنتين وقوله تعالى ﴿ كيف

تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحيا كم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ فالمراد انهم كانوا امواتا وهم نطف في اصلاب آبائهم وفي ارحام امهاتهم ثم احياهم بعد ذلك ثم اماتهم ثم يحييهم يوم النشور وليس في ذلك اماتة ارواحهم قبل يوم القيامة ولا كانت ثلاث موتات وصعق الارواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها فان الناس يصعقون يوم القيامة اذا جاء الله لفصل القضاء واشرقت الارض بنوره وليس ذلك بموت. وسيأتي ذكر ذلك ان شاء الله تعالى. وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتا والذي يدل عليه ان نفخة الصعق والله اعلم موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق واما من ذاق الموت اولم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على انه يموت موتة ثانية والله اعلم قوله ﴿ وبعذاب القبر لمن كان له اهل وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الاخبار عن رسول الله ﷺ وعن الصحابة رضوان الله عليهم والقبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النيران ﴾ قال تعالى ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وقال تعالى ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون - يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون - وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ وهذا يحتمل ان يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وان يراد به عذابهم في البرزخ وهو اظهر لأن كثيرا منهم مات ولم يعذب في الدنيا اوالمراد اعم من ذلك وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال كنا في جنازة في بقيع الغرقد فاتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله كأن على

رؤسنا الطير وهو يلحد له فقال اعوذ بالله من عذاب القبر ثلاث مرات ثم قال
ان العبد المؤمن اذا كان في اقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت اليه
الملائكة كأن على وجوههم الشمس معهم كفن من اكفان الجنة وحنوط من
حنوط الجنة فجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند
رأسه فيقول ايتهـا النفس الطيبة اخرجي الى مغفرة من الله ورضوان قال
فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فياخذها فاذا اخذها لم يدعوها
في يده طرفة عين حتى ياخذوها فيجعلوها في ذلك الـكفن وذلك الحنوط
وتخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض قال فيصعدون بها فلا
يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة الا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون
فلان بن فلان بأحسن اسمائه التى كانوا يسمونه به في الدنيا حتى ينتهوا بها
الى السماء فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء
التى تليها حتى ينتهي بها الى السماء التى فيها الله فيقول الله عز وجل اكتبوا
كتاب عبدي في عليين واعيدوه الى الارض فاني منها خلقتهم وفيها اعيدهم
ومنها اخرجهم تارة اخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملـكان
فيجلسانه فيقولان له من ربك فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك فيقول
ديني الاسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله
فيقولان له : ماعلمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي
مناد من السماء ان صدق عبدي فافرشوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال
فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال ويأتيه رجل حسن
الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح فيقول : ابشر بالذي يسرك هذا يومك

الذي كنت توعد فيقول له: من انت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول انا عملك الصالح فيقول: يارب اقم الساعة حتى ارجع الى اهلي ومالى. قال وان العبد الكافر اذا كان في انقطاع من الدنيا واقبال من الآخرة نزل اليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: ايتها النفس الخبيثة اخرجي الى سخط من الله وغضب قال فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فاذا اخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كانتن ريح خبيثة وجدت على وجه الارض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا ماهذا فيقولون فلان ابن فلان باقبح اسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها الى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿لا تفتح لهم ابواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾ فيقول الله عز وجل «اكتبوا كتابه في سجيل في الارض السفلى فتطرح روحه طرحا» ثم قرأ ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ماهذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء ان كذب فافرشوه من النار وافتحوا له بابا الى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف اضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول ابشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول من انت فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول انا

عملك الخبيث فيقول رب لاتقم الساعة » رواه الامام احمد وابو داود وروى النسائي وابن ماجه اوله ورواه الحاكم وابو عوانة الاسفرائيني في صحيحيهما وابن حبان وذهب الى موجب هذا الحديث جميع اهل السنة والحديث وله شواهد من الصحيح . فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس ان رسول الله ﷺ قال « ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه اصحابه انه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ﷺ فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبدالله ورسوله فيقول له انظر الى مقعدك من النار ابدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا » قال قتادة وروي لنا انه يفسح له في قبره وذكر الحديث . وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ان النبي ﷺ مر بقبرين فقال « انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير اما احدهما فكان لا يستبري من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين وقال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » وفي صحيح ابي حاتم عن ابي هريرة قال قال النبي ﷺ « اذا قبر احدكم او الانسان اتاه ملكان اسودان ازرقان يقال لاحدهما المنكر وللآخر النكير » وذكر الحديث الخ . وقد تواترت الاخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك اهلا وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والايمان به ولا يتكلم في كيفيته اذ ليس للعقل وقوف على كيفيته لكونه لا عهد له به في هذه الدار والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول فان عود الروح الى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا بل تعاد الروح اليه اعادة غير الاعادة المألوفة في الدنيا فالروح لها بالبدن خمسة

أنواع من التعلق متغايرة الاحكام (أحدها) تعلقها به في بطن الام جنينا (الثاني) تعلقها به بعد خروجه الى وجه الارض (الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه (الرابع) تعلقها به في البرزخ فانها وان فارقته وتجردت عنه فانها لم تفارقه فراقاً كلياً بحيث لا يبقى لها اليه التفات ألبتة فانه ورد ردها اليه وقت سلام المسلم وورد انه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه وهذا الرد اعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة (الخامس) تعلقها به يوم بعث الاجساد وهو اكمل انواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لماقبله من انواع التعلق اليه اذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتا ولا نوما ولا فسادا فالنوم اخو الموت . فتأمل هذا يزيح عنك اشكالات كثيرة وليس السؤال في القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره وافسد منه قول من قال انه للبدن بلا روح . والاحاديث الصحيحة ترد القولين وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً باتفاق اهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به . واعلم ان عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر اولم يقبر أكلته السباع او احترق حتى صار رماداو نسف في الهواء اوصلب اوغرق في البحر وصل الى روحه وبدنه من العذاب مايصل الى المقبور وماورد من اجلاسه واختلاف اضلاعه ونحو ذلك فيجب ان يفهم عن الرسول ﷺ مراده عن غير غلو ولا تقصير فلا يحمل كلامه مالا يحتمله ولا يقصر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان فكم حصل باهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب مالا يعلمه الا الله بل سوء الفهم عن الله ورسوله اصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الاسلام وهو

اصل كل خطأ فى الفروع والاصول ولاسيما ان اضيف اليه سوء القصد والله المستعان . فالحاصل ان الدور ثلاث دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار . وقد جعل الله لكل دار احكاما تخصها وركب هذا الانسان من بدن ونفس وجعل احكام الدنيا على الابدان والارواح تبعا لها وجعل احكام البرزخ على الارواح والابدان تبعا لها فاذا جاء يوم حشر الاجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الارواح والاجساد جميعا . فاذا تأملت هذا المعنى حق التأمل ظهر لك ان كون القبر روضة من رياض الجنة اوحفرة من حفر النار مطابق للعقل وانه حق لامرية فيه وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم . ويجب ان يعلم ان النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها وان كان الله تعالى يحمي عليه التراب والحجارة التى فوقه وتحته حتى يكون اعظم حرا من جمر الدنيا ولو مسها اهل الدنيا لم يحسوا بها بل اعجب من هذا ان الرجلين يدفن احدهما الى جنب صاحبه وهذا في حفرة من النار وهذا في روضة من رياض الجنة لا يصل من هذا الى جاره شيء من حر ناره ولا من هذا الى جاره شيء من نعيمه وقدرة الله اوسع من ذلك واعجب ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما . وقد ارانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ماهو ابلغ من هذا بكثير واذا شاء الله ان يطلع على ذلك بعض عباده اطلعه وغيبه عن غيره ولو اطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والايمان بالغيب ولما تدافن الناس كما في الصحيح عنه ﷺ « لولا ان لا تدافنوا لدعوت الله ان يسمعكم من عذاب القبر ما اسمع » . ولما كانت هذه الحكمة منتفية في حق البهائم سمعت وادركت . وللناس في سؤال منكر ونكير هل هو خاص بهذه

الامة ام لا ثلاثة اقوال الثالث التوقف وهو قول جماعة منهم ابو عمر بن عبد البر فقال وفي حديث زيد بن ثابت عن النبي ﷺ انه قال « ان هذه الامة تبتلى في قبورها » منهم من يرويه تسأل وعلى هذا اللفظ يحتمل ان تكون هذه الامة خصت بذلك وهذا امر لا يقطع به ويظهر عدم الاختصاص والله اعلم . وكذلك اختلف في سؤال الاطفال ايضاً وهل يدوم عذاب القبر او ينقطع جوابه انه نوعان منه ماهو دائم كما قال تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب ﴾ وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر « ثم يفتح له باب الى النار فينظر الى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » رواه الامام احمد في بعض طرقه . والنوع الثاني انه مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض اهل العصاة الذى خفت جرائمهم فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه كما تقدم ذكره في الممحصات العشرة . وقد اختلف في مستقر الارواح ما بين الموت الى قيام الساعة فقيل ارواح المؤمنين فى الجنة وارواح الكافرين فى النار وقيل ان ارواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها وقيل على افنية قبورهم وقال مالك بلغني ان الروح مرسله تذهب حيث شاءت . وقالت طائفة: بل ارواح المؤمنين عند الله عز وجل ولم يزيدوا على ذلك وقيل ان ارواح المؤمنين بالجابية من دمشق وارواح الكافرين ببرهوت بئر بحضر موت . وقال كعب ارواح المؤمنين في عليين فى السماء السابعة وارواح الكفار فى سجين فى الارض السابعة تحت خد ابليس . وقيل ارواح المؤمنين ببئر زمزم وارواح الكافرين ببئر برهوت وقيل ارواح المؤمنين عن يمين آدم وارواح الكفار عن شماله قال ابن حزم وغيره مستقرها حيث كانت قبل خلق اجسادها . وقال ابو عمر بن عبد البر ارواح

الشهداء في الجنة وارواح عامة المؤمنين على افنية قبورهم وعن ابن شهاب انه قال بلغني ان ارواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش تغدو وتروح الى رياض الجنة تاتي ربها كل يوم تسلم عليه . وقالت فرقة مستقرها العدم المحض وهذا قول من يقول ان النفس عرض من اعراض البدن كحياته وادراكه وقولهم مخالف للكتاب والسنة . وقالت فرقة مستقرها بعد الموت ابدان أخر تناسب اخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها فتصير كل روح الى بدن حيوان يشاكل تلك الروح وهذا قول التناسخية منكري المعاد وهو قول خارج عن اهل الاسلام كلهم ويضيق هذا المختصر عن بسط ادلة هذه الاقوال والكلام عليها .

ويتلخص من ادلتها ان الارواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت . فمنها ارواح في اعلى عليين في الملأ الاعلى . وهي ارواح الانبياء صلوات الله عليهم وسلامه وهم متفاوتون في منازلهم . ومنها ارواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت وهي ارواح بعض الشهداء لا كلهم بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه . كما في المسند عن عبد الله بن جحش ان رجلا جاء الى النبي ﷺ فقال يا رسول الله « ما لي ان قتلت في سبيل الله قال الجنة فلما ولى قال الا الدين سارني به جبرائيل آنفا ومن الارواح من يكون محبوسا على باب الجنة » كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ « رأيت صاحبكم محبوسا على باب الجنة ومنهم من يكون محبوسا في قبره ومنهم من يكون في الارض » ومنها ارواح تكون في تنور الزناة والزواني وارواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة كل ذلك تشهد له السنة والله اعلم.

واما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره في قوله تعالى ﴿ ولا

تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله اموات بل احياء ولكن لا تشعرون ﴾ ان الله تعالى جعل ارواحهم فى اجواف طير خضر . كما فى حديث عبد الله بن عباس انه قال قال رسول الله ﷺ « لما اصيب اخوانكم يعني يوم احد جعل الله ارواحهم في اجواف طير خضر ترد انهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوي الى قناديل من ذهب مظللة فى ظل العرش » الحديث رواه الامام احمد وابو داود وبمعناه فى حديث ابن مسعود رواه مسلم فانهم لما بذلوا ابدانهم لله عز وجل حتى اتلفها اعداؤه فيه اعاضهم منها فى البرزخ ابدانا خيرا منها تكون فيها الى يوم القيامة ويكون نعيمها بواسطة تلك الابدان اكمل من تنعم الارواح المجردة عنها . ولهذا كانت نسمة المؤمن فى صورة طير اوكطير ونسمة الشهيد فى جوف طير . وتأمل لفظ الحديثين في الموطأ ان كعب بن مالك كان يحدث ان رسول الله ﷺ قال « ان نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله الى جسده يوم يبعثه » فقوله نسمة المؤمن تعم الشهيد وغيره ثم خص الشهيد بان قال هي فى جوف طير خضر ومعلوم انها اذا كانت في جوف طير صدق عليها انها طير فتدخل فى عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار فنصيبهم من النعيم فى البرزخ اكمل من نصيب غيرهم من الاموات على فرشهم وان كان الميت أعلى درجة من كثير منهم فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه والله اعلم وحرم الله على الارض ان تأكل اجساد الانبياء . كما روي فى السنن واما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنهم كما هو لم يتغير فيحتمل بقاؤه كذلك فى تربته الى يوم محشره ويحتمل انه يبلى مع طول المدة

والله اعلم وكأنه والله اعلم كل ما كانت الشهادة اكمل والشهيد افضل كان بقاء جسده اطول قوله ﴿ونؤمن بالبعث وجزاء الاعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان﴾

الايمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فاخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز واقام الدليل عليه ورد على المنكرين في غالب سور القرآن وذلك ان الانبياء كلهم متفقون على الايمان بالله فان الاقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب الا من عاند كفرعون بخلاف الايمان باليوم الآخر فان منكره كثيرون ومحمد ﷺ لما كان خاتم الانبياء وكان قد بعث هو والساعة كهاتين وكان هو الحاشر المفضي [1] بين تفصيل الآخرة بيانا لايوجد في شيء من كتب الانبياء . ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم انه لم يفصح بمعاد الابدان الا محمد ﷺ وجعلوا هذا حجة لهم في انه من باب التخييل والخطاب الجمهوري والقرآن بين معاد النفس عند الموت ومعاد البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الابدان ويقول من يقول منهم انه لم يخبر به الا محمد ﷺ على طريق التخييل وهذا كذب فان القيامة الكبرى هي معروفة عند الانبياء من آدم الى نوح الى ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من حين اهبط آدم فقال تعالى ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين — قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ ولما قال ابليس اللعين رب فانظرني الى يوم يبعثون قال

(١) لعله المقفى

فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم . واما نوح عليه السلام فقال والله انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا . وقال ابراهيم عليه السلام والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين الى آخر القصة وقال رب اغفرلي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب وقال رب ارني كيف تحيي الموتى الآية . واما موسى عليه السلام فقال تعالى لما ناجاه ﴿ إن الساعة آتية اكاد اخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد وانما آمن بموسى قال تعالى حكاية عنه ﴿ وياقوم اني اخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ الى قوله ﴿ يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار ﴾ الى قوله ﴿ ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ وقال موسى ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة انا هدنا اليك ﴾ وقد اخبر الله في قصة البقرة ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ وقد اخبر الله انه ارسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات القرآن واخبر عن اهل النار انهم اذا قال لهم خزنتها ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ وهذا اعتراف من اصناف الكفار الداخلين جهنم ان الرسل انذرتهم لقاء يومهم هذا فجميع الرسل انذروا بما انذر به خاتمهم من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة . فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها في الدنيا والآخرة وامر نبيه ان يقسم على المعاد فقال ﴿ وقال الذين كفروا

لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب ﴾ الآيات وقال تعالى ﴿ ويستنبئونك احق هو قل إي وربي انه لحق وما انتم بمعجزين ﴾ وقال تعالى ﴿ زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ واخبر عن اقترابها . فقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر - اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون - سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ﴾ الى ان قال ﴿ انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ وذم المكذبين بالمعاد فقال ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها - الا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد - بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون - واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ﴾ الى ان قال ﴿ وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين - ان الساعة آتية لا ريب فيها ولكن اكثر الناس لا يؤمنون - ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا - ذلك جزاؤهم بانهم كفروا باياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا - او لم يروا ان الله الذي خلق السموات والارض قادر على ان يخلق مثلهم وجعل لهم اجلا لا ريب فيه فابى الظالمون الا كفورا - وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا قل كونوا حجارة اوحديدا اوخلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم اول مرة فسينغضون اليك رؤسهم ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريبا يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا ﴾ . فتأمل ماجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل فانهم قالوا اولا ﴿ أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون

خلقا جديداً ﴾ فقيل لهم في جواب هذا السؤال ان كنتم تزعمون انه لاخالق لكم ولارب لكم فهلا كنتم خلقا لا يفنيه الموت كالحجارة والحديد وماهو اكبر في صدوركم من ذلك فان قلتم كنا خلقا على هذه الصفة التى لاتقبل البقاء فما الذي يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين اعادتكم خلقا جديدا اوللحجة تقديرا آخر وهو لو كنتم من حجارة اوحديد اوخلق اكبر منهما قادر على ان يفنيكم ويحيل ذواتكم وينقلها من حال الى حال ومن يقدر على التصرف في هذه الاجسام مع شدتها وصلابتها بالافناء والاحالة فما الذي يعجزه فيما دونها ثم اخبر انهم يسألون آخراً بقولهم من يعيدنا اذا استحالت جسومنا وفنيت . فاجابهم بقوله ﴿ قل الذي فطركم اول مرة ﴾ فلما اخذتهم الحجة ولزمهم حكمها انتقلوا الى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع وهو قولهم متى هو ﴿ فاجيبوا بقوله عسى ان يكون قريبا ﴾ ومن هذا قوله ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ الى آخر السورة . فلو رام اعلم البشر وافصحهم واقدرهم على البيان ان يأتي باحسن من هذه الحجة او بمثلها بالفاظ تشابه هذه الالفاظ في الايجاز ووضع الادلة وصحة البرهان لما قدر فانه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال اورده ملحد اقتضى جوابا فكان في قوله ﴿ ونسي خلقه ﴾ ما يفي بالجواب واقام الحجة وازال الشبهة لما اراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها فقال ﴿ قل يحييها الذي انشأها اول مرة ﴾ . فاحتج بالابداء على الاعادة وبالانشاء الاول على النشأة الاخرى اذ كل عاقل يعلم ضروريا ان من قدر على هذه وانه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الاولى اعجز واعجز ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك بقوله ﴿ وهو

بكل خلق عليم ﴾ فهو عليم بتفاصيل الخلق الاول وجزئياته ومواده وصورته فكذلك الثاني. فاذا كان تام العلم، كامل القدرة كيف يتعذر عليه ان يحيي العظام وهي رميم ثم اكد الامر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام اذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد ان تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على امر البعث ففيه الدليل والجواب. فقال ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون ﴾ فاخبر سبحانه باخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الاخضر الممتلىء من الرطوبة والبرودة فالذي يخرج الشيء من ضده وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما انكره الملحد ودفعه من احياء العظام وهي رميم. ثم اكد هذا باخذ الدلالة من الشيء الاجل الاعظم على الايسر الاصغر فان كل عاقل يعلم ان من قدر على العظيم الجليل فهو على مادونه بكثير أقدر وأقدر فمن قدر على حمل قنطار قدر على حمل اوقية اشد اقتدارا فقال ﴿ اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر ان يخلق مثلهم ﴾ فاخبر ان الذي ابدع السموات والارض على حالتهما وعظم شأنهما وكبر اجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما اقدر على ان يحيي عظاما قد صارت رميما فيردها الى حالتها الاولى كما قال فى موضع آخر ﴿ لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقال ﴿ اوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ ثم اكد سبحانه ذلك وبينه ببينات اخر وهو انه ليس فعله بمنزلة غيره الذي يفعل بالآلات والكلفة والنصب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من

آلة ومعين بل يكفي في خلقه لما يريد ان يخلقه ويكونه نفس ارادته. وقوله للمكون كن فاذا هو كائن كما شاء واراده ثم ختم هذه الحجة باخباره ان ملكوت كل شيء بيده فيتصرف فيه بفعله. وقوله ﴿ واليه ترجعون ﴾ ومن هذا قوله سبحانه ﴿ أيحسب الانسان ان يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمني ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى اليس ذلك بقادر على ان يحيي الموتى ﴾ فاحتج سبحانه على انه لا يتركه مهملا عن الامر والنهي والثواب والعقاب وان حكمته وقدرته تأبى ذلك اشد الاباء كما قال تعالى ﴿ افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ﴾ الى آخر السورة فان من نقله من النطفة الى العلقه ثم الى المضغة ثم شق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والاعصاب والرباطات التي هي اشده واحكم خلقه غاية الاحكام واخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي اتم الصور واحسن الاشكال كيف يعجز عن اعادته وانشائه مرة ثانية ام كيف تقتضي حكمته وعنايته به ان يتركه سدى فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته. فانظر الى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون اوجز منه والبيان الجليل الذي لا يتوهم اوضح منه ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على اقرب منه. وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج كما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ﴾ الى ان قال ﴿ وان الله يبعث من في القبور ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ﴾ الى ان قال ﴿ ثم انكم يوم القيامة تبعثون ﴾ وذكر قصة اصحاب الكهف وكيف ابقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية وثلاثمائة وتسع سنين قمرية وقال فيها ﴿ وكذلك اعثرنا عليهم

ليعلموا ان وعد الله حق وان الساعة لاريب فيها ﴾ والقائلون بأن الاجسام مركبة من الجواهر المفردة لهم في المعاد خبط واضطراب وهم فيه على قولين : منهم من يقول تعدم الجواهر ثم تعاد . ومنهم من يقول تفرق الأجزاء ثم تجتمع فاورد عليهم الانسان الذي يأكله حيوان وذلك اكله انسان فان اعيدت تلك الاجزاء من هذا لم تعد من هذا واورد عليهم ان الانسان يتحال دائما فما ذا الذي يعاد اهو الذي كان وقت الموت . فان قيل بذلك لزم ان يعاد على صورة ضعيفة وهو خلاف ما جاءت به النصوص وان كان غير ذلك فليس بعض الابدان بأولى من بعض فادعى بعضهم ان في الانسان اجزاء اصلية لا تتحال ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي اكله الثاني والعقلاء يعلمون ان بدن الانسان نفسه كله يتحال ليس فيه شيء باق فصار ماذكروه في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في انكار معاد الابدان والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء ان الاجسام تنقلب من حال الى حال فتستحيل ترابا ثم انشأها الله نشأة اخرى كما استحال في النشأة الاولى فانه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار عظاما ولحما ثم انشأه خلقا سويا كذلك الاعادة يعيده الله بعد ان يبلى كله الاعجب الذنب . كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « كل ابن آدم يبلى الاعجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب » وفي حديث آخر « ان السماء تمطر مطرا كمني الرجال ينبتون في القبور كما ينبت النبات » فالنشأتان نوعان تحت جنس يتفقان ويتماثلان من وجه ويفترقان ويتنوعان من وجه والمعاد هو الاول بعينه وان كان بين لوازم الاعادة ولوازم البداءة فرق فعجب الذنب هو الذي يبقى وأما سائره فيستحيل فيعاد من المادة التي استحال اليها . ومعلوم

ان من رأى شخصا وهو صغير ثم رآه وقدصار شيخا علم ان هذاهو ذاك مع انه دائما في تحلل واستحالة . وكذلك سائر الحيوان والنبات فمن راى شجرة وهي صغيرة ثم راها كبيرة قال هذه تلك وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة حتى يقال ان الصفات هى المغيرة لاسيما اهل الجنة اذا دخلوها فانهم يدخلونها على صورة آدم طوله ستون ذراعا كما ثبت في الصحيحين وغيرهما وروي ان عرضه سبعة اذرع وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات وهذه النشأة فانية معرضة للآفات . وقوله وجزاء الاعمال قال تعالى ﴿ مالك يوم الدين - يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق بين ﴾ والدين الجزاء يقال كما تدين تدان أي كما تجازى تجازى وقال تعالى ﴿ جزاءا بما كانوا يعملون - جزاءا وفاقا — من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون — من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون — من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ وامثال ذلك وقال ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل من حديث ابي ذر الغفاري رضي الله عنه « يا عبادي انما هي اعمالكم احصيها لكم ثم اوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن الا نفسه » وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب ان شاء الله تعالى . وقوله والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب قال تعالى ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على ارجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى

منكم خافية ﴾ الى آخر السورة ﴿ يا أيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فلاقيه فامامن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى اهله مسرورا ـ واما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا انه كان في اهله مسرورا انه ظن ان لن يحور بلى ان ربه كان به بصيرا ـ وعرضوا على ربك صفاً لقدجئتمونا كما خلقناكم اول مرة ـ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الااحصاها ووجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربك احدا ـ يوم تبدل الارض غير الارض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ الى آخر السورة ﴿ رفيع الدرجات ذوا العرش يلقي الروح من امره على من يشاء من عباده ﴾ الى قوله ﴿ ان الله سريع الحساب ـ واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ . وروى البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة ان النبي ﷺ قال « ليس احد يحاسب يوم القيامة الا هلك » فقلت يارسول الله أليس قدقال الله تعالى ﴿ فامامن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابايسيراً ﴾ فقال رسول الله ﷺ « انما ذلك العرض وليس احد يناقش الحساب يوم القيامة الا عذب » يعني انه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولكنه تعالى يعفو ويصفح وسيأتي لذلك زيادة بيان ان شاء الله تعالى . وفي الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « ان الناس يصعقون يوم القيامة فاكون اول من يفيق فاذا موسى آخذ بقائمة العرش فلا ادري افاق قبلي ام جوزي بصعقة يوم الطور » وهذا صعق في موقف القيامة اذاجاء الله لفصل القضاء واشرقت الارض بنوره فحينئذ يصعق الخلائق كلهم . فان

قيل كيف تصنعون بقوله في الحديث ان الناس يصعقون يوم القيامة فاكون اول من تنشق عنه الارض فاجد موسى باطشاً بقائمة العرش قيل لاريب ان هذا اللفظ قد ورد هكذا ومنه نشأ الاشكال ولكنه دخل فيه منه على الراوي حديث في حديث فركب بين اللفظين فجاء هذان الحديثان هكذا احدهما « ان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون اول من يفيق » كما تقدم والثاني « انا اول من تنشق عنه الارض يوم القيامة » فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر . وممن نبه على هذا ابو الحجاج المزي وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم . وشيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير رحمهم الله وكذلك اشتبه على بعض الرواة فقال فلا ادري افاق قبلي ام كان ممن استثنى الله عز وجل والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الاول وعليه المعنى الصحيح فان الصعق يوم القيامة لتجلى الله لعباده اذا جاء لفصل القضاء فموسى عليه السلام ان كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي ربه يوم القيامة فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله . وروى الامام احمد والترمذي وابو بكر بن ابي الدنيا عن الحسن قال سمعت اباموسى الاشعري يقول قال رسول الله ﷺ «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فعرضتان جدال ومعاذير وعرضة تطاير الصحف فمن اوتي كتابه بيمينه وحوسب حساباً يسيرا دخل الجنة ومن اوتي كتابه بشماله دخل النار » وقد روى ابن ابي الدنيا عن ابن المبارك انه انشد في ذلك شعرا :

وطارت الصحف في الايدي منشرة * فيها السرائر والاخبار تطلع

فكيف سهوك والانباء واقعة * عما قليل ولا تدري بما تقع
أفي الجنان وفوز لا انقطاع له * أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع
تهوي بساكنها طورا وترفعهم * اذا رجوا مخرجا من غمها قمعوا
طال البكاء فلم يرحم تضرعهم * فيها ولا رقية تغني ولا جزع
لينفع العلم قبل الموت عالمه * قدسال قوم بها الرجعى فما رجعوا

وقوله والصراط اي ونؤمن بالصراط وهو جسر على جهنم اذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف الى الظلمة التي دون الصراط كما قالت عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ سئل أين الناس يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فقال: هم في الظلمة دون الجسر وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول اليهم. وروى البيهقي بسنده عن مسروق عن عبدالله قال « يجمع الله الناس يوم القيامة » الى ان قال « فيعطون نورهم على قدر اعمالهم قال فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطي دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر من يعطي نوره على ابهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة اذا اضاء قدم قدمه واذا طفيء قام قال فيمر ويمرون على الصراط والصراط كحد السيف، دحض، مزلة فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب ومنهم كالريح ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كاشد الرحل ويرمل رملا فيمرون على قدر اعمالهم حتى يمر الذي نوره على ابهام قدمه قدمه تخر يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار قال فيخلصون فاذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد

ان اراناك لقد اعطانا الله مالم يعط احد » الحديث واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى ﴿ وان منكم الا واردها ﴾ ماهو والاظهر والاقوي انه المرور على الصراط قال تعالى ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ . وفي الصحيح انه ﷺ قال « والذي نفسي بيده لايلج النار احد بايع تحت الشجرة » قالت حفصة فقلت يارسول الله : أليس الله يقول ﴿ وان منكم الا واردها ﴾ فقال ألم تسمعيه قال ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ اشار ﷺ الى ان ورود النار لايستلزم دخولها وان النجاة من الشر لاتستلزم حصوله بل تستلزم انعقاد سببه فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم . ولهذا قال تعالى ﴿ ولما جاء امرنا نجينا هودا - فلما جاء امرنا نجينا صالحا - ولما جاء امرنا نجينا شعيبا ﴾ ولم يكن العذاب اصابهم ولكن اصاب غيرهم ولولا ماخصهم الله به من اسباب النجاة لأصابهم ما اصاب اولئك وكذلك حال الوارد في النار يمرون فوقها على الصراط ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور ان الورود هو الورود على الصراط . وروى الحافظ ابو نصر الوائلي عن ابي هريرة رضي الله قال قال ﷺ « علم الناس سنتي وان كرهوا ذلك وان احببت ان لاتوقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلاتحدثن في دين الله حدثا برأيك » اورده القرطبي . وروى ابو بكر بن احمد بن سلمان النجار عن يعلى بن منبه عن رسول الله ﷺ قال « تقول النار للمؤمن يوم القيامة جز يامؤمن فقد أطفأ نورك لهبي » وقوله والميزان اي ونؤمن بالميزان قال تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلاتظلم نفس شيئا وان كان

مثقال حبة من خردل اتينابها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم في جهنم خالدون ﴾ قال القرطبي قال العلماء : اذا انقضى الحساب كان بعده وزن الاعمال لان الوزن للجزاء فينبغي ان يكون بعد المحاسبة فان المحاسبة لتقرير الاعمال والوزن لاظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال . وقوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة يحتمل ان يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الاعمال ويحتمل ان يكون المراد الموزونات فجمع باعتبار تنوع الاعمال الموزونة والله اعلم والذي دلت عليه السنة ان ميزان الاعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان . روى الامام احمد من حديث ابي عبد الرحمن الحبلي قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول قال رسول الله ﷺ ان الله سيخلص رجلا من امتي على رؤس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول له اتنكر من هذا شيئا اظلمك كتبتي الحافظون قال لا يارب فيقول الك عذر او حسنة فيبهت الرجل فيقول لا يارب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة واحدة لاظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فيقول احضروه فيقول يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول انك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم . وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه وابن ابي الدنيا من حديث الليث زاد الترمذي « ولا يثقل شيء اسم الله » وفي سياق آخر « توضع الموازين يوم القيامة فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة » الحديث وفي

هذا السياق فائدة جليلة وهي ان العامل يوزن مع عمله ويشهد له ما روى البخاري عن ابي هريرة عن النبي ﷺ قال « انه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة قال اقرؤا ان شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » وروى الامام احمد عن ابن مسعود انه كان يجتني سواكا من الاراك وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفيه فضحك القوم منه فقال رسول الله ﷺ « مم تضحكون » قالوا يا نبي الله من دقة ساقيه فقال « والذي نفسي بيده لهما اثقل في الميزان من احد » وقد وردت الاحاديث ايضا بوزن الاعمال انفسها كما في صحيح مسلم عن ابي مالك الاشعري قال قال رسول الله ﷺ « الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان » وفي الصحيح وهو خاتمة كتاب البخاري قوله ﷺ « كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان الى الرحمن ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » وروى الحافظ ابو بكر البيهقي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « يؤتي بابن آدم يوم القيامة فيوقف بين كفتي الميزان ويوكل به ملك فان ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها ابدا . وان خف ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها ابدا » فلا يلتفت الى ملحد معاند يقول الاعمال اعراض لا تقبل الوزن وانما يقبل الوزن الاجسام فان الله يقلب الاعراض اجساما كما تقدم وكما روى الامام احمد عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « يؤتي بالموت كبشا اغر فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون . ويقال يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ويرون ان قد جاء الفرج فيذبح ويقال خلود لا موت » ورواه

البخاري بمعناه فثبت وزن الاعمال والعامل وصحائف الاعمال وثبت ان الميزان له كفتان والله تعالى اعلم بما وراء ذلك من الكيفيات فعلينا الايمان بالغيب. كما اخبرنا الصادق ﷺ من غير زيادة ولا نقصان. ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما اخبر الشارع لخفاء الحكمة عليه ويقدح في النصوص بقوله لا يحتاج الى الميزان الا البقال والفوال وما احراه بان يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا ولو لم يكن من الحكمة في وزن الاعمال الا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده فانه لا احد احب اليه العذر من الله من اجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه. فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون وقال تعالى ﴿ وما أوتيتم من العلم الا قليلا ﴾ وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله أن الحوض قبل الميزان والصراط بعد الميزان. ففي الصحيحين ان المؤمنين اذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فاذا هذبوا ونقوا اذن لهم في دخول الجنة وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة وليس يسقط منه احد في النار والله تعالى اعلم. قوله ﴿والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدا

ولا تبيدان فان الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما اهلا فمن شاء

منهم الى الجنة فضلا منه ومن شاء منهم الى النار عدلا منه وكل يعمل لما قد

فرغ له وصائر الى ما خلق له والخير والشر مقدران على العباد ﴾ أما قوله ان الجنة

والنار مخلوقتان فاتفق اهل السنة على ان الجنة والنار مخلوقتان موجودتان

الآن ولم يزل على ذلك اهل السنة حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فانكرت ذلك وقالت بل ينشأها الله يوم القيامة وحملهم على ذلك اصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله وانه ينبغي ان يفعل كذا ولا ينبغي له ان يفعل كذا وقاسوه على خلقه في افعالهم فهم مشبهة في الافعال وداخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة وقالوا خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مددا متطاولة فردوا من النصوص ماخالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى وحرفوا النصوص عن مواضعها وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم فمن نصوص الكتاب قوله تعالى عن الجنة ﴿ اعدت للمتقين - اعدت للذين آمنوا بالله ورسله ﴾ وعن النار ﴿ اعدت للكافرين - ان جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ﴾ وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى ورأى عندها جنة المأوى. كما في الصحيحين في حديث انس رضي الله عنه في قصة الاسراء وفي آخره « ثم انطلق بي جبرائيل حتى أتى سدرة المنتهى فغشيها الوان لا ادري ماهي قال ثم دخلت الجنة فاذا هي جنابذ اللؤلؤ واذا ترابها المسك » وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال « ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغدات والعشي ان كان من اهل الجنة فمن اهل الجنة وان كان من اهل النار فمن اهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » وتقدم حديث البراء بن عازب وفيه ينادي مناد من السماء ان صدق عبدي فافرشوه من الجنة وافتحوا له بابا الى الجنة قال فيأتيه من روحها وطيبها.

وتقدم حديث انس بمعنى حديث البراء وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله

عنها قالت خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ فذكرت الحديث وفيه وقال رسول الله ﷺ « رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به حتى لقد رأيتني آخذ قطفا من الجنة حين رأيتموني تقدمت » وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن عبدالله بن عباس قال انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فذكر الحديث وفيه فقالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك ثم رأيناك تكعكعت فقال « اني رأيت الجنة وتناولت عنقودا ولو اصبته لاكلتم منه مابقيت الدنيا ورأيت النار فلم ار منظرا كاليوم قط افظع ورأيت اكثر اهلها النساء - قالوا بم - يارسول الله قال بكفرهن - قيل ايكفرن بالله - قال يكفرن العشير ويكفرن الاحسان لو احسنت الى احداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت ما رأيت خيراً قط » وفي صحيح مسلم من حديث انس « وأيم الذي نفسي بيده لو رايتم مارايت لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا - قالوا ومارايت يارسول الله - قال رأيت الجنة والنار » وفي الموطأ والسنن من حديث كعب ابن مالك قال قال رسول الله ﷺ « انما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة حتى يرجعها الله الى جسده يوم القيامة » وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة . وفي صحيح مسلم والسنن والمسند من حديث ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « لما خلق الله الجنة والنار ارسل جبرائيل الى الجنة فقال اذهب فانظر اليها والى ما اعددت لاهلها فيها فذهب فنظر اليها والى ما اعد الله لاهلها فيها فرجع فقال وعزتك لا يسمع بها احد الا دخلها فأمر بالجنة فحفت بالمكاره فقال ارجع فانظر اليها والى ما اعددت لاهلها فيها قال فنظر اليها ثم رجع فقال وعزتك لقد خشيت ان لا يدخلها احد قال ثم

ارسله الى النار قال اذهب فانظر اليها والى ما اعددت لاهلها فيها قال فنظر اليها فاذا هي يركب بعضها بعضاً ثم رجع فقال وعزتك لا يدخلها احد سمع بها فامر بها فحفت بالشهوات ثم قال اذهب فانظر الى ما اعددت لاهلها فيها فذهب فنظر اليها فرجع فقال وعزتك لقد خشيت ان لا ينجو منها احد الا دخلها » ونظائر ذلك في السنة كثيرة . واما على قول من قال ان الجنة الموعد بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم اخرج منها فالقول بوجودها الآن ظاهر والخلاف في ذلك معروف واما شبهة من قال انها لم تخلق بعد وهي انها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارا ان تفنى يوم القيامة وان يهلك كل من فيها ويموت لقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك الا وجهه - وكل نفس ذائقة الموت ﴾ وقد روى الترمذي في جامعه من حديث ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ « لقيت ابراهيم ليلة اسري بي فقال يا محمد اقرأ امتك مني السلام واخبرهم ان الجنة طيبة التربة عذبة الماء وانها قيعان وان غراسها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر » قال هذا حديث حسن غريب. وفيه ايضا من حديث ابي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ انه قال من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة قال هذا حديث حسن صحيح قالوا فلو كانت مخلوقة مفروغا منها لم تكن قيعانا ولم يكن لهذا الغراس معنى قالوا وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون انها قالت ﴿ رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ﴾ فالجواب انكم ان اردتم بقولكم انها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور فهذا باطل يرده ما تقدم من الادلة وامثالها مما لم يذكر وان اردتم انها لم يكمل خلق جميع ما اعد الله فيها لاهلها وانها لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء واذا

دخلها المؤمنون احدث الله فيها عند دخولهم امورا آخر فهذا حق لا يمكن ردّه وأدلتكم هذه انما تدل على هذا القدر . واما احتجاجكم بقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ فأتيتم من سوء فهمكم معنى الآية واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج اخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت اهلهما فلم توفقوا انتم ولا اخوانكم لفهم معنى الآية وانما وفق لذلك أئمة الاسلام . فمن كلامهم ان المراد كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء وكذا العرش فانه سقف الجنة وقيل المراد الا ملكه وقيل الا ما اريد به وجهه وقيل ان الله تعالى انزل ﴿ كل من عليها فان ﴾ فقالت الملائكة هلك اهل الارض وطمعوا في البقاء فاخبر تعالى عن اهل السماء والارض انهم يموتون فقال ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ لانه حي لا يموت فايقنت الملائكة عند ذلك بالموت وانما قالوا ذلك توفيقا بينها وبين النصوص المحكمة الدالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار ايضا على ما يذكر عن قريب ان شاء الله تعالى . وقوله لا تفنيان ابدا ولا تبيدان هذا قول جمهور الائمة من السلف والخلف وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان امام المعطلة وليس له سلف قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم باحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من اهل السنة وانكره عليه عامة اهل السنة وكفروه به وصاحوا به وباتباعه من اقطار الارض وهذا قاله لاصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث وهو عمدة اهل الكلام المذموم التي استدلوا بها على حدوث الاجسام وحدوث ما

لم يخل من الحوادث وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم فرأي الجهم ان ما يمنع من حوادث لا اول لها فى الماضي يمنعه في المستقبل فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي وابو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الاصل لكن قال : ان هذا يقتضي فناء الحركات فقال بفناء حركات اهل الجنة والنار حتى يصيروا في سكون دائم لا يقدر احد منهم على حركة وقد تقدم الاشارة الى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل وهي مسئلة دوام فاعلية الرب تعالى وهو لم يزل ربا قادرا فعالا لما يريد فانه لم يزل حيا عليما قديراً . ومن المحال ان يكون الفعل ممتنعاً عليه لذاته ثم ينقلب فيصير ممكناً لذاته من غير تجدد شيء وليس للاول حد محدود حتى يصير الفعل ممكناً له عند ذلك الحد ويكون قبله ممتنعاً عليه فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده فاما أبدية الجنة وانها لا تفنى ولا تبيد فهذا مما يعلم بالضرورة ان الرسول ﷺ أخبر به قال تعالى ﴿ واما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ اي غير مقطوع ولا ينافي ذلك قوله ﴿ الا ما شاء ربك ﴾ . واختلف السلف في هذا الاستثناء فقيل معناه الا مدة مكثهم في النار وهذا يكون لمن دخل منهم الى النار ثم اخرج منها لا لكلهم وقيل الا مدة مقامهم فى الموقف وقيل الا مدة مقامهم في القبور والموقف وقيل هو استثناء الرب ولا يفعله كما تقول : والله لأضربنك الا ان أرى غير ذلك وانت لا تراه بل تجزم بضربه وقيل الا بمعنى الواو وهذا على قول بعض النحاة وهو ضعيف ومن يجعل الا بمعنى لكن فيكون الاستثناء منقطعاً ورجحه ابن جرير وقال

ان الله تعالى لا يخلف لوعده وقد وصل الاستثناء بقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ قالوا ونظيره ان يقول اسكنتك داري حولا الا ما شئت اي سوى ما شئت ولكن ما شئت من الزيادة عليه وقيل الاستثناء لاعلامهم بانهم مع خلودهم في مشيئة الله لانهم لا يخرجون عن مشيئته ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود كما في قوله تعالى ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي اوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا ﴾ وقوله تعالى ﴿ فان يشأ الله يختم على قلبك ﴾ وقوله ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به ﴾ . ونظائره كثيرة يخبر عباده سبحانه ان الامور كلها بمشيئته ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقيل ان ما بمعنى من اي الا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء وقيل غير ذلك وعلى كل تقدير فهذا الاستثناء من المتشابه وقوله عطاء غير مجذوذ محكم . وكذلك قوله تعالى ﴿ ان هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ وقوله ﴿ اكلها دائم وظلها ﴾ وقوله ﴿ وما هم منها بمخرجين ﴾ وقد اكد الله خلود اهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن واخبر انهم ﴿ لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الأولى ﴾ وهذا الاستثناء منقطع . واذا ضممته الى الاستثناء في قوله تعالى ﴿ الا ما شاء ربك ﴾ تبين ان المراد من الآيتين واستثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود كاستثناء الموتة الاولى من جملة الموت فهذه موتة تقدمت على حياتهم الابدية وذلك مفارقة الجنة تقدمت على خلودهم فيها والادلة من السنة على ابدية الجنة ودوامها كثيرة . كقوله عليه السلام « من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت » وقوله « ينادي مناد يا اهل الجنة ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا وان تشبوا فلا تهرموا ابدا وان تحيوا فلا

تموتوا ابدا » وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار ويقال « يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت » واما ابدية النار ودوامها فللناس في ذلك ثمانية اقوال (احدها) ان من دخلها لا يخرج منها ابد الآباد وهذا قول الخوارج والمعتزلة (والثاني) ان اهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم وهذا قول امام الاتحادية ابن عربي الطائي (الثالث) ان اهلها يعذبون فيها الى وقت محدود ثم يخرجون منها ويخلفهم فيها قوم آخرون وهذا القول حكاه اليهود للنبي ﷺ واكذبهم فيه وقد اكذبهم الله تعالى فقال عز من قائل ﴿ وقالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودة قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف عهده ام تقولون على الله ما لا تعلمون - بلى من كسب سيئة واحاطت به خطيئته فاولئك اصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (الرابع) يخرجون منها وتبقى على حالها ليس فيها احد (الخامس) انها تفنى بنفسها لانها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه وهذا قول الجهم وشيعته ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار كما تقدم (السادس) تفنى حركات اهلها ويصيرون جمادا لا يحسون بألم وهذا قول ابي الهذيل كما تقدم (السابع) ان الله يخرج منها من يشاء كما ورد في الحديث ثم يبقيها شيئاً ثم يفنيها فانه جعل لها امدا تنتهي اليه (الثامن) ان الله تعالى يخرج منها من يشاء كما ورد في السنة ويبقي فيها الكفار بقاء لا انقضاء له . كما قال الشيخ رحمه الله وما عدا هذين القولين الاخيرين ظاهر البطلان وهذان القولان لاهل السنة ينظر في دليليهما فمن ادلة القول الاول منهما قوله تعالى ﴿ قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم ﴾ وقوله تعالى ﴿ فأما الذين شقوا

في النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والارض إلا ما شاء ربك ان ربك فعال لما يريد ﴾ ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لاهل الجنة وهو قوله ﴿ عطاءً غير مجذوذ ﴾ وقوله تعالى ﴿ لابثين فيها احقابا ﴾ وهذا القول اعني القول بفناء النار دون الجنة منقول عن عمر وابن مسعود وابي هريرة وابي سعيد وغيرهم وقد روى عبد ابن حميد في تفسيره المشهور بسنده الى عمر رضي الله عنه انه قال «لو لبث اهل النار في النار كقدر رمل عالج لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه » ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿ لابثين فيها احقابا ﴾ قالوا والنار موجب غضبه والجنة موجب رحمته وقد قال ﷺ «لما قضى الله الخلق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش ان رحمتي سبقت غضبي » وفي رواية تغلب غضبي رواه البخاري في صحيحه من حديث ابي هريرة رضي الله عنه قالوا والله سبحانه يخبر عن العذاب انه ﴿ عذاب يوم عظيم — وأليم — وعقيم ﴾ ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم انه نعيم يوم وقد قال تعالى ﴿ عذابي اصيب به من اشاء ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ وقال تعالى حكاية عن الملائكة ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ فلا بد ان تسع رحمته هؤلاء المعذبين فلو بقوا فى العذاب لا الى غاية لم تسعهم رحمته . وقد ثبت فى الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة والمعذبون فيها متفاوتون فى مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم وليس في حكمة احكم الحاكمين ورحمة ارحم الراحمين أن يخلق خلقاً يعذبهم أبد الآباد عذابا سرمدا لانهاية له واما أنه يخلق خلقاً ينعم اليهم ويحسن اليهم نعيما سرمداً فمن مقتضى الحكمة والاحسان مراد لذاته والانتقام مراد بالعرض قالوا وما ورد من الخلود فيها والتأبيد

وعدم الخروج وان عذابها مقيم وانه غرام كله حق مسلم لا نزاع فيه وذلك يقتضى الخلود في دار العذاب ما دامت باقية وانما يخرج منها في حال بقائها اهل التوحيد ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه ومن ادلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله ﴿ولهم عذاب مقيم - لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون - فلن نزيدكم الا عذابا - خالدين فيها ابدا - وما هم منها بمخرجين - وما هم بخارجين من النار - لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط - لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها - ان عذابها كان غراما﴾ اي مقيما لازما . وقد دلت السنة المستفيضة انه يخرج من النار من قال لا اله الا الله واحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار وان هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم ولم يختص الخروج باهل الايمان وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما بل بابقاء الله لهما . وقوله وخلق لهما اهلا قال تعالى ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس﴾ الآية . وعن عائشة رضي الله عنها قالت دعي رسول الله ﷺ الى جنازة صبي من الانصار فقلت يارسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوءا ولم يدركه فقال «اوغير ذلك يا عائشة ان الله خلق للجنة اهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم وخلق للنار اهلا خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم» رواه مسلم وابو داود والنسائي . وقال تعالى ﴿انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا - انا هديناه السبيل اما شاكراً واما كفوراً﴾ والمراد الهداية العامة واعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى ﴿الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ فالموجودات نوعان .

احدهما مسخر بطبعه . والثاني متحرك بارادته فهدى الاول لما سخره له طبيعة وهدى الثاني هداية ارادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره . ثم قسم الانواع الى ثلاثة انواع نوع لا يريد الا الخير ولا يتأتى منه ارادة سواه كالملائكة . ونوع لا يريد الا الشر ولا يتأتى منه ارادة سواه كالشيطان . ونوع يتأتي منه ارادة القسمين كالانسان . ثم جعله ثلاثة اصناف صنف يغلب ايمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته فيلتحق بالملائكة وصنف عكسه فيلتحق بالشياطين وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله فيلتحق بالبهائم . والمقصود انه سبحانه اعطى الوجودين العيني والعلمي فكما انه لا موجود الا بايجاده فلا هداية الا بتعليمه وذلك كله من الادلة على كمال قدرته وثبوت وحدانيته وتحقيق ربوبيته سبحانه وتعالى . وقوله فمن شاء منهم الى الجنة فضلا منه ومن شاء منهم الى النار عدلا منه الخ مما يجب ان يعلم ان الله تعالى لا يمنع الثواب الا اذا منع سببه وهو العمل الصالح فانه من يعمل الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما . وكذلك لا يعاقب احدا الا بعد حصول سبب العقاب فان الله تعالى يقول ﴿وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير﴾ وهو سبحانه المعطى المانع لا مانع لما اعطى ولا معطى لما منع لكن اذا من على الانسان بالايمان الصالح لا يمنعه موجب ذلك اصلا بل يعطيه من الثواب والقرب مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وحيث منعه ذلك فلا انتفاء لسببه وهو العمل الصالح . ولا ريب انه يهدي من يشاء ويضل من يشاء لكن ذلك كله حكمة منه وعدل فمنعه للاسباب التي هي الاعمال الصالحة من حكمته وعدله . واما المسببات بعد وجود اسبابها فلا يمنعها بحال اذا لم

تكن اسبابا غير صالحة اما لفساد في العمل واما السبب يعارض موجبه ومقتضاه فيكون ذلك لعدم المقتضي اولوجود المانع واذا كان منعه وعقوبته من عدم الايمان والعمل الصالح وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداءا بل حكمة منه وعدلا فله الحمد في الحالين وهو المحمود على كل حال كل عطاء منه فضل وكل عقوبة منه عدل فان الله تعالى حكيم يضع الاشياء في مواضعها التي تصلح لها كما قال تعالى ﴿ واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله — الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وكما قال تعالى ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ ونحو ذلك وسيأتي لذلك زيادة ان شاء الله تعالى قوله ﴿ والاستطاعة التي يجب بها الفعل من نحو التوفيق الذي لا يجوز ان يوصف المخلوق بها تكون به مع الفعل واما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فهي قبل الفعل وبها يتعلق الخطاب وهو كما قال تعالى ﴿ لا يكلف الله نفساً الا وسعها ﴾ الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع الفاظ متقاربة وتنقسم الاستطاعة الى قسمين كما ذكره الشيخ رحمه الله وهو قول عامة اهل السنة وهو الوسط وقالت القدرية والمعتزلة : لا تكون القدرة الا قبل الفعل وقابلهم طائفة من اهل السنة فقالوا : لا تكون الا مع الفعل والذي قاله عامة اهل السنة ان للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي وهذه قد تكون قبله لا يجب ان تكون معه والقدرة التي بها الفعل لابد ان تكون مع الفعل لايجوز ان يوجد الفعل بقدرة معدومة واما القدرة التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات فقد تتقدم الافعال وهذه القدرة المذكورة في قوله

﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا﴾ فاوجب الحج على المستطيع فلولم يستطع الامن حج لم يكن الحج قد وجب الاعلى من حج ولم يعاقب احداً على ترك الحج وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الاسلام وكذلك قوله تعالى ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى لم يكن قداوجب التقوى الا على من اتقى ولم يعاقب من لم يتق وهذا معلوم الفساد. وكذا قوله تعالى ﴿فمن لم يستطع فاطعام ستين مسكينا﴾ والمراد منه استطاعة الاسباب والآلات. وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين ﴿لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ وكذبهم فى ذلك القول ولو كانوا ارادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل ما كانوا بنفيهم عن انفسهم كاذبين وحيث كذبهم دل على انهم ارادوا بذلك المرض اوفقد المال على ما بين تعالى بقوله ﴿ليس على الضعفاء ولا على المرضى﴾ الى ان قال ﴿انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات المؤمنات﴾ والمراد استطاعة الآلات والاسباب. ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين «صل قائما فان لم تستطع فقاعداً فان لم تستطع فعلى الجنب» وانما نفى استطاعة الفعل معها واما ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة فقد ذكروا فيها قوله تعالى ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ والمراد نفي حقيقة القدرة لا نفي الاسباب والآلات لانها كانت ثابتة. وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله (ولايطيقون الا ما كلفهم) ان شاء الله تعالى. وكذا قول صاحب موسى ﴿انك لن تستطيع معي صبراً﴾ وقوله ﴿ألم أقل لك

انك لن تستطيع معي صبراً ﴾ والمراد منه حقيقة قدرة الصبر لا اسباب الصبر وآلاته فان تلك كانت ثابتة له الاترى انه عاتبه على ذلك ولا يلام من عدم آلات الفعل واسبابه على عدم الفعل وانما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل لاشتغاله بغير ماامر به اوشغله اياها بفعل ما امر به ومن قال ان القدرة لا تكون الاحين الفعل يقولون ان القدرة لا تصلح للضدين فان القدرة المقارنة للفعل لاتصلح الا لذلك الفعل وهى مستلزمة له لاتوجد بدونه وماقالته القدرية بناء على اصلهم الفاسد وهو اقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء فلا يقولون ان الله خص المؤمن المطيع باعانة حصل بها الايمان بل هذا بنفسه رجح الطاعة وهذا بنفسه رجح المعصية كالوالد الذي اعطى كل واحد من بنيه سيفاً فهذا جاهد به في سبيل الله وهذا قطع به الطريق وهذا القول فاسد باتفاق اهل السنة والجماعة المثبتين للقدر فانهم متفقون على ان الله على عبده المطيع نعمة دينية خصه بها دون الكافر وانه اعانه على الطاعة اعانة لم يعن بها الكافر كما قال تعالى ﴿ ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون ﴾ فالقدرية يقولون هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق وهو بمعنى البيان واظهار دلائل الحق والآية تقتضي ان هذا خاص بالمؤمن . ولهذا قال ﴿ اولئك هم الراشدون ﴾ والكفار ليسوا راشدين وقال تعالى ﴿ فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾ وامثال هذه الآية في القرآن كثير يبين انه

سبحانه هدى هذا واضل هذا قال تعالى ﴿ من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ وسيأتي لهذه المسئلة زيادة بيان ان شاء الله تعالى . وايضا فقول القائل يرجح بلا مرجح ان كان لقوله يرجح معنى زائد على الفعل فذاك هو السبب المرجح وان لم يكن له معنى زائد كما ان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل ثم الفعل حصل في احدى الحالتين دون الاخرى بلا مرجح وهذا مكابرة للعقل . فلما كان اصل قول القدرية ان فاعل الطاعات وتاركها كلاهما في الاعانة والاقدار سواء امتنع على اصلهم ان يكون مع الفعل قدرة تخصه لان القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك وانما تكون للفاعل ولا تكون القدرة الا من الله تعالى وهم لما راوا ان القدرة لا بد ان تكون قبل الفعل قالوا لا يكون مع الفعل لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك وحال وجود الفعل يمتنع الترك فلهذا قالوا القدرة لا تكون الا قبل الفعل وهذا باطل قطعا فان وجود الامر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع بل لا بد ان يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الامور الوجودية موجودا عند الفعل فنقيض قولهم حق وهو ان الفعل لا بد ان يكون معه قدرة لكن صار اهل الاثبات هنا حزبين حزب قالوا لا تكون القدرة الا معه ظنا منهم ان القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين وظنا من بعضهم ان القدرة عرض فلا يبقى زمانين فيمتنع وجودها قبل الفعل والصواب ان القدرة نوعان كما تقدم نوع مصحح للفعل يمكن معه الفعل والترك وهذه هي التي يتعلق بها الامر والنهي وهذه تحصل للمطيع والعاصي ويكون قبل الفعل وهذه تبقى الى حين الفعل اما بنفسها عند من يقول ببقاء الاعراض واما بتجدد امثالها

عند من يقول ان الاعراض لا تبقى زمانين بهذه قد تصلح للضدين وامر الله مشروط بهذه الطاقة فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة وضد هذه العجز كما تقدم وايضا فالاستطاعة المشروطة في الشرع اخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها فان الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وان لم يعجز عنه فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر وما جعل عليكم في الدين من حرج والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه فهذا في الشرع غير مستطيع لأجل حصول الضرر عليه وان كان قد يسمى مستطيعا فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية الى مجرد امكان الفعل بل ينظر الى لوازم ذلك فان كان الفعل ممكنا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه او ماله او يصلي قائما مع زيادة مرضه او يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشة ونحو ذلك فان كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة فكيف يكلف مع العجز ولكن هذه الاستطاعة مع بقائها الى حين الفعل لا تكفي في وجود الفعل ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل بل لابد من احداث اعانة اخرى تقارن مثل جعل الفاعل مريدا فان الفعل لا يتم الا بقدرة وارادة والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الارادة الجازمة بخلاف المشروطة في التكليف فانه لا يشترط فيها الارادة فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده لكن لا يأمر به من لو اراده لعجز عنه وهكذا امر الناس بعضهم لبعض فالانسان يأمر عبده بما لا يريده العبد لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد واذا اجتمعت الارادة الجازمة والقوة التامة لزم وجود الفعل وعلى هذا ينبني

تكليف ما لا يطاق فان من قال القدرة لا تكون الا مع الفعل يقول كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق وما لا يطاق يفسر بشيئين بما لا يطاق للعجز عنه فهذا لم يكلفه الله احدا ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده فهذا هو الذي وقع فيه التكليف كما في امر العباد بعضهم بعضا فانهم يفرقون بين هذا وهذا فلا يأمر السيد عبده الاعمى بنقط المصاحف ويأمره اذا كان قاعدا ان يقوم ويعلم الفرق بين الامرين بالضرورة قوله ﴿وافعال العباد هي خلق الله وكسب من العباد﴾ اختلف الناس في افعال العباد الاختيارية فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان الترمذي ان التدبير في افعال الخلق كلها لله تعالى وهي كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الاشجار واضافتها الى الخلق مجاز وهي على حسب ما يضاف الشيء الى محله دون ما يضاف الى محصله وقابلتهم المعتزلة فقالوا ان جميع الافعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها بخلق الله تعالى واختلفوا فيما بينهم ان الله تعالى يقدر على افعال العباد ام لا وقال اهل الحق أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهي مخلوقة لله تعالى والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه فالجبرية غلوا في اثبات القدر فنفوا صنع العبد اصلا كما عملت المشبهة في اثبات الصفات فشبهوا والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ولهذا كانوا مجوس هذه الامة بل اردى من المجوس من حيث ان المجوس اثبتوا خالقين وهم اثبتوا خالقين وهدى الله المؤمنين اهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية فانما يدل على ان الله خالق كل شيء وانه على كل شيء قدير وان افعال العباد من جملة مخلوقاته وانه ماشاء

كان وما لم يشأ لم يكن ولا يدل على ان العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار وان حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الاشجار وكل دليل صحيح يقيمه القدري فانما يدل على ان العبد فاعل لفعله حقيقة وانه مريد له مختار له حقيقة وان اضافته ونسبته اليه اضافة حق ولا يدل على انه غير مقدور لله تعالى وانه واقع بغير مشيئته وقدرته فاذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق الى حق الاخرى فانما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الاعيان والافعال وان العباد فاعلون لافعالهم حقيقة وانهم يستوجبون عليها المدح والذم وهذا هو الواقع في نفس الامر فان ادلة الحق لا تتعارض والحق يصدق بعضه بعضا ويضيق هذا المختصر عن ذكر ادلة الفريقين ولكنها تتكافأ وتتساقط ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخرين ولكن اذكر شيئا مما استدل به كل من الفريقين ثم ابين انه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل فما استدلت به الجبرية قوله تعالى ﴿وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى﴾ فنفى الله عن نبيه الرمي واثبته لنفسه سبحانه فدل على انه لا صنع للعبد قالوا والجزاء غير مرتب على الاعمال بدليل قوله ﷺ « لن يدخل احد الجنة بعمله » قالوا ولا انت يارسول الله قال « ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل » ومما استدل به القدرية قوله تعالى ﴿ فتبارك الله احسن الخالقين ﴾ قالوا والجزاء مرتب على الاعمال ترتب العوض كما قال تعالى ﴿ جزاء بما كانوا يعملون - وتلك الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ ونحو ذلك فاما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾

فهو دليل عليهم لانه تعالى اثبت لرسوله ﷺ رميا بقوله اذ رميت فعلم ان المثبت غير المنفي وذلك ان الرمي له ابتداء وانتهاء فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الاصابة وكل منهما يسمى رميا فالمعنى حينئذ والله تعالى اعلم وما اصبت اذ حذفت ولكن الله اصاب والا فطرد قولهم وما صليت اذ صليت ولكن الله صلى وما صمت اذ صمت وما زنيت اذ زنيت وما سرقت اذ سرقت وفساد هذا ظاهر . واما ترتيب الجزاء على الاعمال فقدضلت فيه الجبرية والقدرية وهدى الله اهل السنة وله الحمد والمنة فان الباء التي في النفي غير الباء التي في الاثبات فالمنفي في قوله ﷺ « لن يدخل الجنة بعمله » باء العوض وهو ان يكون العمل كالثمن لدخول الرجل الى الجنة كما زعمت المعتزلة ان العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله بل ذلك برحمة الله وفضله والباء التي في قوله تعالى ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ ونحوها باء السبب اي بسبب عملكم والله تعالى هو خالق الاسباب والمسببات فرجع الكل الى محض فضل الله ورحمته . واما استدلال المعتزلة بقوله تعالى ﴿فتبارك الله احسن الخالقين﴾ فمعنى الآية احسن المصورين المقدرين والخلق يذكر ويراد به التقدير وهو المراد هنا بدليل قوله تعالى ﴿الله خالق كل شيء﴾ اي الله خالق كل شيء مخلوق قد خلق افعال العباد في عموم كل وما افسد قولهم في ادخال كلام الله تعالى في عموم كل الذي هو صفة من صفاته يستحيل عليه ان يكون مخلوقا واخرجوا افعالهم التي هي مخلوقة من عموم كل وهل يدخل في عموم كل الا ماهو مخلوق فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم ودخل سائر المخلوقات في عمومها وكذا قوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ ولا نقول ان ما مصدرية اي خلقكم وعملكم

اذ سياق الآيه يأباه لان ابراهيم عليه السلام انما انكر عليهم عبادة المنحوت لاالنحت والآية تدل على ان المنحوت مخلوق لله تعالى وهو ما صار منحوتا الابفعلهم فيكون ماهو من آثار فعلهم مخلوقالله تعالى ولولم يكن النحت مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له بل الخشب او الحجر لاغير . وذكر ابو الحسن البصري امام المتأخرين من المعتزلة ان العلم بأن العبد يحدث فعله ضروري . وذكره الرازى ان افتقار الفعل المحدث الممكن الى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه ضروري وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ثم ادعى كل منهما ان هذا العلم الضرري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلم بل كلاهماصادق فيماادعاه من العلم الضروري وانما وقع غلطه في انكاره مامع الآخر من الحق فانه لامنافاة بين كون العبدمحدثاً لفعله وكون هذا الاحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى . كما قال تعالى ﴿ ونفس وماسواها فالهمها فجورها وتقواها﴾ فقوله فالهمها فجورها وتقواها اثبات للقدر بقوله فالهمها واثبات لفعل العبد باضافة الفجور والتقوى الى نفسه ليعلم انها هي الفاجرة والمتقية . وقوله بعد ذلك قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها اثبات ايضا لفعل العبد ونظائر ذلك كثيرة وهذه شبهة اخرى من شبه القوم التى فرقتهم بل مزقتهم كل ممزق وهي انهم قالوا كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم وهذا السؤال لم يزل مطروقا في العالم على السنة الناس وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته وعنه تفرقت بهم الطرق فطائفة اخرجت افعالهم عن قدرة الله تعالى وطائفة انكرت الحكم

والتعليل وسددت باب السؤال وطائفة اثبتت كسبا لا يعقل جعلت الثواب عليه وطائفة التزمت لاجله وقوع مقدور بين قادرين ومفعول بين فاعلين وطائفة التزمت الجبر وان الله يعذبهم على مالا يقدرون عليه وهذا السؤال هو الذي اوجب هذا التفرق والاختلاف . والجواب الصحيح عنه ان يقال ان مايبتلى به العبد من الذنوب الوجودية وان كانت خلقاً لله تعالى فهي عقوبة له على ذنوب قبلها فالذنب يكسب الذنب ومن عقاب السيئة السيئة بعدها فالذنوب كالامراض التي يورث بعضها بعضاً يبقى ان يقال فالكلام في الذنب الاول الجالب لمابعده من الذنوب يقال هو عقوبة ايضاً على عدم فعل ماخلق له وفطر عليه فان الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لاشريك له وفطره على محبته وتألهه والانابة اليه كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ فلما لم يفعل ماخلق له وفطر عليه من محبة الله وعبوديته والانابة اليه عوقب على ذلك بان زين له الشيطان مايفعله من الشرك والمعاصي فانه صادف قلباً خالياً قابلا للخير والشر ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر كما قال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين ﴾ وقال ابليس ﴿ فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين ﴾ وقال الله عز وجل ﴿ هذا صراط علي مستقيم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ والاخلاص خلوص القلب من تأله ما سوى الله تعالى وارادته ومحبته فخلص لله فلم يتمكن منه الشيطان واما اذا صادفه فارغا من ذلك تمكن منه بحسب فراغه فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الاخلاص وهي محض العدل فان قلت فذلك العدم من خلقه فيه قيل هذا

سؤال فاسد فان العدم كاسمه لا يفتقر الى تعلق التكوين والاحداث به فان عدم الفعل ليس امرا وجوديا حتى يضاف الى الفاعل بل هو شر محض والشر ليس الى الله سبحانه كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح «لبيك وسعديك والخير كله بيديك والشر ليس اليك» وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة حين يقول الله له يا محمد فيقول «لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس اليك» وقد اخبر الله تعالى ان تسليط الشيطان ﴿ انما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ فلما تولوه دون الله واشركوا به معه عوقبوا على ذلك بتسليط الله عليهم وكانت هذه الولاية والاشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الاخلاص فالهام البر والتقوى ثمرة هذا الاخلاص ونتيجته والهام الفجور عقوبة على خلوه من الاخلاص . فان قلت ان كان هذا الترك امرا وجوديا عاد السؤال جذعا وان كان امرا عدميا فكيف يعاقب على العدم المحض قيل ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه فهذا قد يقال انه امر وجودي وانما هنا عدم وخلو من اسباب الخير وهذا العدم هو محض خلوها مما هو انفع شيء لها والعقوبة على الامر العدمي هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد اقامة الحجة بالرسل فلله فيه عقوبتان احداهما جعله مذنبا خاطئا وهذه عقوبة عدم اخلاصه وانابته واقباله على الله وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وارادته وهي في الحقيقة من اعظم العقوبات والثانية العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات . وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء ﴾ فهذه العقوبة الاولى ثم قال ﴿ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ﴾ فهذه العقوبة الثانية .

فان قيل فهل كان يمكنهم ان يأتوا بالاخلاص والانابة والمحبة له وحده من غير ان يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين له محبين له ام ذلك محض جعله في قلوبهم والقائه فيها قيل لا بل هو محض منته وفضله وهو من اعظم الخير الذي هو بيده والخير كله في يديه ولا يقدر احد ان يأخذ من الخير الا ما اعطاه ولا يتقي من الشر الا ما وقاه . فان قيل فاذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم اليه بانفسهم عاد السؤال وكان منعهم منه ظلما ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون قيل لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالما وانما يكون المانع ظالما اذا منع غيره حقا لذلك الغير عليه وهذا هو الذي حرمه الرد على نفسه واوجب على نفسه خلافه واما اذا منع غيره ما ليس بحق له بل هو محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالما بمنعه فمنع الحق ظلم ومنع الفضل والاحسان عدل وهو سبحانه العدل في منعه كما هو المحسن المنان بعطائه فان قيل فاذا كان العطاء والتوفيق احسانا ورحمة فهلا كان العمل له والغلبة كما ان رحمته تغلب غضبه .
قيل المقصود في هذا المقام بيان ان هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم بل هو محض العدل وهذا سؤال عن الحكمة التي اوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال وهلا سوى بين العباد في الفضل وهذا الؤال حاصله لم يتفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقوله ﴿ لئلا يعلم اهل الكتاب ان لا يقدرون على شيء من فضل الله وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ولما سأله

اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الامة بأجرين واعطائهم اجرهم قال هل ظلمتكم من حقكم شيئاً قالوا لا قال فذلك فضلي اوتيه من اشاء وليس في الحكمة اطلاع كل فرد من افراد الناس على كمال حكمته فى عطائه ومنعه بل اذا كشف الله عن بصيرة العبد حتى ابصر جزءا يسيرا من حكمته في خلقه وامره وثوابه وعقابه وتخصيصه وحرمانه وتأمل احوال محال ذلك استدل بما علمه على ما لم يعلمه ولما استشكل اعداؤه المشركون هذا التخصيص قالوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا قال تعالى مجيبا لهم ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ فتأمل هذا الجواب ترى في ضمنه انه سبحانه اعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر من المحل الذي لا يصلح لغرسها فلو غرست فيه لم تثمر فكان غرسها هناك ضائعا لا يليق بالحكمة كما قال تعالى ﴿الله اعلم حيث يجعل رسالته﴾ فان قيل اذا حكمتم باستحالة الايجاد من العبد فاذا لافعل للعبد اصلا قيل العبد فاعل لفعله حقيقة وله قدرة حقيقة . قال تعالى ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله — فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾ وامثال ذلك . واذا ثبت كون العبد فاعلا فافعاله نوعان نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وارادته فيكون صفة له ولا يكون فعلا كحركات المرتعش ونوع يكون منه مقارنا لا يجاد قدرته واختياره فيوصف بكونه صفة وفعلا وكسباً للعبد كالحركات الاختياريه والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلا مختاراً وهو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له ولهذا انكر السلف الجبر فان الجبر لا يكون الا من عاجز فلا يكون الا مع الاكراه يقال للاب ولاية اجبار البكر الصغيرة على النكاح وليس له اجبار الثيب البالغ اي ليس له ان

يزوجها مكرهة والله تعالى لا يوصف بالاجبار بهذا الاعتبار لانه سبحانه خالق الارادة والمراد قادر ان يجعله مختارا بخلاف غيره . ولهذا جاء في الفاظ الشارع الجبل دون الجبر . كما قال ﷺ لأشج عبد القيس «ان فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والأناة فقال خلقين تخلقت بهما ام خلقين جبلت عليهما فقال بل خلقين جبلت عليهما فقال الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله تعالى» والله تعالى انما يعذب عبده على فعله الاختياري والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفطر والعقول . واذا قيل خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم كان بمنزلة ان يقال خلق اكل السم ثم حصول الموت به ظلم فكما ان هذا سبب للموت فهذا سبب للعقوبة ولا ظلم فيهما فالحاصل ان فعل العبد فعل له حقيقة ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله ليس هو نفس فعل الله ففرق بين الفعل والمفعول والخلق والمخلوق . والى هذا المعنى اشار الشيخ رحمه الله بقوله وافعال العباد خلق الله وكسب من العباد اثبت للعباد فعلا وكسبا واضاف الخلق الى الله تعالى والكسب هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع او ضرر كما قال تعالى ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ قوله ﴿ ولم يكلفهم الله تعالى الا ما يطيقون ولا يطيقون الا ما كلفهم وهو تفسير

لا حول ولا قوة الا بالله نقول لا حيلة لاحد ولا تحول لاحد ولا حركة لاحد

عن معصية الله الا بمعونة الله ولا قوة لاحد على اقامة طاعة الله والثبات عليها

الا بتوفيق الله وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرته غلبت

مشيئته المشيئات كلها وعكست ارادته الارادات كلها وغلب قضاؤه الحيل

كلها يفعل ما يشاء وهو غير ظالم ابدا لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ فقوله

لم يكلفهم الله تعالى الا مايطيقون قال تعالى ﴿ لا يكلف الله نفسا الا وسعها ـ لانكلف نفسا الا وسعها ﴾ وعند ابي الحسن الاشعري ان تكليف مالا يطاق جائز عقلا ثم تردد اصحابه انه هل ورد به الشرع ام لا واحتج من قال بوروده بامر ابي لهب بالايمان فانه تعالى اخبر بانه لا يؤمن وانه سيصلى نارا ذات لهب فكان مأمورا بان يؤمن بانه لايؤمن وهذا تكليف بالجمع بين الضدين وهو محال. والجواب عن هذا بالمنع فلانسلم بانه مأمور بانه لايؤمن والاستطاعة التي بها يقدر على الايمان كانت حاصلة فهو غير عاجز عن تحصيل الايمان فما كلف الاما يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة ولايلزم قوله تعالى للملائكة انبئوني باسماء هؤلاء مع عدم علمهم بذلك ولا للمصورين يوم القيامة احيوا ما خلقتم . وامثال ذلك لانه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه بل هو خطاب تعجيز وكذا لايلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى ﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴾ لان تحميل مالا يطاق ليس تكليفا بل يجوز ان يحمله جبلا لا يطيقه فيموت . وقال ابن الانباري اي لا تحملنا ما يثقل علينا اداؤه وان كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه قال فخاطب العرب على حسب ما تعقل فان الرجل منهم يقول للرجل يبغضه ما اطيق النظر اليك وهو مطيق لذلك لكنه يثقل عليه ولا يجوز في الحكمة ان يكلفه بحمل جبل بحيث لوفعل يثاب ولو امتنع يعاقب كما اخبر سبحانه عن نفسه انه لا يكلف نفساً الا وسعها ومنهم من يقول يجوز تكليف الممتنع عادة دون الممتنع لذاته لان ذاك لا يتصور وجوده فلا يعقل الامر به بخلاف هذا ومنهم من يقول مالايطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه بخلاف مالايطاق للاشتغال بضده فانه

يجوز تكليفه وهؤلاء موافقون للسلف والائمة في المعنى لكن كونهم جعلوا
ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركا له مشتغلا بضده بدعة في الشرع واللغة فان
مضمونه ان فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه وهم التزموا هذا لقولهم ان الطاقة التى
هي الاستطاعة وهي القدرة لا تكون الا مع الفعل فقالوا كل من لم يفعل فعلا فانه
لا يطيقه وهذا خلاف الكتاب والسنة واجماع السلف وخلاف ما عليه عامة العقلاء
كما تقدمت الاشارة اليه عند ذكر الاستطاعة . واما ما لا يكون الا مقارنا للفعل
فذلك ليس شرطاً في التكليف مع انه في الحقيقة انما هناك ارادة الفعل وقد
يحتجون بقوله تعالى ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع — انك لن تستطيع معي
صبراً ﴾ وليس في ذلك ارادة ما سموه استطاعة وهو ما لا يكون الا مع الفعل
فان الله ذم هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع ولو اراد بذلك المقارن لكان
جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك
معنى ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم اما حسدا لصاحبه واما اتباعا
للهوى لا يستطيعون السمع وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر لمخالفه لما
يراه لظاهر الشرع وليس عنده منه علم وهذه لغة العرب وسائر الامم فمن
يبغض غيره يقال انه لا يستطيع الاحسان اليه ومن يحبه يقال انه لا يستطيع
عقوبته لشدة محبته له لا لعجزه عن عقوبته فيقال ذلك للمبالغة كما يقول لاضربنه
حتى يموت والمراد الضرب الشديد وليس هذا عذراً فلو لم يأمر العباد الا بما
يهوونه لفسدت السموات والارض قال تعالى ﴿ ولو اتبع الحق اهواءهم
لفسدت السموات والارض ومن فيهن ﴾ . وقوله ولا يطيقون الا ما كلفهم
به الى آخر كلامه أى ولا يطيقون الا ما اقدرهم عليه وهذه الطاقة هي التي

من نحو التوفيق لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات ولاحول ولاقوة الا بالله دليل على اثبات القدر وقد فسرها الشيخ بعدها ولـكن في كلام الشيخ اشكال فان التكليف لا يستعمل بمعنى الاقدار وانما يستعمل بمعنى الامر والنهي وهو قال لايكلفهم الا ما يطيقون ولا يطيقون الا ما كلفهم وظاهره انه يرجع الى معنى واحد ولايصح ذلك لانهم يطيقون فوق ما كلفهم به لـكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف كما قال تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وقال تعالى ﴿ يريد الله ان يخفف عنكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ فلو زاد فيما كلفنا به لاطقناه ولـكنه تفضل علينا ورحمنا وخفف عنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج ويجاب عن هذا الاشكال بما تقدم ان المراد الطاقة التي من نحو التوفيق لامن جهة التمكن وسلامة الآلات لـكن في العبارة قلق فتأمله . وقوله وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي فان القضاء يكون كونياً وشرعياً وكذلك الارادة والامر والاذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات ونحو ذلك . اما القضاء الكوني ففي قوله تعالى ﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ والقضاء الديني الشرعي في قوله تعالى ﴿ وقضى ربك ان لا تعبدوا الا اياه ﴾ واما الارادة الكونية والدينية فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ ولا يكون الا ما يريد . واما الامر الكوني ففي قوله تعالى ﴿ انما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون ﴾ وكذا قوله تعالى ﴿ واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ في احد الاقوال وهو اقواها والامر الشرعي

في قوله تعالى ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان ﴾ الآية وقوله ﴿ ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها ﴾ واما الاذن الكوني ففي قوله تعالى ﴿ وماهم بضارين به من احد الا باذن الله ﴾ والاذن الشرعي في قوله تعالى ﴿ ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله ﴾ واما الكتاب الكوني ففي قوله تعالى ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ان ذلك على الله يسير ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون ﴾ والكتاب الشرعي الديني في قوله تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس - ياايها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾ واما الحكم الكوني ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام ﴿ فلن ابرح الارض حتى يأذن لى ابي او يحكم الله لي وهو خير الحاكمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ والحكم الشرعي في قوله تعالى ﴿ احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وانتم حرم ان الله يحكم مايريد ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ واما التحريم الكوني ففي قوله تعالى ﴿ قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض - وحرام على قرية اهلكناها انهم لا يرجعون ﴾ والتحريم الشرعي في قوله ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير - و - حرمت عليكم امهاتكم ﴾ الآية . واما الكلمات الكونية ففي قوله تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا ﴾ وفي قوله ﷺ « اعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » والكلمات الشرعية الدينية في قوله تعالى ﴿ واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾ وقوله ﴿ يفعل ما يشاء ﴾

وهو غير ظالم ابدا الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد
يقتضي قولا وسطا بين قولي القدرية والجبرية فليس ما كان من بني آدم ظلما
وقبيحا يكون منه ظلما وقبيحا كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم فان ذلك
تمثيل لله بخلقه وقياس له عليهم هو الرب الغني القادر وهم العباد الفقراء
المقهورون وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لايدخل تحت القدرة كما يقوله
من يقوله من المتكلمين وغيرهم يقولون انه يمتنع ان يكون في الممكن المقدور
ظلم بل كل ما كان ممكنا فهو منه لو فعله عدل اذ الظلم لا يكون الا من مأمور
من غيره منهي والله ليس كذلك فان قوله تعالى ﴿ ومن يعمل من الصالحات
وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾ وقوله تعالى ﴿ ما يبدل القول لدي
وما انا بظلام للعبيد ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾
وقوله تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا ﴾ وقوله تعالى
﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم ان الله سريع الحساب ﴾ وذلك
يدل على نقيض هذا القول . ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله « ياعبادي
اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » فهذا دل على
شيئين (احدهما) انه حرم على نفسه الظلم والممتنع لا يوصف بذلك (الثاني)
انه اخبر انه حرم على نفسه كما اخبر انه كتب على نفسه الرحمة وهذا يبطل احتجاجهم
بان الظلم لايكون الا من مأمور منهي والله ليس كذلك فيقال لهم هو سبحانه
كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم وانما كتب على نفسه وحرم على
نفسه ماهو قادر عليه لا ماهو ممتنع عليه . وايضا فان قوله فلا يخاف ظلما ولا
هضما قد فسره السلف بأن الظلم ان توضع عليه سيئات غيره والهضم ان

ينقص من حسناته كما قال تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر اخرى ﴾ وايضا فان الانسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك وانما يأمن مما يمكن فلما امنه من الظلم بقوله فلا يخاف علم انه ممكن مقدور عليه . وكذا قوله لا تختصموا لدي الى قوله ﴿ وما انا بظلام للعبيد ﴾ لم يعن بها نفي مالا يقدر عليه ولا يمكن منه وانما نفى ماهو مقدور عليه ممكن وهو ان يجزوا بغير اعمالهم فعلى قول هؤلاء ليس الله منزها عن شيء من الافعال اصلا ولا مقدسا عن ان يفعله بل كل ممكن فانه لا ينزه عن فعله بل فعله حسن ولا حقيقة للفعل السوء بل ذلك ممتنع والممتنع لا حقيقة له والقرآن يدل على نقيض هذا القول في مواضع نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له فعلم انه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم كما انه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم وذلك كقوله تعالى ﴿ افحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ﴾ فانه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثا وانكر على من حسب ذلك وهذا فعل وقوله تعالى ﴿ افنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض ام نجعل المتقين كالفجار ﴾ انكار منه على من جوز ان يسوي الله بين هذا وهذا . وكذا قوله ﴿ ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ انكار على من حسب انه يفعل هذا واخبار ان هذا حكم سيء قبيح وهو مما ينزه الرب عنه . وروى ابو داود والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس وعبادة ابن الصامت وزيد بن ثابت عن النبي ﷺ « ان الله لو عذب اهل سمواته وارضه

لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من اعمالهم » وهذا
الحديث مما يحتج به الجبرية واما القدرية فلا يتأتى على اصولهم الفاسدة ولهذا
قابلوه اما بالتكذيب او بالتأويل واسعد الناس به اهل السنة الذين قابلوه
بالتصديق وعلموا من عظمة الله وجلاله وقدر نعم الله على خلقه وعدم قيام
الخلق بحقوق نعمه عليهم اما عجزا واما جهلا وأما تفريطاً واضاعة واما تقصيرا
في المقدور من الشكر ولو من بعض الوجوه فان حقه على أهل السموات والارض
ان يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وتكون قوة الحب والانابة
والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء جميعها متوجهة اليه ومتعلقة به
بحيث يكون القلب عاكفاً على محبته وتألهه بل على افراده بذلك واللسان
محبوساً على ذكره والجوارح وقفاً على طاعته . ولا ريب ان هذا مقدر في الجملة
ولكن النفوس تشح به وهي في الشح على مراتب لا يحصيها الا الله تعالى
واكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه وان اتى به من وجه آخر فاين الذي
لا تقع منه ارادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه ومن الذي لم يصدر منه خلاف
ما خلق له ولو في وقت من الاوقات فلو وضع سبحانه عدله على اهل سمواته
وارضه لعذبهم بعدله ولم يكن ظالما لهم وغاية ما يقدر توبة العبد من ذلك
واعترافه وقبول التوبة محض فضله واحسانه والا فلو عذب عبده على جنايته
لم يكن ظالما ولو قدر انه تاب منها لكن اوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته
انه لا يعذب من تاب وقد كتب على نفسه الرحمة فلا يسع الخلائق الا رحمته
وعفوه ولا يبلغ عمل احد منهم ان ينجو به من النار او يدخل به الجنة كما قال
اطوع الناس لربه وافضلهم عملا واشدهم تعظيما لربه واجلالا « لن ينج احدا

منكم عمله قالوا ولا انت يارسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل » . وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته فقال «قل اللهم اني ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب الا انت فاغفرلى مغفرة من عندك وارحمني انك انت الغفور الرحيم » فاذا كان هذا حال الصديق الذي هو افضل الناس بعد الانبياء والمرسلين فما الظن بسواه بل انما صار صديقاً بتوفيته هذا المقام حقه الذي يتضمن معرفة ربه وحقه وعظمته وما ينبغي له وما يستحقه على عبده ومعرفة تقصيره فسحقا وبعدا لمن زعم ان المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة اليها وليس وراء هـذا الجهل بالله وحقه غاية فان لم يتسع فهمك لهذا فانزل الى وطأة النعم وما عليها من الحقوق ووازن من شكرها وكفرها فحينئذ تعلم انه سبحانه لو عذب اهل سمواته وارضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم قـوله ﴿ وفي دعاء الاحياء وصدقاتهم منفعة للاموات ﴾

اتفق اهل السنة ان الاموات ينتفعون من سعي الاحياء بأمرين (احدهما) ماتسبب اليه الميت في حياته (والثاني) دعاء المسلمين واستغفارهم له والصدقة والحج على نزاع فيما يصل من ثواب الحج فعن محمد بن الحسن انه انما يصل الى الميت ثواب النفقة والحج للحاج وعند عامة العلماء ثواب الحج للمحجوج عنه وهو الصحيح واختلف في العبادات البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر فذهب ابو حنيفة واحمد وجمهور السلف الى وصولها والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها وذهب بعض اهل البدع من اهل الكلام الى عدم وصول شيء البتة لا الدعاء ولا غيره وقولهم مردود بالكتاب والسنة لـكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى ﴿ وان ليس للانسان الا ماسعى ﴾

وقوله ﴿ ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ﴾ وقوله ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ انه قال « اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية ، او ولد صالح يدعو له ، او علم ينتفع به من بعده » فاخبر انه انما ينتفع بما كان تسبب فيه في الحياة وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه واستدل المقتصرون على وصول العبادات التى لا تدخلها النيابة بحال كالاسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه كما انه في الحياة لا يفعله احد عن احد ولا ينوب فيه عن فاعله غيره وقد روى النسائي بسنده عن ابن عباس عن النبي ﷺ انه قال « لا يصلى احد عن احد ولا يصوم احد عن احد ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مداً من حنطة والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه الكتاب والسنة والاجماع والقياس الصحيح . اما الكتاب فقال تعالى ﴿ والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ﴾ فاثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الاحياء . وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء اجماع الامة على الدعاء له في صلاة الجنازة والادعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة . وكذا الدعاء له بعد الدفن ففي سنن ابي داود من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه قال كان النبي ﷺ اذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال استغفروا لاخيكم واسألوا له التثبيت فانه الآن يسأل وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما في صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصيب قال كان رسول الله ﷺ يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر ان يقولوا « السلام عليكم اهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية » وفي صحيح مسلم ايضاً عن عائشة

رضي الله عنها سألت النبي ﷺ كيف تقول اذا استغفرت لاهل القبور قال «قولي السلام على اهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين وانا ان شاء الله بكم لاحقون» واما وصول ثواب الصدقة ففى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان رجلا اتي النبي ﷺ فقال يارسول الله ان امي افتتلت نفسها ولم توص واظنها لو تكلمت تصدقت افلها اجر ان تصدقت عنها قال «نعم» وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ان رجلا أتي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ان امي توفيت وانا غائب عنها فهل ينفعها ان تصدقت عنها قال «نعم» قال فاني اشهدك ان حائطي المخراف صدقة عنها. وامثال ذلك كثيرة في السنة. واما وصول ثواب الصوم ففى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان رسول الله ﷺ قال «من مات وعليه صيام صام عنه وليه» وله نظائر في الصحيح ولكن ابو حنيفة رحمه الله قال بالاطعام عن الميت دون الصيام عنه لحديث ابن عباس المتقدم والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع. واما وصول ثواب الحج ففى صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما ان امرأة من جهينة جاءت الى النبي ﷺ فقالت: ان امي نذرت ان تحج فلم تحج حتى ماتت افأحج عنها؟ قال «حجي عنها أرأيت لو كان على امك دين أكنت قاضيته اقضوا الله فالله أحق بالوفاء» ونظائره ايضاً كثيرة واجمع المسلمون على ان قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت ولو كان من اجنبي ومن غير تركته. وقد دل على ذلك حديث ابي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاهما قال النبي ﷺ «الآن بردت عليه جلدته» وكل ذلك جار على قواعد الشرع وهو محض القياس فان الثواب حق العامل فاذا وهبه لاخيه المسلم لم يمنع من

ذلك كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته وابرائه له منه بعد وفاته . وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية يوضحه ان الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية وقد نص الشارع على وصول ثوابه الى الميت فكيف بالقراءة التي هى عمل ونية . والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى ﴿ وان ليس للانسان الا ماسعى ﴾ قد اجاب العلماء باجوبة أصحها جوابان (احدهما) ان الانسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الاصدقاء واولد الاولاد ونكح الازواج وأسدى الخير وتودد الى الناس فترحموا عليه ودعوا له واهدوا له ثواب الطاعات فكان ذلك اثر سعيه بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الاسلام من اعظم الاسباب في وصول نفع كل من المسلمين الى صاحبه في حياته وبعد مماته ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم . يوضحه ان الله تعالى جعل الايمان سببا لانتفاع صاحبه بدعاء اخوانه من المؤمنين وسعيهم فاذا اتى به فقد سعى في السبب الذى يوصل اليه ذلك . (الثاني) وهو أقوى منه ان القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وانما نفى ملكه لغير سعيه وبين الامرين من الفرق مالا يخفى فاخبر تعالى انه لا يملك الا سعيه واما سعي غيره فهو ملك لساعيه فان شاء ان يبذله لغيره وان شاء ان يبقيه لنفسه . وقوله سبحانه ﴿ ان لا تزر وازرة وزر اخرى ـ وان ليس للانسان الا ما سعى ﴾ آيتان محكمتان تقتضيان عدل الرب تعالى فالاولى يقتضي انه لا يعاقب احداً بجرم غيره ولا يواخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا والثانية يقتضي انه لا يفلح الا بعمله ليقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشائخه كما عليه اصحاب الطمع الكاذب وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع الا بما سعى

وكذلك قوله تعالى ﴿ لها ما كسبت ﴾ وقوله ﴿ ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ﴾ على ان سياق هذه الآية يدل على ان المنفي عقوبة العبد بعمل غيره فانه تعالى قال ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون ﴾ واما استدلالهم بقوله ﷺ « اذا مات ابن آدم انقطع عمله » فاستدلال ساقط فانه لم يقل انقطع انتفاعه وانما اخبر بانقطاع عمله . واما عمل غيره فهو لعامله فان وهبه له وصل اليه ثواب عمل العامل لا ثواب عمله هو وهذا كالدين يوفيه الانسان عن غيره فتبرأ ذمته لكن ليس له ما وفى به الدين واما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية . فقد شرع النبي ﷺ الصوم عن الميت كما تقدم مع ان الصوم لا تجري فيه النيابة . ولكن حديث جابر رضي الله عنه قال « صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى فلما انصرف اتى بكبش فذبحه فقال : بسم الله والله اكبر اللهم هذا عني وعن من لم يضح من امتي » رواه احمد وابو داود والترمذي وحديث الكبشين اللذين قال في احدهما « اللهم هذا عن امتي جميعا » وفي الآخر « اللهم هذا عن محمد وآل محمد » رواه احمد والقربة في الاضحية اراقة الدم وقد جعلها لغيره . وكذلك عبادة الحج بدنية وليس ركنا فيه وانما هو وسيلة الاترى ان المكي يجب عليه الحج اذا قدر على المشي الى عرفات من غير شرط المال وهذا هو الاظهر اعني ان الحج غير مركب من مال وبدن بل بدني محض كما قد نص عليه جماعة من اصحاب ابي حنيفة المتأخرين . وانظر الى فروض الكفايات كيف قام فيها البعض عن الباقين ولأن هذا ثواب وليس من باب النيابة كما ان الأجير الخاص ليس له ان يستنيب عنه وله ان يعطي اجرته لمن شاء واما استيجار قوم يقرأون القرآن

ويهدونه للميت فهذا لم يفعله احد من السلف ولا امر به أحد من أئمة الدين ولا رخص فيه والاستيجار عن نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف وانما اختلفوا في جواز الاستيجار عن التعليم ونحوه مما فيه منفعة تصل الى الغير والثواب لا يصل الى الميت الا اذا كان العمل لله وهذا لم يقع عبادة خالصة فلا يكون ثوابه ما يهدى الى الموتى . ولهذا لم يقل احد انه يكتري من يصوم ويصلى ويهدى ثواب ذلك الى الميت لكن اذا اعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لاهل القرآن على ذلك كان هذا من جنس الصدقة عنه فيجوز وفي الاختيار لو اوصى بان يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره فالوصية باطلة لانه في معنى الاجرة انتهى . وذكر الزاهدي في القنية انه لو وقف على من يقرأ عند قبره فالتعيين باطل واما قراءة القرآن واهداؤها له طوعا بغير اجرة فهذا يصل اليه كما يصل ثواب الصوم والحج فان قيل هذا لم يكن معروفا في السلف ولا أرشدهم النبي ﷺ اليه فالجواب ان كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء قيل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول ومن اين لنا هذا النفي العام . فان قيل فرسول الله ﷺ ارشدهم الى الصوم والحج والصدقة دون القراءة قيل هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم فهذا سأله عن الحج عن ميته فاذن له فيه وهذا سأله عن الصوم عنه فاذن له فيه ولم يمنعهم مما سوى ذلك وأي فرق بين وصول ثواب الصوم الذي هو مجرد نية وامساك وبين وصول ثواب القراءة والذكر . فان قيل ما تقولون في الاهداء الى رسول الله ﷺ قيل من المتأخرين من استحبه ومنهم من رآه

بدعة لان الصحابة لم يكونوا يفعلونه ولان النبي ﷺ له مثل اجر كل من عمل
خيرا من امته من غير ان ينقص من اجر العامل شيء لانه هو الذي دل امته
على كل خير وارشدهم اليه ومن قال ان الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده باعتبار
سماعه كلام الله فهذا لم يصح عن احد من الائمة المشهورين ولا شك في سماعه
ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح فان ثواب الاستماع مشروط بالحياة فانه عمل
اختياري وقد انقطع بموته بل ربما يتضرر ويتألم لكونه لم يمتثل اوامر الله
ونواهيه او لكونه لم يزدد من الخير واختلف العلماء في قراءة القرآن عند
القبور على ثلاثة اقوال : هل تكره أم لا بأس بها وقت الدفن ؟ وتكره
بعده فمن قال بكراهتها كابي حنيفة ومالك واحمد وفي رواية قالوا لانه محدث
لم ترد به السنة والقراءة تشبه الصلاة والصلاة عند القبور منهي عنها فكذلك
القراءة ومن قال لا بأس بها كمحمد بن الحسن واحمد في رواية استدلوا بما
نقل عن ابن عمر رضي الله عنه انه اوصى ان يقرأ على قبره وقت الدفن
بفواتح سورة البقرة وخواتمها . ونقل ايضاً عن بعض المهاجرين قراءة سورة
البقرة ومن قال لا بأس بها وقت الدفن فقط وهو رواية عن احمد اخذ بما
نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين واما بعد ذلك كالذين يتناوبون القبر
للقراءة عنده فهذا مكروه فانه لم تأت به السنة ولم ينقل عن احد من السلف
مثل ذلك اصلا وهذا القول لعله اقوى من غيره لما فيه من التوفيق بين
الدليلين ﴿ والله تعالى يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات ﴾ قال تعالى ﴿ وقال
ربكم ادعوني استجب لكم - واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة
الداعي اذا دعان ﴾ والذي عليه اكثر الخلق من المسلمين وسائر اهل الملل

وغيرهم ان الدعاء من اقوى الاسباب في جلب المنافع ودفع المضار وقد اخبر تعالى عن الكفار انهم اذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين وان الانسان اذا مسه الضر دعاه لجنبه اوقاعدا اوقائما واجابة الله لدعاء العبد مسلما كان او كافراً واعطاؤه سؤاله من جنس رزقه لهم ونصره لهم وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقا ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه اذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك وفي سنن ابن ماجه من حديث ابي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «من لم يسأل الله يغضب عليه» وقد نظم بعضهم هذا المعنى فقال:

الرب يغضب ان تركت سؤاله * وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن عقيل قد ندب الله تعالى الى الدعاء وفي ذلك معان (احدها) الوجود فان من ليس بموجود لا يدعى (الثاني) الغني فان الفقير لا يدعى (الثالث) السميع فان الاصم لا يدعى (الرابع) الكرم فان البخيل لا يدعى (الخامس) الرحمة فان القاسي لا يدعى (السادس) القدرة فان العاجز لا يدعى ومن يقول بالطبائع يعلم ان النار لا يقال لها كفي ولا النجم يقال له اصلح مزاجي لان هذه عندهم مؤثرة طبعا لا اختيارا فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء ليبين كذب اهل الصنائع وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة ان الدعاء لا فائدة فيه قالوا لان المشيئة الالهية ان اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة الى الدعاء وان لم تقتضيه فلا فائدة في الدعاء . وقد يخص بعضهم بذلك خواص العارفين ويجعل الدعاء عليه في مقام الخواص وهذا من غلطات بعض الشيوخ فكما انه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الاسلام فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية فان منفعة الدعاء امر أنشئت عليه تجارب الامم حتى ان

الفلاسفة تقول ضجيج الاصوات في هيا كل العبادات بفنون اللغات تحلل ماعقدته الافلاك المؤثرات هذا وهم مشركون . وجواب الشبهة بمنع المقدمتين فان قولهم عن المشيئة الآلهية اما ان تقتضيه اولا ثم قسم ثالث وهو ان تقتضيه بشرط لا يقتضيه مع عدمه وقد يكون الدعاء من شرطه كما توجب الثواب مع العمل الصالح ولا توجبه مع عدمه وكما توجب الشبع والري عند الاكل والشرب ولاتوجبه مع عدمها وحصول الولد بالوطء والزرع بالبذر فاذاقدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح ان يقال لافائدة في الدعاء كما لايقال لافائدة في الاكل والشرب والبذر وسائر الاسباب فقول هؤلاء كما انه مخالف للشرع فهو مخالف للحس والفطرة . ومما ينبغي ان يعلم ما قاله طائفة من العلماء وهو ان الالتفات الى الاسباب شرك في التوحيد ومحو الاسباب ان تكون اسبابا نقص في العقل . والاعراض عن الاسباب بالكلية قدح في الشرع ومعنى التوكل والرجاء يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع وبيان ذلك ان الالتفات الى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد اليه وليس في المخلوقات ما يستحق هذا لانه ليس بمستقل ولا بد له من شركاء واضداد مع هذا كله فان لم يسخره مسبب الاسباب لم يسخر وقولهم ان اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة الى الدعاء قلنا بل قد يكون اليه حاجة من تحصيل مصلحة اخرى عاجلة وآجلة ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة . وكذلك قولهم وان تقتضيه فلا فائدة فيه قلنا بل فيه فوائد عظيمة من جلب منافع ودفع مضار كما نبه عليه النبي ﷺ بل مايعجل للعبد من معرفته بربه واقراره به وبانه سميع قريب قدير عليم رحيم واقراره بفقره اليه واضطراره

اليه وما يتبع ذلك من العلوم العلية والاحوال الزكية التي هي من اعظم المطالب فان قيل اذا كان اعطاء الله معللا بفعل العبد كما يعقل من اعطاء المال للسائل كان السائل قد اثر في المسؤول حتى اعطاه قلنا الرب سبحانه هو الذي حرك العبد على دعائه فهذا الخير منه وتمامه عليه كما قال عمر رضي الله عنه اني لا احمل هم الاجابة وانما احمل هم الدعاء ولكن اذا الهمت الدعاء فان الاجابة معه وعلى هذا قوله تعالى ﴿ يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون ﴾ . فاخبر سبحانه انه يبتدئ بتدبير ثم يصعد اليه الامر الذي دبره فالله سبحانه هو الذي يقذف فى قلب العبد حركة الدعاء ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه اياه كما في العمل والثواب فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها وهو الذي وفقه للعمل ثم اثابه وهو الذي وفقه للدعاء ثم اجابه فما امر فيه بشيء من المخلوقات بل هو جعل مايفعله سبباً لما يفعله . قال مطرف بن عبد الله بن الشخير احد أئمة التابعين : نظرت في هذا الامر فوجدت مبداه من الله وتمامه على الله ووجدت ملاك ذلك الدعاء . وهنا سؤال معروف وهو ان من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى او يعطى غير ما سأل وقد اجيب عنه بأجوبة فيها ثلاثة أجوبة محققة (احدها) ان الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقاً وانما تضمنت اجابة الداعي والداعي اعم من السائل واجابة الداعي اعم من اعطاء السائل . ولهذا قال النبي ﷺ « ينزل ربنا في كل ليلة الى السماء الدنيا فيقول : من يدعوني فاستجيب له ، من يسألني فاعطيه ، من يستغفرني فاغفر له » ففرق بين الداعي والسائل وبين الاجابة والاعطاء وهو فرق بالعموم والخصوص كما اتبع ذلك بالمستغفر وهو نوع من السائل فذكر العام ثم الخاص

ثم الاخص . واذا علم العباد انه قريب ، مجيب دعوة الداعي علموا قربه منهم وتمكنهم من سؤاله علمو اعلمه ورحمته وقدرته فدعوه دعاء العبادة في حال ودعاء المسئلة في حال وجمعوا بينهما في حال اذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة وقد فسر قوله ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ بالدعاء الذي هو العبادة والدعاء الذي هو الطلب . وقوله بعدذلك ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ يؤيد المعنى الاول . (الجواب الثاني) ان اجابة دعاء السؤال اعم من اعطاء المسئول كما فسره النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه ان النبي ﷺ قال « مامن رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم الا اعطاه بها احدى ثلاث خصال اما ان يعجل له دعوته اويدخر له من الخير مثلها او يصرف عنه من الشر مثلها » قالوا يارسول الله : اذا نكثر قال « الله اكثر » فقد اخبر الصادق المصدوق انه لابد في الدعوة الخالية عن العدوان من اعطاء السؤال معجلا او مثله من الخير مؤجلا او يصرف عنه من السوء مثله . (الجواب الثالث) ان الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب والسبب له شروط وموانع فاذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب والا فلا يحصل ذلك المطلوب بل قد يحصل غيره وهكذا سائر الكلمات الطيبات من الاذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع او دفع مضار فان الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل تختلف باختلاف قوته وما يعينها وقد يعارضها مانع من الموانع ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر من هذا الباب وكثيراً ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه واقباله على الله او حسنة تقدمت منه جعل الله سبحانه اجابة دعوته شكر

الحسنة او صادف وقت اجابة ونحو ذلك فاجيبت دعوته فيظن ان السر في ذلك الدعاء فيأخذ مجرداً عن تلك الامور التي قارنته من ذلك الداعي وهذا كما اذا استعمل رجل دواء نافعاً في الوقت الذي ينبغي فانتفع به فظن آخران استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب وكان غالطاً وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر فيجاب فيظن ان السر للقبر ولم يدر ان السر للاضطرار وصدق الالتجأ الى الله تعالى فاذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان افضل واحب الى الله تعالى فالادعية والتعوذات والرقي بمنزلة السلاح والسلاح بضاربه لا بحده فقط فمتى كان السلاح سلاحا تاما والساعد ساعداً قويا والمحل قابلا والمانع مفقوداً حصلت به النكاية في العدو ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فاذا كان الدعاء في نفسه غير صالح أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء او كان ثم مانع من الاجابة لم يحصل الاثر قوله ﴿ ويملك كل شيء ولا يملكه شيء ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من اهل الحين ﴾ ش. كلام حق ظاهر لا خفاء فيه والحين بالفتح الهلاك قوله ﴿ والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ﴾ ش قال تعالى ﴿ رضي الله عنهم - لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ وقال تعالى ﴿ من لعنه الله وغضب عليه - وغضب الله ولعنه - وباؤا بغضب من الله ﴾ ونظائر ذلك كثيرة ومذهب السلف وسائر الائمة اثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض ونحو ذلك من الصفات التي ورد بها الكتاب والسنة ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات كما اشار اليه

الشيخ فيما تقدم بقوله اذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف الى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المرسلين . وانظر الى جواب الامام مالك رضي الله عنه في صفة كيف الاستواء معلوم والكيف مجهول . وروي ايضا عن ام سلمة رضي الله عنها موقوفا عليها ومرفوعا الى النبي ﷺ . وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم من لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه ويأتي في كلامه ان الاسلام بين الغلو والتقصير وبين التشبيه والتعطيل فقول الشيخ رحمه الله لا كأحد من الورى نفي التشبيه ولا يقال ان الرضا ارادة الاحسان والغضب ارادة الانتقام فان هذا نفي الصفة . وقد اتفق اهل السنة على ان الله يأمر بما يحبه ويرضاه وان كان لا يريده ولا يشاؤه وينهى عما يسخطه ويكرهه ويبغضه ويغضب على فاعله وان كان قد شاءه واراده فقد يحب عندهم ويرضى مالا يريده ويكره ويسخط ويغضب لما اراده ويقال لمن تأول الغضب والرضا بارادة الاحسان لم تأولت ذلك فلا بد ان يقول لان الغضب غليان دم القلب والرضا الميل والشهوة وذلك لا يليق بالله تعالى فيقال له غليان دم القلب في الآدمي امر ينشأ عن صفة الغضب . ويقال له ايضا . وكذلك الارادة والمشيئة فينا هي ميل الحي الى الشيء أو الى مايلائمه ويناسبه فان الحي منا لا يريد الا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة وهو محتاج الى ما يريده ومفتقر اليه يزداد بوجوده وينقص بعدمه فالمعنى الذي صرفت اليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء فان جاز هذا جاز ذاك وان امتنع هذا امتنع ذاك فان قالوا التي يوصف الله بها مخالفة للارادة التي يوصف بها العبد وان كان كل منهما حقيقة قيل له فقل ان الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف

لما يوصف به العبد وان كان كل منهما حقيقة فاذا كان مايقوله في الارادة يمكن
ان يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل بل يجب تركه لانك تسلم من التناقض
وتسلم ايضا من تعطيل معنى اسماء الله تعالى وصفاته بلاموجب فان صرف القرآن
عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولايكون الموجب للصرف مادل عليه
عقله اذ العقول مختلفة فكل يقول ان عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر
وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى لامتناع مسمى ذلك
في المخلوق فانه لابد ان يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة
الوجود فان وجود العبد كما يليق به ووجود الباري تعالى كما يليق به فوجوده تعالى
يستحيل عليه العدم ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم وماسمى به الرب نفسه
وسمى به مخلوقاته مثل الحي والعليم والقدير اوسمى به بعض صفاته كالغضب والرضا
وسمى به بعض صفات عباده فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الاسماء في حق الله تعالى
وانه حق ثابت موجود ونعقل ان بين المعنيين قدراً مشتركا لكن هذا المعنى لا
يوجد في الخارج مشتركا اذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركا الا في الاذهان
ولايوجد في الخارج الا معيناً مختصاً فيثبت في كل منهما كما يليق به بل لو قيل
غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة لم يجب ان يكون مماثلا
لكيفية غضب الآدميين لان الملائكة ليسوا من الاخلاط الاربعة حتى تغلي
دما قلوبهم كما يغلي دم قلب الانسان عند غضبه فغضب الله اولى وقد نفى الجهم
ومن وافقه كل ماوصف الله به نفسه من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه
وأسفه ونحو ذلك وقالوا انما هي امور مخلوقة منفصلة عنه ليس هو في نفسه
متصفاً بشيء من ذلك وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه فقالوا

لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته اصلا جميع هذه الامور صفات لازمة لذاته قديمة ازلية فلا يرضى في وقت دون وقت ولا يغضب في وقت دون وقت.

كما قال في حديث الشفاعة «ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله» وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ «ان الله تعالى يقول لاهل الجنة: ياأهل الجنة فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضي يارب وقد اعطيتنا مالم تعط احداً من خلقك فيقول: الا اعطيكم افضل من ذلك؟ فيقولون: يارب وأي شيء افضل من ذلك فيقول: احل عليكم رضواني فلا اسخط عليكم بعده ابداً» فيستدل به على انه يحل رضوانه في وقت دون وقت وانه قد يحل رضوانه ثم يسخط كما يحل السخط ثم يرضي لكن هؤلاء احل عليهم رضوانا لا يتعقبه سخط وهم قالوا لا يتكلم اذا شاء ولا يضحك اذا شاء ولا يغضب اذا شاء ولا يرضى اذا شاء بل اما ان يجعلوا الرضى والغضب والحب والبغض هو الارادة او يجعلوها صفات اخرى وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته اذ لو تعلقت بذلك لكان محلا للحوادث فنفى هؤلاء الصفات العقلية الذاتية بهذا الاصل كما نفى اولئك الصفات مطلقاً بقولهم ليس محلا للاعراض وقد يقال بل هي افعال ولا تسمى حوادث كما سميت تلك صفات ولم تسم اعراضاً وقد تقدمت الاشارة الى هذا المعنى ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد وكذلك الكلام في القدر ونحو ذلك ولم يعتن فيه بترتيب. واحسن مايرتب عليه كتاب اصول الدين ترتيب جواب النبي ﷺ لجبرائيل عليه السلام حين سأله عن الايمان

فقال « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره » الحديث فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات ومايتعلق بذلك ثم بالكلام على الملائكة ثم وثم الى آخره. وقوله ﴿ ونحب اصحاب رسول الله ﷺ ولانفرط في حب احد منهم ولا نتبرأ من احد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم الابخير وحبهم دين وايمان واحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان ﴾ يشير الشيخ رحمه الله الى الرد على الروافض والنواصب وقدأثنى الله على الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسنى كما قال تعالى ﴿ والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعدلهم جنات تجرى تحتها الانهار خالدين فيها ابداً ذلك الفوز العظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ﴾ الى آخر السورة وقال تعالى ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا اولئك بعضهم اولياء بعض ﴾ الى آخر السورة وقال تعالى ﴿ لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعدالله الحسنى والله بما تعملون خبير - للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون - والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون - والذين

جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم ﴾ وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والانصار وعلى الذين جاؤا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله ان لا يجعل في قلوبهم غلالهم وتتضمن ان هؤلاء هم المستحقون للفيء فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيباً بنص القرآن . وفي الصحيحين عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف فسبه خالد فقال رسول الله ﷺ « لا تسبوا احداً من اصحابي فلو ان احدكم انفق مثل احد ذهباً ما ادرك مد احدهم ولا نصيفه » انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخارى . فان النبي ﷺ يقول لخالد ونحوه « لا تسبوا اصحابي » يعني عبد الرحمن وامثاله لان عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الاولون وهم الذين اسلموا من قبل الفتح وقاتلوا وهم أهل بيعة الرضوان فهم افضل واخص بصحبته ممن اسلم بعد بيعة الرضوان وهم الذين اسلموا بعد الحديبية وبعد مصالحة النبي ﷺ اهل مكة ومنهم خالد بن الوليد وهؤلاء اسبق ممن تأخر اسلامهم الى فتح مكة وسموا الطلقاء منهم ابو سفيان وابناه يزيد ومعاوية . والمقصود انه نهى من له صحبة اخرى ان يسب من له صحبة اولى لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن ان يشركوهم فيه حتى لو انفق احدهم مثل احد ذهبا ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه فاذا كان هذا حال الذين اسلموا بعد الحديبية وان كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة رضي الله عنهم اجمعين والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار هم الذين انفقوا من

قبل الفتح وقاتلوا واهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا اكثر من الف واربعمائة وقيل ان السابقين الأولين من صلى الى القبلتين وهذا ضعيف فان الصلاة الى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة لأن النسخ ليس من فعلهم ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي كما دل على التفضيل بالسبق الى الانفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة . واما ما يروى عن النبي ﷺ انه قال « اصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم » فهو حديث ضعيف قال البزار هذا حديث لايصح عن رسول الله ﷺ وليس هو في كتب الحديث المعتمدة . وفي صحيح مسلم عن جابر قال قيل لعائشة رضي الله عنها « ان ناسا يتناولون اصحاب رسول الله ﷺ حتى ابا بكر وعمر فقالت وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل فاحب الله ان لا يقطع عنهم الأجر وروى ابن بطة باسناد صحيح عن ابن عباس انه قال « لا تسبوا اصحاب محمد ﷺ فلمقام احدهم ساعة يعني مع النبي ﷺ خير من عمل احدكم اربعين سنة » وفي رواية وكيع خير من عبادة احدكم عمره » وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره ان رسول الله ﷺ قال « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم قال عمران فلا ادري اذكر بعد قرنه قرنين او ثلاثة » الحديث وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر ان النبي ﷺ قال « لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة » وقال تعالى ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ الآيات .

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم حيث قال ان الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب اصحابه خير قلوب

العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما رأوه سيئا فهو عند الله سيء » وفي رواية وقد رأى اصحاب محمد جميعا ان يستخلفوا ابا بكر وتقدم قول ابن مسعود من كان مستنا فليستن بمن قد مات الخ عند قول الشيخ ونتبع السنة والجماعة . فمن اضل ممن يكون في قلبه على خيار المؤمنين وسادات اولياء الله تعالى بعد النبيين بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة قيل لليهود من خير اهل ملتكم قالوا اصحاب موسى وقيل للنصارى من خير اهل ملتكم قالوا اصحاب عيسى وقيل للرافضة من شر اهل ملتكم قالوا اصحاب محمد لم يستثنوا منهم الا القليل وفيمن سبوهم من هو خير ممن استثنوهم باضعاف مضاعفة وقوله ولا نفرط في حب احد منهم اي لا نتجاوز الحد في حب احد منهم كما تفعل الشيعة فيكون من المعتدين قال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ وقوله ولا نتبرأ منهم كما فعلت الرافضة فعندهم لا ولاء الا ببراء اي لا يتولى اهل البيت حتى يتبرأ من ابي بكر وعمر رضي الله عنهم واهل السنة يوالونهم كلهم وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والانصاف لا بالهوى والتعصب فان ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد كما قال تعالى ﴿ وما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ وهذا معنى قول من قال من السلف الشهادة بدعة والبراءة بدعة يروى ذلك عن جماعة من السلف من الصحابة والتابعين منهم ابو سعيد الخدرى والحسن البصري وابراهيم النخعي والضحاك وغيرهم ومعنى الشهادة ان يشهد على معين من المسلمين انه من اهل النار او انه كافر بدون العلم بما ختم الله له به . وقوله وحبهم دين وايمان واحسان لانه امتثال لامر الله فيما تقدم من النصوص وروى الترمذي عن عبدالله بن مغفل

قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « الله الله في اصحابي لا يتخذونهم غرضا فمن احبهم فبحبي احبهم ومن ابغضهم فببغضي ابغضهم ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله تعالى ومن آذى الله فيوشك ان ياخذه » وتسمية حب الصحابة ايمانا مشكل على الشيخ رحمه الله لان الحب عمل القلب وليس هو التصديق فيكون العمل داخلا في مسمى الايمان . وقد تقدم في كلامه ان الايمان هو الاقرار باللسان والتصديق بالجنان ولم يجعل العمل داخلا في مسمى الايمان وهذا هو المعروف من مذهب اهل السنة الا ان تكون هذه التسمية مجازا وقوله وبغضهم كفر ونفاق وطغيان تقدم الكلام في تكفير اهل البدع وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله ﴿ ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وقد تقدم الكلام في ذلك قوله ﴿ ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ اولا لابي بكر الصديق رضي الله عنه وتفضيلا له وتقديما على جميع الامة ﴾ اختلف اهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه هل كانت بالنص او بالاختيار فذهب الحسن البصري وجماعة من اهل الحديث الى انها ثبتت بالنص الخفي والاشارة ومنهم من قال بالنص الجلي وذهب جماعة من اهل الحديث والمعتزلة والاشعرية الى انها ثبتت بالاختيار والدليل على اثباتها بالنص اخبار من ذلك ما اسنده البخاري عن جبير بن مطعم قال اتت امرأة النبي ﷺ فامرها ان ترجع اليه قالت ارأيت ان جئت فلم اجدك كأنها تريد الموت قال ان لم تجديني فأت ابا بكر وذكر له سياق آخر واحاديث اخر وذلك نص على امامته وحديث حذيفة بن اليمان قال قال رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدي ابي بكر وعمر » رواه اهل السنن . وفي الصحيحين

عن عائشة رضي الله عنها وعن ابيها قالت دخل علي رسول الله ﷺ في اليوم الذي بدىء فيه فقال ادعي لي اباك واخاك حتى اكتب لابي بكر كتابا ثم قال يأبى الله والمسلمون الا ابا بكر » وفي رواية « فلا يطمع في هذا الامر طامع » وفي رواية قال « ادعي لي عبد الرحمن بن ابي بكر لاكتب لابي بكر كتابا لا يختلف عليه ثم قال معاذ الله ان يختلف المؤمنون في ابي بكر » واحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة وهو يقول « مروا ابا بكر فليصل بالناس » وقد روجع في ذلك مرة بعد مرة فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ . وفي الصحيحين عن ابي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « بينا انا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ثم أخذها ابن ابي قحافة فنزع منها ذنوبا او ذنوبين وفي نزعه ضعف والله يغفر له ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه حتى ضرب الناس بعطن » وفي الصحيح انه ﷺ قال على منبره « لو كنت متخذاً من اهل الارض خليلا لاتخذت ابا بكر خليلا لايبقين في المسجد خوخة الاسدت الا خوخة ابي بكر » وفي سنن ابي داود وغيره من حديث الاشعث عن الحسن عن ابي بكرة ان النبي ﷺ قال ذات يوم « من راى منكم رؤيا فقال رجل انا رأيت ميزانا انزل من السماء فوزنت انت وابو بكر فرجحت انت بابي بكر ثم وزن عمر وابو بكر فرجح ابو بكر ووزن عمر وعثمان فرجح عمر ثم رفع فرأيت الكراهة في وجه النبي ﷺ فقال خلافة ثم يؤتي الله الملك من يشاء » فبين رسول الله ﷺ ان ولاية هؤلاء خلافة نبوة ثم بعد ذلك ملك وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه لانه لم يجتمع الناس في زمانه بل كانوا

مختلفين لم ينتظم فيه خلافة النبوة ولا الملك . وروى ابو داود ايضا عن جابر
رضي الله عنه انه كان يحدث ان رسول الله ﷺ قال « راى الليلة رجل صالح
ان ابا بكر نيط برسول الله ﷺ ونيط عمر بابي بكر ونيط عثمان بعمر قال
جابر فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ قلنا اما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ
واما المنوط بعضهم ببعض فهم ولاة هذا الامر الذي بعث الله به نبيه » وروى
ابو داود ايضا عن سمرة بن جندب ان رجلا قال يارسول الله رأيت كأن دلوا دلي
من السماء فجاء ابو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شربا ضعيفا ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها
فشرب حتى تضلع ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع ثم جاء علي فأخذ
بعراقيها فانتشطت منه فانتضح عليه منها شيء » وعن سعيد بن جهمان عن سفينة
قال قال رسول الله ﷺ « خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتي الله ملكه من يشاء »
او الملك واحتج من قال لم يستخلف بالخبر المأثور ، عن عبد الله بن عمر عن عمر رضى
الله عنهما انه قال ان استخلف فقد استخلف من هو خير مني يعني ابا بكر وان لا
استخلف فلم يستخلف من هو خير يعني رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف
والظاهر والله اعلم ان المراد انه لم يستخلف بعهد مكتوب ولو كتب عهداً لكتبه
لابي بكر بل قد اراد كتابته ثم تركه وقال : يأبى الله والمسلمون الا ابا بكر
فكان هذا ابلغ من مجرد العهد . فان النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف
ابي بكر وأرشدهم اليه بامور متعددة من اقواله وافعاله واخبر بخلافته اخبار
راض بذلك ، حامد له وعزم على ان يكتب بذلك عهداً ثم علم ان المسلمين
يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك ثم عزم على ذلك في مرضه يوم
الخميس ثم لما حصل لبعضهم شك هل ذلك القول من جهة المرض او هو قول

يجب اتباعه ترك الكتابة اكتفاء بما علم ان الله يختاره والمؤمنون من خلافة ابي بكر فلو كان التعيين مما يشتبه على الامة لبينه بيانا قاطعا للعذر لكن لما دلهم دلالات متعددة على ان ابا بكر المتعين وفهموا ذلك حصل المقصود ولهذا قال عمر رضي الله عنه في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والانصار انت خيرنا واحبنا الى رسول الله ﷺ ولم ينكر ذلك منهم احد ولا قال احد من الصحابة ان غير ابي بكر من المهاجرين امير. وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه ثم الانصار كلهم بايعوا ابابكر الا سعد بن عبادة لكونه هو الذي كان يطلب الولاية ولم يقل احد من الصحابة قط ان النبي ﷺ نص على غير ابي بكر لا علي ولا العباس ولا غيرهما كما قد قال اهل البدع وروى ابن بطة باسناده ان عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلي الى الحسن فقال: هل كان النبي ﷺ استخلف ابابكر؟ فقال: اوفي شك صاحبك نعم والله الذي لا إله الا هو استخلفه لهو كان اتق لله من ان يتوق عليها. وفي الجملة فجميع من نقل عنه انه طلب تولية غير ابي بكر لم يذكر حجة دينية شرعية ولا ذكر ان غير ابي بكر افضل منه اواحق بها وانما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط وهم كانوا يعلمون فضل ابي بكر رضي الله عنه وحب رسول الله ﷺ له. ففي الصحيحين عن عمرو بن العاص ان رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل فاتيته فقلت: أي النساء احب اليك قال «عائشة» قلت من الرجال قال «ابوها» قلت ثم من قال «عمر» وعد رجالا. وفيهما ايضاً عن ابي الدرداء قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ اذ اقبل ابو بكر آخذ بطرف ثوبه حتى ابدى عن ركبتيه فقال النبي ﷺ «اما صاحبكم فقد غامر فسلم» وقال: انه كان

بيني وبين ابن الخطاب شيء فاسرعت اليه ثم ندمت فسألته ان يغفر لي قال « غفر الله لك يا ابابكر » ثلاثا ثم ان عمر ندم فاتى منزل ابي بكر فسأل اثم هو قالوا لا فاتى الى النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ان الله بعثني اليكم فقلتم كذبت قال ابو بكر صدقت وواساني بنفسه وماله فهل انتم تاركوا الي صاحبي » مرتين فما اوذي بعدها ومعنى غامر غاضب وخاصم ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله . وفي الصحيحين ايضاً عن عائشة رضي الله عنها ان رسول ﷺ مات وابو بكر بالسنح فذكرت الحديث الى ان قال واجتمع الانصار الى سعد ابن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا : منا امير ومنكم امير فذهب اليهم ابو بكر وعمر بن الخطاب وابو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فاسكته ابو بكر وكان عمر يقول : والله ما اردت بذلك الا اني هيأت في نفسي كلاما قد اعجبني خشيت ان لا يبلغه ابو بكر ثم تكلم ابو بكر فتكلم ابلغ الناس فقال في كلامه : نحن الامراء وانتم الوزراء أهم اوسط العرب واعزهم احسابا فبايعوا عمرا واباعبيدة ابن الجراح فقال عمر : بل نبايعك فانت سيدنا وخيرنا واحبنا الى رسول ﷺ فاخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس فقال قائل : قتلتم سعداً فقال عمر : قتله الله والسنح العالية وهي حديقة بالمدينة معروفة بها . قوله ﴿ ثم لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴾ اى وتثبت الخلافة بعد ابي بكر رضي الله عنه وذلك بتفويض ابي بكر الخلافة اليه واتفاق الامة بعده عليه وفضائله رضي الله عنه اشهر من ان تذكر واكثر من ان تذكر . فقد روي عن محمد بن الحنفية انه قال قلت لابي يا ابت من خير الناس بعد رسول الله ﷺ فقال : يابني اوما تعرف فقلت لا قال ابو بكر قلت ثم من قال عمر وخشيت ان يقول ثم عثمان

فقلت ثم انت فقال ما انا الا رجل من المسلمين . وتقدم قوله ﷺ « اقتدوا بالذين من بعدي ابي بكر وعمر » وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويثنون ويصلون عليه قبل ان يرفع وانا فيهم فلم يرعني الا برجل قداخذ بمنكبي من ورآي فالتفت اليه فاذا هو علي فترحم على عمر وقال ما خلفت احدا احب الى ان القى الله بمثل عمله منك وايم الله ان كنت كثيرا ما اسمع رسول الله ﷺ يقول جئت انا وابو بكروعمر ودخلت انا وابو بكروعمر وخرجت انا وابو بكروعمر فان كنت لارجو واظن ان يجعلك الله معهما . وتقدم حديث ابي هريرة رضي الله عنه في رؤيا رسول الله ﷺ ونزعه من القليب ثم نزع ابي بكر ثم استحالت الدلو غربا فاخذها ابن الخطاب فلم أر عبقريا من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن . وفي الصحيحين من حديث سعد بن ابي وقاص قال استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نساء من قريش يكلمنه عالية اصواتهن الحديث وفيه فقال رسول الله ﷺ ايه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا غير فجك . وفي الصحيحين ايضا عن النبي ﷺ انه كان يقول قد كان في الامم قبلكم محدثون فان يكن في امتى منهم احد فان عمر بن الخطاب منهم قال ابن وهب تفسير محدثون ملهمون قوله ﴿ ثم لعثمان رضي الله عنه ﴾ اي وتثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما وقدساق البخاري رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه وامر الشورى والمبايعة لعثمان في صحيحه فاحببت ان أسردها كما رواه بسنده عن عمرو ابن ميمون قال رأيت عمر رضي الله عنه قبل ان يصاب بالمدينة بايام وقف

على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما اتخافا ان تكونا قد حملتما الارض ما لا تطيق قالا حملناها امراً هي له مطيقة ما فيها كثير فضل قال انظرا ان تكونا حملتما الارض ما لا تطيق قالا لا قال عمر ان سلمني الله لادعن ارامل اهل العراق لا يحتجن الى رجل بعدي ابدا قال فما اتت عليه اربعة حتى اصيب قال اني لقائم ما بيني وبينه الا عبد الله بن عباس غداة اصيب وكان اذا مر بين الصفين قال استووا حتى اذا لم ير فيهن خللا تقدم فسمعته يقول قتلني أو اكلني الكلب حين طعنه فطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على احد يمينا وشمالا الا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن انه مأخوذ نحر نفسه وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه فاما من كان يلي عمر فقد يرى الذي ارى واما نواحي المسجد فانهم لا يدرون غير انهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة قال الصنع قال نعم قال قاتله الله فلقد امرت به معروفا الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام قد كنت انت وابوك تحبان ان تكثر العلوج بالمدينة وكان العباس اكثرهم رقيقا فقال ان شئت فعلت اي ان شئت قتلنا فقال كذبت بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا قبلتكم وحجوا حجكم فاحتمل الى بيته فانطلقنا معه وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ فقائل يقول لا بأس عليه وقائل يقول اخاف عليه فاتي بنبيذ فشربه فخرج من جوفه ثم اتي بلبن فشربه فخرج من جوفه فعرفوا انه ميت فدخلنا عليه

وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال ابشر يا أمير المؤمنين بشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة قال وددت ان ذلك كان كفافا لا علي ولا لي فلما أدبر رأى رداءه يمس الارض قال ردوا علي الغلام قال يا ابن اخي ارفع ثوبك فانه ابقى لثوبك واتقى لربك يا عبد الله بن عمر انظر ما علي من الدين فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين الفا او نحوه قال ان وفى له مال آل عمر والا فاسال في بني عدي بن كعب فان لم تف اموالهم والا فاسال في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فاد عني هذا المال انطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تقل امير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين اميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه قالت كنت اريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي فلما اقبل قيل هذا عبد الله قد جاء قال ارفعوني فاسنده رجل اليه قال ما لديك قال الذي تحب يا امير المؤمنين اذنت قال الحمد لله ما كان شيء احب الي من ذلك فاذا انا قضيت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان اذنت لي فادخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين وجاءت ام المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا لهم فسمعنا بكاها من الداخل فقالوا اوص يا امير المؤمنين واستخلف قال ما أحد احق بالامر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعد وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء كهيئة التعزية

له فان اصابت الامارة سعدا فذاك والا فليستعن به ايكم ما امر فاني لم اعزله من عجز ولا خيانة وقال اوص الخليفة من بعدي بالمهاجرين الاولين ان يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصه بالانصار خيرا الذين تبوؤا الدار والايمان من قبلهم ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأوصيه باهل الامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وجباة الاموال وغيظ العدو وان لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضاهم وأوصه بالاعراب خيرا فانهم اصل العرب ومادة الاسلام ان يأخذ من حواشي أموالهم وان يرد على فقرائهم وأوصه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي فسلم عبدالله بن عمر فقال يستأذن عمر بن الخطاب قالت ادخلوه فأدخل فوضع هنالك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبدالرحمن بن عوف اجعلوا امركم الى ثلاثة منكم قال الزبير قد جعلت امرى الى علي قال طلحة قد جعلت امري الى عثمان وقال سعد قد جعلت امري الى عبد الرحمن فقال عبد الرحمن ايكم تبرأ من هذا الأمر فنجعله اليه والله عليه والاسلام لينظرن افضلهم من في نفسه فاسكت الشيخان فقال عبد الرحمن تجعلونه الي والله علي ان لا آلوا عن افضلكم قالا نعم فاخذ بيدي احدهما فقال ولك من قرابة رسول الله ﷺ وقدم في الاسلام ما قد علمت بالله عليك لأن امرتك لتعدلن ولأن امرت عليك لتسمعن ولتطيعن ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك فلما اخذ الميثاق قال ارفع يدك يا عثمان فبايعه وبايع له علي وولج اهل الدار فبايعوه . وعن حميد بن عبد الرحمن ان المسور بن مخرمة اخبره ان الذين ولاهم عمر اجتمعوا وتشاوروا فقال لهم عبد الرحمن :

لست الذي انا فنسلم عن هذا الامر ولكنكم ان شئتم اخترت لكم منكم فجعلوا ذلك الى عبد الرحمن فلما ولوا عبد الرحمن امرهم مال الناس الى عبد الرحمن حتى ما ارى احداً من الناس يتبع اولئك الرهط ولا يطأ عقبه ومال الناس الى عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي حتى اذا كانت تلك الليلة اصبحنا فيها فبايعنا عثمان قال المسور بن مخرمة طرقني عبدا الرحمن بعد هجع من الليل فضرب الباب حتى استيقظت فقال : اراك نائما فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكثير نوم انطلق فادع لي الزبير وسعدا فدعوتهما فشاورهما ثم دعاني فقال ادع لي علياً فدعوته فناجاه حتى ابهار الليل ثم قام علي من عنده وهو على طمع وقد كان عبد الرحمن يخشى من علي شيئا ثم قال ادع لي عثمان فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح فلما صلى الناس الصبح واجتمع اولئك الرهط عند المنبر ارسل الى من كان حاضرا من المهاجرين والانصار والى امراء الاجناد وكانوا وافقوا تلك الحجة مع عمر فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ثم قال اما بعد يا علي اني قد نظرت في امر الناس فلم ارهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلا فقال لعثمان ابايعك على سنة رسول الله ﷺ والخليفتين من بعده فبايعه عبد الرحمن وبايعه الناس والمهاجرون والانصار وامراء الاجناد والمسلمون . ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة كونه ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ مضطجعا كاشفا عن فخذيه او ساقيه فاستأذن ابو بكر فاذن له وهو على تلك الحالة فتحدث ثم استأذن عمر فاذن له وهو على تلك الحالة فتحدث ثم استأذن عثمان فجلس رسول الله ﷺ وسوى ثيابه فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة

دخل ابو بكر فلم تهش له ولم تباله ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك فقال الا استحي من رجل تستحي منه الملائكة » وفي الصحيح لما كان يوم بيعة الرضوان وان عثمان رضي الله عنه كان قد بعثه النبي ﷺ الى مكة وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة فقال رسول الله ﷺ اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده فقال هذه لعثمان قوله ﴿ثم لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه﴾ اي وتثبت الخلافة بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما لما قتل عثمان وبايع الناس عليا صار اماما حقا واجب الطاعة وهو الخليفة في زمانه خلافة نبوة كما دل عليه حديث سفينة المتقدم ذكره انه قال قال رسول الله ﷺ « خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يوتى الله ملكه من يشاء » وكانت خلافة ابي بكر الصديق سنتين وثلاثة اشهر وخلافة عمر عشر سنين ونصفا وخلافة عثمان اثنى عشر سنة وخلافة علي اربع سنين وتسعة اشهر واول ملوك المسلمين معاوية لكنه انما صار اماما حقا لما فوض اليه الحسن بن علي رضي الله عنه الخلافة فان الحسن رضي الله عنه بايع اهل العراق بعد موت ابيه ثم بعد ستة اشهر فوض الامر الى معاوية وظهر صدق قول النبي ﷺ ان ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين والقصة معروفة في موضعها فالخلافة ثبتت لامير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه بمبايعة الصحابة سوى معاوية مع اهل الشام والحق مع علي رضي الله عنه فان عثمان رضي الله عنه لما قتل كثر الكذب والافتراق على عثمان وعلي وكان بالمدينة من اكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير . وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال وقويت الشهوة في نفوس ذوي الاهواء والاغراض ممن بعدت

داره من اهل الشام ويحمي الله عثمان ان يظن بالاكابر ظنون سوء ويبلغه عنهم اخبار منها ما هو كذب ومنها ما هو محدث ومنها ما لم يعرف وجهه وانضم الى ذلك اهواء قوم يحبون العلو في الارض . وكان في عسكر علي رضي الله عنه من اولئك الطغاة الخوارج الذين قتلوا عثمان من لم يعرف بعينه ومن تنتصر له قبيلته ومن لم يقم عليه حجة بما فعله ومن في قلبه نفاق لم يتمكن من اظهاره كله وراى طلحة والزبير انه ان لم ينتصر للشهيد المظلوم ويقمع اهل الفساد والعدوان والا استوجبوا غضب الله وعقابه . فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من علي ولا من طلحة والزبير وانما اثارها المفسدون بغير اختيار السابقين ثم جرت فتنة صفين لرأي وهو ان اهل الشام لم يعدل عليهم اولا يتمكن من العدل عليهم وهم كافون حتى تجتمع الامة وانهم يخافون طغيان من في العسكر كما طغوا على الشهيد المظلوم وعلي رضي الله عنه هو الخليفة الراشد المهدي الذي تجب طاعته ويجب ان يكونوا مجتمعين عليه فاعتقد ان الطاعة والجماعة الواجبين عليهم يحصل بقتالهم فيطلب[1] امام فاعتقد انه يحصل به اداء الواجب ولم يعتقد ان التاليف لهم كتاليف المؤلفة قلوبهم على عهد النبي ﷺ والخليفتين من بعده مما يسوغ فحمله ما رآه من ان الدين اقامة الحد عليهم ومنعهم من الاثاره دون تأليفهم على القتال وقعد عن القتال اكبر الاكابر لما سمعوه من النصوص في الامر بالقعود في الفتنة ، ولما راوه من الفتنة التي تربوا مفسدتها على مصلحتها والقول في الجميع بالحسنى ﴿ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم﴾ والفتن

(١) كذا بالاصل فليحرر

التي كانت في ايامه قد صان الله عنها ايدينا . فنسأل الله ان يصون عنها ألسنتنا بمنه وكرمه . ومن فضائل امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه مافي الصحيحين عن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لعلي «انت مني بمنزلة هرون الا انه لا نبي بعدي» وقال ﷺ يوم خيبر «لاعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» قال فتطاولنا لها فقال «ادعو لى عليا» فاتي به ارمد فبصق في عينيه ودفع الراية اليه ففتح الله عليه . ولما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندعُ ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال «اللهم هؤلاء اهلي» قوله ﴿ وهم الخلفاء الراشدون والائمة المهديون ﴾ تقدم

الحديث الثابت في السنن وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية قال وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد الينا فقال « أوصيكم بالسمع والطاعة فانه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل بدعة ضلالة» وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم اجمعين في الفضل كترتيبهم في الخلافة . ولابي بكر وعمر رضي الله عنهما من المزية ان النبي ﷺ امرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين ولم يأمرنا في لاقتداء في الافعال إلا بابي بكر وعمر فقال « اقتدوا باللذين من بعدي ابي بكر وعمر » وفرق بين اتباع سنتهم والاقتداء فحال ابي بكر وعمر فوق حال عثمان وعلي رضي الله عنهم اجمعين . وقد روي عن ابي حنيفة تقديم علي على عثمان ولكن ظاهر

مذهبه تقديم عثمان على علي هذا[1] عامة اهل السنة وقد تقدم قول عبد الرحمن ابن عوف لعلي رضي الله عنه اني قد نظرت في امر الناس فلم ارهم يعدلون بعثمان وقال ايوب السختياني من لم يقدم عثمان على علي فقد ازرى بالمهاجرين والانصار وفي الصحيحين عن ابن عمر قال كنا نقول ورسول الله ﷺ حي افضل امة النبي ﷺ بعده ابو بكر ثم عمر ثم عثمان قوله ﴿ وان العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق وهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وابو عبيدة بن الجراح وهو امين هذه الامة رضي الله عنهم أجمعين ﴾ تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الاربعة ومن فضائل الستة الباقين من العشرة رضي الله عنهم اجمعين ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها « ارق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال ليت رجلا صالحا من اصحابي يحرسني الليلة قال وسمعنا صوت السلاح فقال النبي ﷺ من هذا فقال سعد بن ابي وقاص يا رسول الله جئت احرسك وفي لفظ اخر وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت احرسه فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام . وفي الصحيحين ان رسول الله ﷺ جمع لسعد بن ابي وقاص ابويه يوم احد فقال ارم فداك ابي وامي وفي صحيح مسلم عن قيس بن ابي حازم قال رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ يوم احد قد شلت وفيه ايضا عن ابي عثمان النهدي قال لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الايام التي قاتل فيها النبي ﷺ غير طلحة وسعد وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن جابر بن عبد الله قال ندب رسول الله ﷺ

(١) كذا بالاصل ولعله وعلى هذا

الناس يوم الخندق فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير فقال النبي ﷺ «لكل نبي حواري وحواري الزبير» وفيهما ايضا عن الزبير رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال «من ياتي بني قريظة فياتيني بخبرهم» فانطلقت فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ ابويه فقال فداك ابي وامي. وفي صحيح مسلم عن انس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ «ان لكل امة امينا وان اميننا ايتها الامة ابو عبيدة بن الجراح» وفي الصحيحين عن حذيفة بن اليمان قال جاء اهل نجران الى النبي ﷺ فقالوا يارسول الله ابعث الينا امينا فقال «لابعثن اليكم رجلا امينا حق امين» فاستشرف لها الناس. قال: فبعث اباعبيدة بن الجراح وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال: اشهد على رسول الله ﷺ اني سمعته يقول «عشرة في الجنة النبي في الجنة وابو بكر في الجنة وطلحة في الجنة وعمر في الجنة وعثمان في الجنة وسعد بن مالك في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ولو شئت لسميت العاشر قال فقالوا من هو قال سعيد بن زيد قال لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ تغبر منه وجهه خير من عمل احدكم ولو عمر عمر نوح» رواه ابو داود وابن ماجه والترمذي وصححه ورواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ان النبي ﷺ قال «ابو بكر في الجنة وعمر في الجنة وعلي في الجنة وعثمان في الجنة وطلحة في الجنة والزبير بن العوام في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وسعيد بن زيد في الجنة وابو عبيدة بن الجراح فى الجنة» رواه الامام احمد فى مسنده. ورواه ابو بكر بن ابي خيثمة وقدم فيه عثمان على علي رضي الله عنهما. وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ على حراء وابو بكر

وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فتحركت الصخرة فقال رسول الله ﷺ
اهدأ فما عليك الانبي وصديق وشهيد » رواه مسلم والترمذي وغيرهما . وروي
من طرق وقد اتفق اهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر
من فضائلهم ومناقبهم ومن اجهل ممن يكره لفظ العشرة اوفعل شيء يكون
عشرة لكونهم يبغضون خيار الصحابة وهم العشرة المشهود لهم بالجنة وهم
يستثنون منهم علياً رضي الله عنه . فمن العجب انهم يوالون لفظ التسعة وهم
يبغضون التسعة من العشرة ويبغضون سائر المهاجرين والانصار من السابقين
الاولين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة وكانوا الفاً واربعمائة وقد رضي الله
عنهم كما قال تعالى ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾
وثبت في صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال « لا يدخل
النار احد بايع تحت الشجرة » . وفي صحيح مسلم ايضاً عن جابر ان غلاما قال
حاطب في النار فقال رسول الله ﷺ « كذبت انه شهد بدرا والحديبية »
والرافضة يتبرأون من جمهور هؤلاء بل يتبرأون من سائر اصحاب رسول الله
ﷺ الا من نفر قليل نحو بضعة عشر رجلا ومعلوم انه لو فرض في العالم عشرة
من اكفر الناس لم يهجر هذا الاسم لذلك كما انه سبحانه لما قال ﴿ وكان في المدينة
تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون ﴾ لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً
بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع من القرآن ﴿ تلك عشرة
كاملة - وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر - والفجر وليال عشر ﴾ وكان
ﷺ يعتكف العشر الاواخر من رمضان وكان في ليلة القدر يقول « التمسوها
في العشر الاواخر من رمضان » وقال « ما من ايام العمل الصالح فيهن احب

الى الله من ايام العشر » يعني عشر ذي الحجة والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين بالجنة اثناعشر اماما اولهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه ويدعون انه وصي النبي ﷺ دعوى مجردة عن الدليل ثم الحسن رضي الله عنه ثم الحسين رضي الله عنه ثم علي ابن الحسين زين العابدين ثم محمد بن علي الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى ابن جعفر الكاظم ثم علي بن موسى الرضى ثم محمد بن علي الجواد ثم علي بن محمد الهادي ثم ابن علي العسكري ثم محمد بن الحسن ويغالون في محبتهم ويتجاوزون الحد ولم يأت ذكر الائمة الاثنى عشر الا على صفة ترد قولهم وتبطله وهو ما خرجاه في الصحيحين عن جابر بن سمرة قال دخلت مع ابي على النبي ﷺ فسمعته يقول « لا يزال امر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلا » ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني فسألت ابي ماذا قال النبي ﷺ قال كلهم من قريش وفي لفظ « لا يزال الاسلام عزيزا الى اثني عشر خليفة » وكان الامر كما قال النبي ﷺ والاثنا عشر الخلفاء الراشدون الاربعة ومعاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان واولاده الاربعة وبينهم عمر بن عبد العزيز ثم اخذ الامر في الانحلال وعند الرافضة ان امر الامة لم يزل في ايام هؤلاء فاسدا يتولى عليهم الظالمون المعتدون بل المنافقون الكافرون واهل الحق اذل من اليهود وقولهم ظاهر البطلان بل لم يزل الاسلام عزيزا في ازدياد في ايام هؤلاء . قوله

﴿ ومن احسن القول في اصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه الطاهرات من كل دنس وذرياته المقدسين من كل رجس فقد برىء من النفاق ﴾

تقدم بعض ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم وفي صحيح مسلم عن زيد بن ارقم قال قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بماء يدعى

خم بين مكة والمدينة فقال « اما بعد ايها الناس انما انا بشر يوشك ان يأتني رسول ربي فأجيب ربي واني تارك فيكم ثقلين : اولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا بهما - فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال - واهل بيتي اذكركم الله في اهل بيتي » ثلاثا وخرج البخاري عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه قال : ارقبوا محمداً في اهل بيته وانما قال الشيخ رحمه الله فقد برئ من النفاق لان الرفض انما احدثه منافق زنديق قصده ابطال دين الاسلام والقدح في الرسول ﷺ كما ذكر ذلك العلماء فان عبد الله بن سبأ لما اظهر الاسلام اراد ان يفسد دين الاسلام بمكره وخبثه كما فعل بولس بدين النصراني فاظهر التنسك ثم اظهر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى سعى في فتنة عثمان وقتله ثم لما قدم على الكوفة اظهر الغلو في علي والنصر عليه ليتمكن بذلك من اغراضه وبلغ ذلك علياً فطلب قتله فهرب منه الى قرقيس وخبره معروف بالتاريخ وتقدم ان من فضله على ابي بكر وعمر جلده جلد مفتر، وبقيت في نفوس المبطلين خمائر بدعة الخوارج من الحرورية والشيعة ولهذا كان الرفض باب الزندقة كما حكاه القاضي ابو بكر ابن طيب عن الباطنية وكيفية افسادهم لدين الاسلام قال فقالوا للداعي يجب عليك اذا وجدت من تدعوه مسلماً ان تجعل التشيع عنده دينك وشعارك واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلي وقتلهم الحسين والتبري من تيم وعدى وبني امية وبني العباس وان علياً يعلم الغيب يفوض اليه خلق العالم وما اشبه ذلك من اعاجيب الشيعة عند الدعوة اجابة ورشداً اوقفته على مثالب علي وولده رضي الله عنهم انتهى ولاشك انه ينصرف من سب الصحابة الى سب

اهل البيت ثم آل الرسول ﷺ اذاهل بيته من اصحابه مثل هؤلاء الفاعلين الضالين

قوله ﴿ وعلماء السلف من السابقين ومن بعدهم من التابعين اهل الخير والاثر

واهل الفقه والنظر لا يذكرون الا بالجميل ومن ذكرهم بسوء فهو على غير

السبيل ﴾ قال تعالى ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له الهدى ويتبع

غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ فيجب على

كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن

خصوصاً الذين هم ورثة الانبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدي بهم في

ظلمات البر والبحر وقداجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم اذ كل امة قبل

مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم فانهم خلفاء الرسول

من امته والمحيون لما مات من سنته فبهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب

وبه نطقوا متفقون اتفاقا يقينا على وجوب اتباع الرسول ﷺ ولكن اذا وجد

لواحد منهم قول قدجاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له في تركه من عذر وجماع

الاعذار ثلاثة اصناف (احدها) عدم اعتقاده ان النبي ﷺ قاله (والثاني) عدم

اعتقاده انه اراد تلك المسئلة بذلك القول (والثالث) اعتقاده ان ذلك محكم، منسوخ

فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق وتبليغ ما ارسل به الرسول ﷺ الينا

وايضاح ما كان منه يخفي علينا فرضي الله عنهم وارضاهم ﴿ ربنا اغفر لنا

ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا

انك رؤف رحيم ﴾. قوله ﴿ ولا نفضل احداً من الاولياء على احد من

الانبياء عليهم السلام ونقول نبي واحد افضل من جميع الاولياء ﴾ يشير الشيخ

رحمه الله الى الرد على الاتحادية وجهلة المتصوفة والا فاهل الاستقامة يوصون

بمتابعة العلم ومتابعة الشرع فقد اوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل قال تعالى ﴿ وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاؤك ﴾ الى ان قال ﴿ ويسلموا تسليما ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ . قال ابو عثمان النيسابوري : من امر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن امر الهوى على نفسه نطق بالبدعة وقال بعضهم : ما ترك بعضهم شيئاً من السنة الا لكبر في نفسه والامر كما قال فانه اذا لم يكن متبعا للأمر الذي جاء به الرسول كان يعمل بارادة نفسه فيكون متبعا لهواه بغير هدى من الله وهذا غش النفس وهو من الكبر فانه شبيه بقول الذين قالوا ﴿ لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله الله اعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وكثير من هؤلاء يظن انه يصل برياسته واجتهاده في العبادة ويضيف نفسه الى ما وصلت اليه الانبياء من غير اتباع لطريقتهم ومنهم من يظن انه قد صار افضل من الانبياء ومنهم من يقول ان الانبياء والرسل انما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الاولياء ويدعي لنفسه انه خاتم الأولياء ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون وهو ان هذا الوجود المشهود واجب بنفسه ليس له صانع مباين له لكن هذا يقول هو الله وفرعون اظهر الانكار بالكلية لكن كان فرعون في الباطن اعرف بالله منهم فانه كان مثبتا للصانع وهؤلاء ظنوا ان الوجود المخلوق هو الوجود الخالق كابن عربي وامثاله وهو لما رأى ان الشرع الظاهر لا سبيل الى تغييره قال النبوة ختمت لكن الولاية لم تختم وادعى من الولاية ما هو اعظم من النبوة وما يكون للانبياء والمرسلين وان الانبياء مستفيدون

منها كما قال مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي وهذا قلب للشريعة فان الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين كما قال تعالى ﴿ الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ والنبوة اخص من الولاية والرسالة اخص من النبوة كما تقدم التنبيه على ذلك وقال ابن عربي ايضا في فصوصه . ولما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت الا لبنة فكان هو ﷺ موضع اللبنة واما خاتم الاولياء فلا بد له من هذه الرؤية فيرى ما مثله النبي ﷺ ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين ويرى نفسه تنطبع في موضع اللبنتين فتكمل الحائط . والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين ان الحائط لبنة من فضة ولبنة من ذهب واللبنة الفضة هي ظاهره وما يتبعه فيه من الاحكام كما هو اخذ عن الله في الشرع ما هو في الصورة الظاهرة متبع فيه لانه يرى الامر على ما هو عليه فلا بد ان يراه هكذا وهو موضع اللبنة الذهبية في الباطن فانه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي اليه الى الرسول ﷺ قال فان فهمت ما اشرنا اليه فقد حصل لك العلم النافع . فمن اكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب والرسول المثل بلبنة فضة فيجعل نفسه اعلى وافضل من الرسول تلك امانيهم ﴿ان في صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه ﴾ وكيف يخفى كفر من هذا كلامه وله من الكلام امثال هذا وفيه ما يخفى منه الكفر ومنه ما يظهر فلهذا يحتاج الى نقد جيد ليظهر زيفه فان من الزغل ما يظهر لكل ناقد ومنه ما لا يظهر الا للناقد الحاذق البصير وكفر ابن عربي وامثاله فوق كفر القائلين ﴿ لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ ولكن ابن عربي وامثاله منافقون زنادقة الاتحادية في

الدرك الاسفل من النار والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لاظهارهم الاسلام كما كان يظهره المنافقون في حياة النبي ﷺ ويبطنون الكفر وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم فلو انه ظهر منهم ما يبطنه من الكفر لاجرى عليه حكم المرتد ولكن في قبول توبته خلاف والصحيح عدم قبولها وهي رواية معلى عن ابي حنيفة رضي الله عنه والله المستعان . قوله ﴿ ونؤمن بما جاء من كراماتهم وصح عن الثقات من رواياتهم ﴾ فالمعجزة في اللغة تعم كل خارق للعادة وفي عرف ائمة اهل العلم المتقدمين ولكن كثير من المتأخرين يفرقون في اللفظ بينهما فيجعلون المعجزة للنبي والكرامة للولي . وجماعها الامر الخارق للعادة والكمال يرجع الى ثلاثة العلم والقدرة والغنى وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال الا لله وحده فانه الذي احاط بكل شيء علما . وهو على كل شيء قدير . وهو غني عن العالمين ولهذا امر النبي ﷺ ان يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله ﴿ قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي ﴾ وكذلك قال نوح عليه السلام فهذا اول اولي العزم واول رسول بعثه الله الى اهل الارض وهذا خاتم الرسل وخاتم اولي العزم وكلاهما تبرأ من ذلك وهذا لانهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب كقوله تعالى ﴿ يسألونك عن الساعة ايان مرساها ﴾ وتارة بالتأثير كقوله تعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ﴾ الآيات وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية كقوله تعالى ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يا كل الطعام ويمشي في الاسواق ﴾ الآية فأمر الرسول ان يخبرهم بانه لا يملك ذلك وانما ينال من تلك الثلاثة بقدر مايعطيه الله فيعلم ما علمه الله اياه ويقدر على ما اقدره عليه ويستغني عما اغناه عنه

من الامور المخالفة للعادة المطردة او مادة اغلب الناس فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الانواع ثم الخارق ان حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الاعمال الصالحة المأمور بها دينا وشرعا اما واجب اومستحب وان حصل به امر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرا وان كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم او نهي تنزيه كان سببا للعذاب او البغض كالذي اوتي الآيات فانسلخ منها بلعام بن باعورا لاجتهاد وتقليد او نقص عقل او علم او غلبة حال او عجز او ضرورة فالخارج ثلاثة انواع محمود في الدين ومذموم ومباح فان كان المباح فيه منفعة كان نعمة والا فهو كسائر المباحات التي لامنفعة فيها . قال ابو علي الجوزجاني كن طالبا للاستقامة لاطالبا للكرامة فان نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة قال الشيخ السهروردى في عوارفه ولهذا اصل كثير في الباب فان كثيرا من المجتهدين المعتدين سمعوا سلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فنفوسهم لا تزال تتطلع الى شيء من ذلك ويحبون ان يرزقوا شيئا منه ولعل احدهم يبقى منكسر القلب متهما لنفسه في صحة عمله حيث لم يحصل له خارق ولو علموا بسر ذلك لهان عليهم الامر فيعلم ان الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابا والحكمة ان يزداد بما جرى من خوارق العادات واثار القدرة يقينا فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا والخروج عن دواعي الهوى فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة فهي كل الكرامة .

ولا ريب ان للقلوب من التأثير اعظم مما للابدان لكن ان كانت صالحة كان تاثيرها صالحا وان كانت فاسدة كان تاثيرها فاسدا فالاحوال يكون تأثيرها

محبوبا لله تعالى تارة ومكروها لله اخرى وقد تكلم الفقهاء في وجوب القود على من يقتل غيره في الباطن وهؤلاء يشهدون بواطنهم وقلوبهم الأمر الكوني ويعدون مجرد خرق العادة لأحدهم انه كرامة من الله له ولا يعلمون انه في الحقيقة انما الكرامة لزوم الاستقامة وان الله تعالى لم يكرم عبدا بكرامة اعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه وهو طاعته وطاعة رسوله وموالاة اوليائه ومعاداة اعدائه وهؤلاء هم اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . واما ما يبتلي الله به عبده من السر بخرق العادة او بغيرها او بالعز فليس ذلك لاجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه بل قد سعد بها قوم اذا اطاعوه وشقي بها قوم اذا عصوه كما قال تعالى ﴿فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فاكرمه ونعمه فيقول ربي اكرمن واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن كلا﴾ ولهذا كان الناس في هذه الامور ثلاثة اقسام قسم ترتفع درجتهم بخرق العادة وقسم يتعرضون بها لعذاب الله وقسم يكون في حقهم بمنزلة المباحات كما تقدم وتنوع الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله . وكلمات الله نوعان كونية ودينية فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله « اعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » قال تعالى ﴿ انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ﴾ وقال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته ﴾ والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الخوارق . والنوع الثاني الكلمات الدينية وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي امره ونهيه وخبره وحظ العبد منها العلم بها والعمل والامر بما امر الله به كما ان حظ العباد عموما وخصوصاً العلم بالكونيات والتأثير فيها اي بموجبها فالاولى تدبيرية كونية والثانية شرعية دينية فكشف الاولى العلم

بالحوادث الكونية وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية وقدرة الاولى التأثير في الكونيات امافي نفسه كمشيه على الماء وطيرانه في الهواء وجلوسه في النار واما في غيره باصحاح واهلاك واغناء وافقار . وقدرة الثانية التأثير في الشرعيات امافي نفسه بطاعة الله ورسوله واما في غيره فيطاع في ذلك طاعة شرعية فاذا تقرر ذلك فاعلم ان عدم الحوادث علما وقدرة لا تضر المسلم في دينه فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ولم يسخر له شيء من الكونيات لا ينقصه ذلك فى مرتبته عند الله بل قد يكون عدم ذلك انفع له فانه ان اقترن به الدين والا اهلك صاحبه في الدنيا والآخرة فان الخارق قد يكون مع الدين وقد يكون مع عدمه اوفساده او نقصه فالخوارق النافعة تابعة للدين ، خادمة له كما ان الرياسة النافعة هي النافعة للدين وكذلك المال النافع كما كان السلطان والمال النافع كما كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ وابي بكر وعمر فمن جعلها هي المقصودة وجعل الدين تابعاً لها ووسيلة اليها لا لاجل الدين في الاصل فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين وليست حاله كحالة من تدين خوف العذاب او رجاء الجنة فان ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة . والعجب ان كثيراً ممن يزعم ان همه قد ارتفع عن ان يكون خوفا من النار أو طلباً للجنة يجعل همه بدينه ادنى خارق من خوارق الدنيا ثم ان الدين اذا صح علما وعملا فلا بد ان يوجب خرق العادة اذا احتاج الى ذلك صاحبه . قال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وقال تعالى ﴿ ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو انهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم واشد تثبيتاً واذاً لآتيناهم من لدنا اجراً عظيما ولهديناهم صراطا

مستقيما ﴾ وقال تعالى ﴿ الا إن اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون ـ الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وقال رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ان في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ رواه الترمذي من رواية ابي سعيد الخدري وقال تعالى فيما يروي عنه رسوله ﷺ « من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب الي عبدي بمثل اداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لاعطينه ولئن استعاذني لاعيذنه وما ترددت في شيء انا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وا كره مساءته ولا بد له منه » فظهر ان الاستقامة حظ الرب وطلب الكرامة حظ النفس وبالله التوفيق .

وقول المعتزلة في انكار الكرامة ظاهر البطلان فانه بمنزلة انكار المحسوسات وقوله لو صحت لاشبهت المعجزة فيؤدي الى التباس النبي ﷺ بالولي وذلك لا يجوز وهذه الدعوى انما تصح اذا كان الولي يأتي بالخارق ويدعي النبوة وهذا لايقع ولو ادعى النبوة لم يكن وليا بل كان متنبيا كذابا . وقد تقدم الكلام في الفرق بين النبي والمتنبي عند قول الشيخ وان محمدا عبده المجتبى ونبيه المصطفى . ومما ينبغي التنبيه عليه ههنا ان الفراسة ثلاثة انواع : ايمانية وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده وحقيقتها انها خاطر يهجم على القلب يثب عليه كوثوب الاسد على الفريسة . ومنها اشتمالها [1] وهذه الفراسة

---

(١) لعلها اشتقاقها

على حسب قوة الايمان ، فمن كان اقوى ايمانا اخذ فراسته قال ابو سليمان الداراني رحمه الله الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب وهي من مقامات الايمان انتهى . وفراسة رياضة وهي التي تحصل بالجوع والسهر والتخلي فان النفس اذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ، ولا تدل على ايمان ولا على ولاية ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم ، بل كشفها من جنس فراسة الولاة واصحاب عبادة الرؤساء والاظناء ونحوهم . وفراسة خلقية وهي التي صنف فيها الاطباء وغيرهم واستدلوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الارتباط التي اقتضته حكمة الله فالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل وبكبره على كبره . وسعة الصدر على سعة الخلق وبضيقه على ضيقه وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبهما وضعف حرارة قلبه ونحو ذلك . قوله ﴿ ونؤمن باشراط الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام من السماء

ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها وخروج دابة الارض من موضعها ﴾ عن عوف بن مالك الاشجعي قال اتيت النبي ﷺ في غزوة وهو في قبة ادم فقال « اعدد ستا بين يدي الساعة: موتي ثم فتح بيت المقدس ثم موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم ثم استفاضة المال حتى يعطي الرجل مائة دينار فيظل ساخطا ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب الا دخلته ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الاصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية اثنا عشر الفا » وروي رايه بالراء والغين وهما بمعنى رواه البخاري وابو داود وابن ماجه والطبراني . وعن حذيفة بن اسيد قال اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة فقال « ما

تذ كرون ؟ » قالوا نذ كر الساعة فقال « انها لن تقوم حتى تروا عشر آيات : الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس الى محشرهم » رواه مسلم وفي الصحيحين واللفظ للبخاري عن ابن عمر رضي الله عنه قال ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال « ان الله لا يخفى عليكم ان الله ليس بأعور » واشار بيده الى عينيه « وان المسيح الدجال اعور عين اليمنى كأن عينه عنبة طافية » وعن انس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « مامن نبي الا انذر قومه الاعور الدجال، الا انه اعور وربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه ك ف ر » فسره في رواية اي كافر . وروى البخارى وغيره عن ابي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده ليوشكن ان ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله احد حتى يكون السجدة خيراً من الدنيا ومافيها » ثم يقول ابو هريرة اقرأوا ان شئتم ﴿ وان من اهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ وأحاديث الدجال وعيسى بن مريم عليه السلام ينزل من السماء ويقتله ويخرج يأجوج ومأجوج في ايامه بعد قتله الدجال فيهلكهم الله اجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم. يضيق هذا المختصر عن بسطها. واما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب فقال تعالى ﴿ واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾ وقال تعالى ﴿ هل ينظرون الا ان تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي

بعض ايات ربك لاينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل او كسبت في ايمانها خيراً قل انتظروا انا منتظرون ﴾ وروى البخاري عند تفسير الآية عن ابي هريرة قال قال رسول ﷺ « لاتقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فاذا رآها الناس آمن من عليها فذاك حين لاينفع نفساً ايمانها لم تكن آمنت من قبل » وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم انسه بعد . سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان اول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى فايتها ما كانت قبل صاحبتها فالاخرى على اثرها قريبا » اي اول الآيات التي ليست مألوفة وان كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك وكذلك خروج ياجوج وماجوج كل ذلك امور مألوفة لانهم بشر مشاهدة مثلهم مألوف ثم مخاطبتها الناس ووسمها اياهم بالايمان أو الكفر فامر خارج عن مجاري العادات وذلك اول الآيات الارضية كما ان طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة اول الآيات السماوية وقد افرد الناس احاديث اشراط الساعة مصنفات مشهورة يضيق عن بسطها هذا المختصر قوله ﴿ ولا نصدق كاهنا ولا عرافا ولا من يدعي شيئاً يخالف الكتاب والسنة واجماع الامة ﴾ روى مسلم والامام احمد عن صفية بنت ابي عبيد عن بعض ازواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال « من اتى عرافا فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة اربعين ليلة » وروى الامام احمد في مسنده عن ابي هريرة ان النبي ﷺ قال « من اتى عرافا او كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد » والمنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء وعند بعضهم هو في معناه فاذا كانت هذه حال السائل فكيف

بالمسئول . وفي الصحيحين ومسند الامام احمد عن عائشة قالت سئل رسول الله ﷺ عن الكهان فقال «ليسوا بشيء - فقالوا يا رسول الله انهم يحدثونا احيانا بشيء فيكون حقا - فقال رسول الله ﷺ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في اذن وليه فيخلطوا معها مائة كذبة » وفي الصحيح عنه ﷺ انه قال « ثمن الكلب خبيث ومهر البغي خبيث وحلوان الكاهن خبيث» وحلوانه التي تسميه العامة حلاوته ويدخل في هذا المعنى ما تعاطاه المنجم وصاحب الازلام التي يستقسم بها مثل الخشبة المكتوب عليها ا ب ج د والضارب بالحصا والذي يخط في الرمل وما تعاطاه هؤلاء حرام . وقد حكى الاجماع على تحريمه غير واحد من العلماء كالبغوي والقاضي عياض وغيرهما . وفي الصحيحين عن زيد بن خالد قال خطبنا رسول الله ﷺ بالحديبية على اثر سماء كانت من الليل فقال « اتدرون ما ذا قال ربكم الليلة » قلنا الله ورسوله اعلم قال « قال اصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فمن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب » وفي صحيح مسلم ومسند الامام احمد عن ابي مالك الاشعري ان النبي ﷺ قال « اربع في امتي من امر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالاحساب والطعن في الانساب والاستسقاء بالانواء والنياحة » والنصوص عن النبي ﷺ واصحابه وسائر الائمة بالنهي عن ذلك اكثر من ان يتسع هذا الموضع لذكرها . وصناعة التنجيم التي مضمونها الاحكام والتأثير وهو الاستدلال على الحوادث الارضية صناعة محرمة بالكتاب والسنة بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى ﴿ولا يفلح الساحر حيث اتى﴾ قال تعالى ﴿الم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب

يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره الجبت السحر وفي صحيح البخاري قال كان لابي بكر غلام يأكل من خراجه فجاء يوما بشيء فأكل منه ابو بكر فقال له الغلام تدري مم هذا قال وما هو قال كنت تكهنت لانسان في الجاهلية وما احسن الكهانة إلا اني خدعته ولقيني فأعطاني بذلك فهذا الذي اكلت منه فادخل ابو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه . والواجب على ولي الأمر وكل قادر ان يسعى في ازالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين واصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والقالات ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات او يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك ويكفي من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى في ازالته مع قدرته على ذلك قوله تعالى ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ وهؤلاء الملاعين يقولون الاثم ويأكلون السحت باجماع المسلمين . وثبت في السنن عن النبي ﷺ برواية الصديق رضي الله عنه انه قال « ان الناس اذا راوا المنكر فلم يغيروه اوشك ان يعمهم الله بعقاب منه » وهؤلاء الذين يفعلون هذه الافعال الخارجة عن الكتاب والسنة انواع : نوع منهم اهل تلبيس وكذب وخداع الذين يظهر احدهم طاعة الجن له او يدعي الحال من اهل المحال من المشائخ النصابين والفقراء الكاذبين والطرقية المكارين فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعهم وامثالهم عن الكذب والتلبيس وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتل كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات او يطلب بغير شيء من الشريعة ونحو ذلك . ونوع يتكلم في هذه الامور على سبيل الجد والحقيقة بانواع السحر وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر . كما هو مذهب ابي حنيفة ومالك واحمد

في المنصوص عنه وهذا هو المأثور عن الصحابة كعمر وابنته وعثمان وغيرهم ثم اختلف هؤلاء قيل يستتاب ام لا وهل يكفر بالسحر ام يقتل لسعيه في الارض بالفساد . وقال طائفة ان قتل بالسحر يقتل والا عوقب بدون القتل اذا لم يكن في قوله وعمله كفر وهذا هو المنقول عن الشافعي وهو قول في مذهب احمد وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وانواعه والاكثرون يقولون انه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر اليه وزعم بعضهم انه مجرد تخييل . واتفقوا كلهم على ان ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة اوغيرها او خطابها اوالسجود لها والتقرب اليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والتجوز ونحو ذلك فانه كفر وهومن اعظم ابواب الشرك فيجب غلقه بل سده وهو من جنس فعل قوم ابراهيم عليه السلام . ولهذا حكى الله عنه بقوله ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما جن عليه الليل راى كوكباً ﴾ - الآيات الى قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون ﴾ واتفقوا كلهم ايضا على ان كل رقية وتعزيم او قسم فيه شرك بالله فانه لا يجوز التكلم به وان اطاعته به الجن اوغيرهم وكذلك كل كلام فيه كفر لايجوز التكلم به وكذلك الكلام الذي لايعرف معناه لايتكلم به لإمكان ان يكون فيه شرك لايعرف ولهذا قال النبي ﷺ « لا بأس بالرقي مالم تكن شركا » ولا يجوز الاستعاذة بالجن فقد ذم الله الكافرين على ذلك . فقال تعالى ﴿ وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ قالوا كان الانسي اذا نزل بالوادى يقول : اعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فيبيت في امن وجوار حتى يصبح

فزادوهم رهقا يعني الانس للجن باستعاذتهم بهم رهقا اي اثما وطغيانا وخسرانا
وشرا وذلك انهم قالوا قد سدنا الجن والانس فالجن تعاظم في انفسها وتزداد
كفرا اذا عاملتها الانس بهذه المعاملة . وقد قال تعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعا
ثم نقول للملائكة اهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ـ قالوا سبحانك انت ولينا من
دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ﴾ فهؤلاء الذين يزعمون انهم
يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم وانها تنزل عليهم ضالون وانما ينزل
عليهم الشياطين وقد قال تعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم
من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا
اجلنا الذي اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك
حكيم عليم ﴾ فاستمتاع الانسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال اوامره واخباره
بشيء من المغيبات ونحو ذلك واستمتاع الجن بالانس تعظيمه اياه واستعانته
به واستغاثته وخضوعه له . ونوع منهم بالاحوال الشيطانية والتسوف ومخاطبته
رجال الغيب وان لهم خوارق يقتضي انهم اولياء الله وكان من هؤلاء من يعين
المشركين على المسلمين ويقول ان الرسول امره بقتال المسلمين مع المشركين
لكون المسلمين قد عصوا وهؤلاء في الحقيقة اخوان المشركين والناس من
اهل العلم فيهم على ثلاثة احزاب حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن
قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم او حدثه الثقات بما رأوه وهؤلاء اذا راوهم
وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم . وحزب عرفوهم ورجعوا الى القدر واعتقدوا
ان ثم في الباطن طريقا الى الله غير طريقة الأنبياء . وحزب ما امكنهم ان
يجعلوا وليا خارجا عن دائرة الرسول فقالوا يكون الرسول هو ممدا للطائفتين

فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه والحق ان هؤلاء من اتباع الشياطين وان رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالا كما قال تعالى ﴿ وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ والا فالانس [١] يونسون اي يشهون ويرون وانما يحتجب الانسي احيانا لايكون دائما محتجبا عن ابصار الانس ومن ظن انهم من الانس فمن غلطه وجهله . وسبب الضلال فيهم وافتراق احزاب هذه الثلاثة عدم الفرقان بين اولياء الشيطان واولياء الرحمن ويقول بعض الناس الفقراء يسلم اليهم حالهم وهذا كلام باطل بل الواجب عرض افعالهم واحوالهم على الشريعة المحمدية فما وافقها قبل وما خالفها رد كما قال النبي ﷺ «من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد» وفي رواية من احدث في امرنا هذا ماليس منه فهو رد فلا طريقة الا طريقة الرسول ﷺ ولا حقيقة الا حقيقته ولا شريعة الا شريعته ولا عقيدة الا عقيدته ولا يصل احد من الخلق بعده الى الله والى رضوانه وجنته وكرامته الا بمتابعته باطناً وظاهراً ومن لم يكن له مصدقا فيما اخبر ، ملتزما لطاعته فيما امر في الامور الباطنة التي في القلوب والاعمال الظاهرة التي على الابدان لم يكن مؤمنا فضلا عن ان يكون وليا لله تعالى ولو طار في الهواء ومشى على الماء [٢] وانفق من الغيب واخرج الذهب من الخشب ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى ان يحصل فانه لايكون مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور الا من اهل الاحوال الشيطانية المبعدة لصاحبها عن الله تعالى ، المقربة الى سخطه وعذابه لكن من ليس يكلف من الاطفال والمجانين قد رفع عنهم القلم فلا

(١) كذا بالاصل ولعل فى الكلام سقطا

(٢) كذا بالاصل ولعله اخبر بشيء من الغيب

يعاقبون وليس لهم من الايمان بالله والاقرار باطنا وظاهراً ما يكون به من
اولياءالله المقربين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين لكن يدخلون في الاسلام
تبعاً لآبائهم كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنابهم
ذريتهم ومااالتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ﴾ فمن اعتقد
في بعض البله او المولعين مع تركه لمتابعة الرسول في اقواله وافعاله واحواله
انه من اولياء الله ويفضله على متبعي طريقة الرسول ﷺ فهو ضال مبتدع
مخطئ في اعتقاده فان ذاك الابله اما ان يكون شيطانا زنديقاً او زوكا ريا
متحيلا او مجنوناً معذوراً فكيف يفضل على من هو من اولياء الله المتبعين
لرسوله او يساوي به ولا يقال يمكن ان يكون هذا متبعاً في الباطن فان هذا
خطأ ايضاً بل الواجب متابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً . قال موسى بن
عبد الاعلى الصدفي قلت للشافعي : ان صاحبنا الليث كان يقول : اذا رأيتم
الرجل يمشي على الماء فلاتغتروا به حتى تعرضوا امره على الكتاب والسنة .
فقال الشافعي : قصر الليث رحمه الله بل اذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير
في الهواء فلاتغتروا به حتى تعرضوا امره على الكتاب . واما مايقوله بعض
الناس عن رسول الله ﷺ انه قال « اطلعت على الجنة فرأيت اكثر اهلها
البله » فهذا لايصح عن رسول الله ﷺ ولاينبغي نسبته اليه فان الجنة انما
خلقت لأولي الالباب الذين أرشدتهم عقولهم والبابهم الى الايمان بالله
وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وقدذكر الله اهل الجنة بأوصافهم
في كتابه فلم يذكر في اوصافهم البله الذي هوضعف العقل وانما قال النبي ﷺ
« اطلعت في الجنة فرأيت اكثراهلها الفقراء » ولم يقل البله والطائفة الملامية

وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ويقولون نحن متبعون في الباطن ويقصدون
اخفاء المراسين ردوا باطلهم بباطل آخر والصراط المستقيم بين ذلك.
وكذلك الذين يصعقون عند سماع الانغام الحسنة مبتدعون ضالون وليس
للانسان ان يستدعي ما يكون سبب زوال عقله ولم يكن في الصحابة والتابعين
من يفعل ذلك ولو عند سماع القرآن بل كانوا كما وصفهم الله تعالى ﴿ اذا ذكر
الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾
وكما قال الله تعالى ﴿ الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه
جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله
يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ واما الذين ذكرهم العلماء
بخير من عقلاء المجانين فاولئك كان فيهم خير ثم زالت عقولهم. ومن علامة
هؤلاء انه اذا حصل في جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان في قلوبهم
من الايمان ويهتدون بذلك في حال زوال عقلهم بخلاف من كان قبل جنونه
كافراً او فاسقاً لم يكن حدوث جنونه مزيلا لما ثبت من كفره او فسقه.
وكذلك من جن من المؤمنين المتقين يكون محشوراً مع المؤمنين المتقين وزوال
العقل بجنون او غيره سواء سمي صاحبه مولها اوولها لا يوجب مزيد حال
بل حال صاحبه من الايمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر لانه
يزده اوينقصه ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير كما انه يمنع عقوبته على
الشر ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله وما يحصل لبعضهم عند سماع الانغام المطربة
من الهذيان والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسان المعروف منه فذلك
شيطان يتكلم على لسانه كما يتكلم على لسان المصروع وذلك كله من الاحوال

الشيطانية وكيف يكون زوال العقل سببا او شرطا او تقربا الى ولاية الله كما يظنه كثير من اهل الضلال حتى قال قائلهم :

هم معشر حلوا النظام وخرقوا الـ * سياج فلا فرض لديهم ولا نفل
مجانين الا ان سر جنونهم * عزيز على ابوابه يسجد العقل

وهذا كلام ضال بل كافر يظن ان الجنون سرا يسجد العقل على بابه لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة او تصرف عجيب خارق للعادة ويكون ذلك سبب ما اقترن به من الشياطين كما يكون للسحرة والكهان فيظن هذا الضال ان كل من خبل او خرق عادة كان وليا لله ومن اعتقد هذا فهو كافر فقد قال تعالى ﴿هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم﴾ فكل من تنزل عليه الشياطين لا بد ان يكون عنده كذب وفجور . وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات ويتركون الجمع والجماعات فهم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا قد طبع الله على قلوبهم كما قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « من ترك ثلاث جمع تهاونا من غير عذر طبع الله على قلبه » وكل من عدل عن اتباع الرسول ان كان عالما بها فهو مغضوب عليه والا فهو ضال . ولهذا شرع الله لنا أن نسأله في كل صلاة ان يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين انعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا غير المغضوب عليهم ولا الضالين . واما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني الذي يدعيه بعض من عدم التوفيق فهو ملحد زنديق فان موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا الى الخضر ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته . ولهذا

قال له انت موسى بني اسرائيل قال نعم و محمد ﷺ مبعوث الى جميع الثقلين ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من اتباعه واذا نزل عيسى عليه السلام الى الارض انما يحكم بشريعة محمد فمن ادعى انه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى اوجوز ذلك لاحد من الامة فليجدد اسلامه وليشهد شهادة الحق فانه مفارق لدين الاسلام بالكلية فضلا عن ان يكون من اولياء الله وانما هو من اولياء الشيطان وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم واهل الاستقامة (١) وكذا من يقول بان الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا فهلا خرجت الكعبة الى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين احصر عنها وهو يود منها نظرة وهؤلاء لهم شبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول ﴿ بل يريد كل امرئ منهم ان يؤتى صحفاً منشرة ﴾ الى آخر السورة ﴿ ونرى الجماعة حقاً وصوابا والفرقة زيغاً وعذابا ﴾ قال الله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء انما امرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ﴾ فجعل اهل الرحمة مستثنين من الاختلاف وقال تعالى ﴿ ذلك بان الله نزل الكتاب بالحق وان الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ وقد تقدم قوله ﷺ «ان اهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الاهوا كلها في النار الا واحدة وهي الجماعة» وفي رواية قالوا من هي

---

(١) بياض فى الاصل قدر كلمة

يا رسول الله قال « ما انا عليه واصحابي » فبين ان عامة المختلفين هالكون إلا اهل السنة والجماعة وان الاختلاف واقع لامحالة وروى الامام احمد عن معاذ بن جبل ان النبي ﷺ قال « ان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ الشاردة القاصية فاياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد » وفي الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال لما نزل قوله تعالى ﴿قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم﴾ قال اعوذ بوجهك ﴿او يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال هاتان اهون فدل على انه لابد ان يلبسهم شيعا ويذيق بعضهم بأس بعض مع براءة الرسول من هذه الحال وهم فيها في جاهلية . ولهذا قال الزهري وقعت الفتنة واصحاب رسول الله ﷺ متوافرون فاجمعوا على ان كل دم اومال او فرج اصيب بتأويل القرآن فهو هدر ، نزلوهم منزلة الجاهلية وقد روى مالك باسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها انها كانت تقول ترك الناس العمل بهذه الآية يعني قوله تعالى ﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما﴾ فان المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الاصلاح بينهم كما امر الله تعالى فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية وهكذا تسلسل النزاع [1] التي تنازع فيها الامة في الاصول والفروع اذا لم ترد الى الله والرسول لم يتبين فيها الحق بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من امرهم فانهم رحمهم الله اقر بعضهم بعضاً ولم يبغ بعضهم على بعض كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد فيقر بعضهم بعضاً ولا يعتدي ولا يعتدى عليه وان لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم فبغي بعضهم على بعض امابالقول مثل تكفيره وتفسيقه وامابالفعل

(١) لعلها فى المسائل

مثل حبسه وضربه وقتله والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ابتدعوا بدعة وكفروا من خالفهم فيها واستحلوا منع حقه وعقوبته فالناس اذا خفي عليهم بعض مابعث الله به الرسول اما عادلون واما ظالمون . فالعادل فيهم الذي يعمل بما وصل اليه من آثار الانبياء ولا يظلم غيره والظالم الذي يعتدي على غيره واكثرهم انما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون . كما قال تعالى ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل اقر بعضهم بعضاً كالمقلدين لأئمة العلم الذين يعرفون من انفسهم انهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل فجعلوا أئمتهم نوابا عن الرسول وقالوا هذا غاية ما قدرنا عليه فالعادل منهم لايظلم الآخر ولايعتدي عليه بقول ولافعل مثل ان يدعي ان قول مقلده هو الصحيح بلاحجة يبديها ويذم من خالفه مع انه معذور . ثم ان انواع الافتراق والاختلاف في الاصل قسمان اختلاف تنوع واختلاف تضاد واختلاف التنوع على وجوه منه ما يكون كل واحد من القولين اوالفعلين حقا مشروعا كما في القراآت التى اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم حتى زجرهم النبي ﷺ وقال كلاكما محسن. ومثله اختلاف الانواع في صفة الاذان والاقامة والاستفتاح ومحل سجود السهو والتشهد وصلاة الخوف وتكبيرات العيد ونحو ذلك مما قد شرع جميعه وان كان بعض انواعه ارجح اوافضل ثم تجد لكثير من الامة في ذلك من الاختلاف ما اوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الاقامة وايتارها ونحو ذلك وهذا عين المحرم وكذا تجد كثيرا منهم في قلبه من الهوى لاحد هذه الانواع والاعراض عن الآخر والنهي عنه ما دخل به

فيما نهى عنه النبي ﷺ . ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر لكن العبارتان مختلفتان كما قد يختلف كثير من الناس في الفاظ الحدود وصوغ الادلة والتعبير عن المسميات ونحو ذلك ثم الجهل او الظلم يحمل على حمد احدى المقالتين وذم الاخرى والاعتداء على قائلها ونحو ذلك. واما اختلاف التضاد فهو القولان المتنافيان اما في الاصول واما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون المصيب واحد والخطب في هذا اشد لان القولين يتنافيان . لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما اومعه دليل يقتضي حقا ما فيرد الحق مع الباطل حتى يبقى هذا مبطلا في البعض كما كان الاول مبطلا في الاصل وهذا يجري كثيرا لاهل السنة . واما اهل البدعة فالامر فيهم ظاهر ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا مايبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا واشباهه وان كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا لكن نور على نور والاختلاف الاول الذي هو اختلاف التنوع الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه . وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك اذا لم يحصل بغي . كما في قوله تعالى ﴿ما قطعتم من لينة او تركتموها قائمة على اصولها فبأذن الله﴾ وقد كانوا اختلفوا في قطع الاشجار فقطع قوم وترك آخرون . وكما في قوله تعالى ﴿وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما﴾ فخص سليمان بالفهم واثنى عليهما بالحكم والعلم .وكما في اقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها ولمن أخرها الى ان وصل الى بني قريظة وكما في قوله « اذا اجتهد

الحاكم فاصاب فله اجران واذا اجتهد فاخطأ فله اجر » وذلك الاختلاف الثاني هو ماحمد فيه احدى الطائفتين وذمت الاخرى كما في قوله تعالى ﴿ ولوشاء الله مااقتتل الذين من بعدهم من بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ وقوله تعالى ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ الآيات واكثر الاختلاف الذي يؤل الى الاهواء بين الامة من القسم الاول وكذلك الى سفك الدماء واستباحة الاموال والعداوة والبغضاء لان احدى الطائفتين لاتعترف للاخرى بما معها من الحق ولاتنصفها بل تزيد على مامع نفسها من الحق زيادات من الباطل والاخرى كذلك وكذلك جعل الله مصدره البغي في قوله ﴿ وما اختلف الذين اوتوه الامن بعدماجاءهم البينات بغياً بينهم ﴾ لان البغي مجاوزة الحد وذكر هذا في غير موضع من القرآن لتكون عبرة لهذه الامة . وقريب من هذا الباب ما خرجاه في الصحيحين عن ابي الزناد عن الاعرج عن ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال « ذروني ما تركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا امرتكم بامر فأتوا منه ما استطعتم » فامرهم بالامساك عما لم يؤمروا به معللا بان سبب هلاك الاولين انما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية . ثم الاختلاف في الكتاب من الذين يقرون به على نوعين: احدهما اختلاف في تنزيله والثاني اختلاف في تأويله وكلاهما فيه ايمان ببعض دون بعض فالاول كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيله فطائفة قالت : هذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقا في غيره لم يقم به وطائفة قالت

بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته وكل
من الطائفتين جمعت في كلامها بين حق وباطل فآمنت ببعض الحق وكذبت
بما تقوله الاخرى من الحق وقد تقدمت الاشارة الى ذاك . واما الاختلاف
في تأويله الذي يتضمن الايمان ببعضه دون بعض فكثير كما في حديث عمرو
ابن شعيب عن ابيه عن جده قال خرج رسول الله ﷺ على اصحابه ذات يوم
وهم يختصمون في القدر وهذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية فكأنما فقىء في وجهه
حب الرمان فقال ابهذا امرتم ام بهذا وكلتم ان تضربوا كتاب الله بعضه
ببعض انظروا ما امرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فانتهوا » وفي رواية » ياقوم
بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على انبيائهم وضربهم الكتاب بعضه
ببعض وان القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يصدق
بعضه بعضا ما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه فآمنوا به وفي رواية فان الامم
قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا وان المراء في القرآن كفر » وهو حديث مشهور
مخرج في المساند والسنن . وقد روى اصل الحديث مسلم في صحيحه من حديث
عبدالله بن رباح الانصاري ان عبدالله بن عمر قال هجرت الى النبي ﷺ يوما
فسمع اصوات رجلين اختلفا في آية فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في
وجهه الغضب فقال انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب . وجميع
اهل البدع مختلفون في تأويله مؤمنون ببعضه دون بعض يقرون بما يوافق
رأيهم من الآيات وما يخالفه اما ان يتأوله تأويلا يحرفون الكلم عن مواضعه
واما ان يقول مالا نفهم من معانيه وهو في معنى الكفر بذلك لان الايمان
باللفظ بلا معنى هو من جنس ايمان اهل الكتاب كما قال تعالى ﴿مثل الذين حملوا

التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا اماني ﴾ اي الا تلاوة من غير فهم معناه وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به واشتبه عليه بعضه فوكل علمه الى الله كما امره النبي ﷺ بقوله « فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه الى عالمه » فامتثل ما أمر به ﷺ قوله ﴿ ودين الله في الارض والسماء واحد وهو دين الاسلام قال الله تعالى ﴿ ان الدين عند الله الاسلام ﴾ وقال تعالى ﴿ ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾ وهو بين التقصير وبين التشبيه والتعطيل وبين الجبر والقدر وبين الامن والاياس ﴾ ثبت في الصحيح عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ انه قال « انا معاشر الانبياء ديننا واحد » وقوله تعالى ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ عام في كل زمان ولكن الشرائع تتنوع كما قال تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ فالدين هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على السنة رسله واصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل وهو ظاهر غاية الظهور يمكن كل مميز من صغير وكبير وفصيح واعجمي وذكي وبليد ان يدخل فيه باقصر زمان وانه يقع الخروج منه باسرع من ذلك من انكار كلمة أو تكذيب او معارضة او كذب على الله أو ارتياب في قول الله تعالى او رد لما انزل او شك فيما نفى الله عنه الشك اوغير ذلك مما في معناه . فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الاسلام وسهولة تعلمه وانه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الالفاظ بحسب من يتعلم فان كان بعيد الوطن كضمام بن ثعلبة النجدي ووفد عبد القيس علمهم ما لم يسعهم جهله مع علمه ان دينه سينتشر في الآفاق ويرسل اليهم

من يفقههم في سائر ما يحتاجون اليه ومن كان قريب الوطن يمكنه الاتيان كل وقت بحيث يتعلم على التدريج او كان قد علم فيه انه قد عرف مالابدمنه اجابه بحسب حاله وحاجته على ما يدل قرينة حال السائل كقوله قل آمنت بالله ثم استقم . واما من شرع دينا لم يأذن به الله فملوم ان اصوله المستلزمة له لا يجوز ان تكون منقولة عن النبي ﷺ ولا عن احد من المرسلين اذ هو باطل وملزوم الباطل باطل كما ان لازم الحق حق وقوله . بين الغلو والتقصير قال تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين — وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون ﴾ وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ان ناسا من اصحاب رسول الله ﷺ سألوا اصحاب رسول الله عن عمله في السر فقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا اتزوج النساء وقال بعضهم لا انام على فراش فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « ما بال اقوام يقول احدهم كذا وكذا لكني اصوم وافطر وانام واقوم وآكل اللحم واتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » وفي غير الصحيحين سألوا عن عبادته في السر فكانهم تقالوها . وذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة عن ابن جريج عن عكرمة ان عثمان بن مظعون وعلي بن ابي طالب وابن مسعود والمقداد بن الاسود وسالما مولى ابي حذيفة في اصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت واعتزلوا النساء ولبسوا المسوح وحرموا طيبات الطعام واللباس الا ما يأكل ويلبس اهل السياحة من بني اسرائيل وهموا بالاختصاء واجمعوا القيام الليل وصيام النهار فنزلت ﴿ يا أيها

الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين ﴾ يقول لا تسيروا بغير سنة المسلمين يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس وما اجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار وما هموا به من الاختصاء فنزلت فيهم . فبعث النبي ﷺ اليهم فقال « ان لا نفسكم عليكم حقا وان لاعينكم حقا صوموا وافطروا وصلوا وناموا فليس منا من ترك سنتنا » فقالوا « اللهم سلمنا واتبعنا ما انزلت » وقوله وبين التشبيه والتعطيل تقدم ان الله سبحانه وتعالى يجب ان يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تشبيه فلا يقال سمع كسمعنا ولا بصر كبصرنا ونحوه ومن غير تعطيل فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه او وصفه به اعرف الناس به رسوله ﷺ فان ذلك تعطيل . وقد تقدم الكلام في هذا المعنى ونظير هذا القول ، قوله ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ فقوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ رد على المشبهة وقوله ﴿ وهو السميع البصير ﴾ رد على المعطلة وقوله وبين الجبر والقدر تقدم الكلام ايضا على هذا المعنى وان العبد غير مجبور على افعاله واقواله وانها بمنزلة حركات المرتعش وحركات الاشجار بالرياح وغيرها وليست مخلوقة للعبد بل هي فعل العبد وكسبه وخلق الله تعالى وقوله وبين الامن والاياس تقدم الكلام ايضا على هذا المعنى وانه يجب ان يكون العبد خائفا من عذاب ربه راجيا رحمته وان الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد في سيره الى الله تعالى والدار الآخرة . قوله ﴿ فهذا ديننا واعتقادنا ظاهرا وباطنا ونحن برآء الى الله تعالى من كل من

خالف الذي ذكرناه وبيناه ونسأل الله تعالى ان يثبتنا على الايمان ويختم

لنا به ويعصمنا من الاهواء المختلفة والاراء المتفرقة والمذاهب الردية مثل
المشبهة والمعتزلة والجهمية والجبرية والقدرية وغيرهم من الذين خالفوا السنة
والجماعة وحالفوا الضلالة ، ونحن منهم برآء وهم عندنا ضلال واردياء وبالله العصمة
والتوفيق ﴾ الاشارة بقوله فهذا الى كل ما تقدم من اول الكتاب الى هنا
والمشبهة هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق في صفاته وقولهم عكس قول النصارى
شبهوا المخلوق وهو عيسى عليه السلام بالخالق وجعلوه إلهاً وهؤلاء شبهوا
الخالق بالمخلوق كداود الجواربي واشباهه والمعتزلة وهم عمرو بن عبيد وواصل
ابن عطاء الغزال واصحابهما سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن
البصري رحمه الله في اوائل المائة الثانية وكانوا يجلسون معتزلين فيقول قتادة
وغيره اولئك المعتزلة وقيل ان واصل بن عطاء هو الذي وضع اصول مذهب
المعتزلة وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري فلما كان زمن هارون الرشيد
صنف لهم ابو الهذيل كتابين وبين مذهبهم وبنى مذهبهم على الاصول الخمسة
التي سموها العدل والتوحيد وانفاذ الوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف
والنهي عن المنكر ولبسوا فيها الحق بالباطل اذ شأن البدع هذا اشتمالها على
حق وباطل وهم مشبهة الافعال لانهم قاسوا افعال الله تعالى على افعال عباده
وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه وما يقبح من العباد يقبح منه وقالوا
يجب عليه ان يفعل كذا ولا يجوز له ان يفعل كذا بمقتضى ذلك القياس الفاسد
فان السيد من بني آدم لو رأى عبيده تزني بأمائه ولا يمنعهم من ذلك لعد اما
مستحسنا للقبيح واما عاجزا فكيف يصح قياس افعاله سبحانه وتعالى على
افعال عباده والكلام على هذا المعنى مبسوط في موضعه فأما العدل فستر وتحته

نفي القدر وقالوا ان الله لا يخلق الشر ولا يقضي به اذلو خلقه ثم يعذبهم عليه يكون ذلك جورا والله تعالى عادل لايجور ويلزم على هذا الاصل الفاسد ان الله تعالى يكون في ملكه مالا يريده فيريد الشيء ولا يكون ولازمه وصفه بالعجز تعالى الله عن ذلك . واما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن اذ لو كان غير مخلوق لزم تعدد القدماء ويلزمهم على هذا القول الفاسد ان علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة اوالتناقض . واما الوعيد فقالوا اذا أوعد بعض عبيده وعيدا لايجوز أن لايعذبهم ويخلف وعيدهم لانه لايخلف الميعاد فلايعفو عمن يشاء ولا يغفر لمن يريد عندهم . واما المنزلة بين المنزلتين فعندهم ان من ارتكب كبيرة يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر . واما الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقالوا علينا ان نأمر غيرنا بما امرنا به وان نلزمه بما يلزمنا وذلك هو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وضمنوه انه يجوز الخروج على الائمة بالقتال اذا جاروا . وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس في موضعها وعندهم ان التوحيد والعدل من الاصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع الا بعدها واذا استدلوا على ذلك بادلة سمعية انما يذكرونها للاعتضاد بها لا للاعتماد عليها فهم يقولون لا تثبت هذه بالسمع بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل فنهم من لايذكرها في الاصول اذ لا فائدة فيها عندهم ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل ولايناس الناس بها لا للاعتماد عليها والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب والمدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم وبمنزلة من يتبع هواه واتفق ان الشرع ما يهواه . كما قال عمر بن عبد العزيز لا تكن ممن يتبع الحق اذا وافق هواه ويخالفه اذا خالف هواه فاذا انت لا تثاب على ما وافقته من الحق وتعاقب على ما تركته

منه لانك انما اتبعت هواك في الموضعين . وكما ان الاعمال بالنيات « وانما لكل امرئ ما نوى » والعمل يتبع قصد صاحبه وارادته فالاعتقاد القوي يتبع ايضاً علم ذلك وتصديقه فاذا كان ذلك تابعاً للايمان كان من الايمان كما ان العمل الصالح اذا كان عن نية صالحة كان صالحاً والافلا فقول اهل الايمان التابع لغير الايمان كعمل اهل الصلاح التابع لغير قصد اهل الصلاح وفي المعتزلة زنادقة كثيرة وفيهم من ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً والجهمية هم المنتسبون الى جهم بن صفوان الترمذى وهو الذي اظهر نفى الصفات والتعطيل وهو اخذ ذلك عن الجعد بن درهم الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط فانه خطب الناس في يوم عيد الاضحى وقال : ايها الناس ضحوا تقبل الله ضحايا كم فاني مضح بالجعد بن درهم فانه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل فذبحه وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه وهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى وكان الجهم بعده بخراسان فأظهر مقالته هناك وتبعه عليها ناس بعد ان ترك الصلاة اربعين يوما شكا في ربه وكان ذلك لمناظرته قوما من المشركين يقال لهم السمنية فلاسفة الهند الذين ينكرون من العلم ماسوى الحسيات قالوا له : هذا ربك الذى تعبده هذا يرى اويشم او يذاق او يلمس فقال : لا فقالوا : هو معدوم فبقى اربعين يوما لايعبد شيئاً ثم لما خلاقلبه من معبود يألهه نقش الشيطان اعتقاداً نحته فكره فقال : انه الوجود المطلق ونفى جميع الصفات واتصل بالجعد . وقد قيل أن الجعد كان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من اهل حران وانه ايضاً اخذ شيئاً عن بعض اليهود

المحرفين لدينهم المتصلين بلبيد بن الاعصم الساحر الذى سحر النبي ﷺ فقتل الجهم بخراسان قتله سلم بن احوز ولكن كانت قد فشت مقالته في الناس وتقلدها بعده المعتزلة ولكن كان الجهم ادخل في التعطيل منهم لانه ينكر الاسماء حقيقة وهم لا ينكرون الاسماء بل الصفات وقد تنازع العلماء في الجهمية هل هم من الثنتين وسبعين فرقة ام لا ولهم في ذلك قولان . وممن قال انهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة عبد الله بن المبارك ويوسف بن اسباط وانما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الامام احمد بن حنبل وغيره من علماء السنة فانه من امارة المأمون قووا وكثروا فانه قد قام بخراسان مدة واجتمع بهم . ثم كتب بالمحنة من طرطوس سنة ثمان عشرة ومائتين وفيها مات . وردوا الامام احمد الى الحبس ببغداد الى سنة عشرين وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه وبين انه لا حجة لهم في شيء من ذلك وان طلبهم من الناس أن يوافقوهم وامتحانهم اياهم جهل وظلم واراد المعتصم اطلاقه ، اشار عليه من اشار بان المصلحة ضربه لئلا تنكسر حرمة الخلافة من بعد مرة فلما ضربوه قامت الشناعة في العامة وخافوا فاطلقوه وقصته مذكورة في كتب التاريخ . ومما انفرد به الجهم ان الجنة والنار تفنيان وان الايمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط وانه لا فعل لاحد في الحقيقة الا لله وحده وان الناس انما ينسب اليهم افعالهم على سبيل المجاز كما يقال تحركت الشجرة ودار الفلك وزالت الشمس ولقد احسن القائل

عجبت لشيطان دعا الناس جهرة * الى النار واشتق اسمه من جهنم

وقد نقل عن ابي حنيفة رحمه الله لما سئل عن الكلام في الاعراض والاجسام

فقال لعن الله عمرو بن عبيد هو فتح على الناس الكلام في هذا والجبرية اصل قولهم من الجهم بن صفوان كما تقدم وان فعل العبد بمنزلة طوله ولونه وهم عكس القدرية نفاة القدر فان القدرية لما نسبوا الى القدر لنفيهم اياه كما سميت المرجئة لنفيهم الارجاء وانه لا احد مرجأ لامر الله اما يعذبهم واما يتوب عليهم وقد تسمى الجبرية قدرية لانهم غلوا في اثبات القدر وكما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد بل يغلون في ارجاء كل امر حتى الانواع فلا يجزمون بثواب من تاب كما لا يجزم بعقوبة من لم يتب وكما لا يجزم لمعين وكانت المرجئة الاولى يرجئون عثمان وعلياً ولا يشهدون بايمان ولا كفر وقد ورد في ذم القدرية احاديث في السنن . منها ماروي ابو داود في سننه من حديث عبد العزيز بن ابي حازم عن ابيه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال «القدرية مجوس هذه الامة ان مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم» وروى في ذم القدرية احاديث أخر كثيرة تكلم اهل الحديث في صحة رفعها والصحيح انها موقوفة بخلاف الاحاديث الواردة في ذم الخوارج . فان فيهم في الصحيح وحده عشرة احاديث اخرج البخارى منها ثلاثة واخرج مسلم سائرها ولكن شبههم للمجوس ظاهر بل قولهم أردى من قول المجوس فان المجوس اعتقدوا وجود خالقين والقدرية اعتقدوا خالقين وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرقة بين الامة كما ذكر البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال : وقعت الفتنة الاولى يعني مقتل عثمان فلم تبق من اصحاب بدر احداً . ثم وقعت الفتنة الثانية فلم تبق من اصحاب الحديبية احداً . ثم وقعت الثالثة فلم ترتفع وللناس طباخ اي عقل وقوة فالخوارج والشيعة حدثوا

في الفتنة الاولى والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً يقابلون البدعة بالبدعة اولئك غلوا في علي واولئك كفروه واولئك غلوا في الوعيد حتى خلدوا بعض المؤمنين واولئك غلوا في الوعد حتى نفوا بعض الوعيد اعني المرجئة واولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات وهؤلاء غلوا في الاثبات حتى وقعوا في التشبيه وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ماليس بمشروع ويعرضون عن الامر المشروع وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الاوائل اليهود والنصارى والمجوس والصابئين فانهم قرأوا كتبهم فصار عندهم من ضلالتهم ما ادخلوه في مسائلهم ودلائلهم وغيروه في اللفظ تارة وفي المعنى أخرى فلبسوا الحق بالباطل وكتموا حقاً جاء به نبيهم فتفرقوا واختلفوا وتكلموا حينئذ في الجسم والعرض والتجسيم نفياً واثباتا . وسبب ضلال هذه الفرق وامثالهم عدولهم عن الصراط المستقيم الذي امرنا الله باتباعه فقال تعالى ﴿ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ﴾ فوحد لفظ صراطه وسبيله وجمع السبل المخالفة له . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : خط لنا رسول الله ﷺ خطا وقال « هذا سبيل الله » ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره وقال « هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو اليه » ثم قرأ ﴿ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ ومن ههنا يعلم ان اضطرار العبد الى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة ولهذا شرع الله تعالى في

الصلاة قراءة ام القرآن في كل ركعة اما فرضاً اوايجاباً على حسب اختلاف العلماء في ذلك لاحتياج العبد الى هذا الدعاء العظيم القدر المشتمل على اشرف المطالب وأجلها. فقد امرنا الله تعالى ان نقول ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ انه قال « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يارسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال « فمن » قال طائفة من السلف : من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى. فلهذا تجد اكثر المنحرفين من اهل الكلام من المعتزلة ونحوهم فيه شبه من اليهود حتى ان علماء اليهود يقرأون كتب شيوخ المعتزلة ويستحسنون طريقتهم و كذا شيوخ المعتزلة يميلون الى اليهود ويرجحونهم على النصارى واكثر المنحرفين من العباد من المتصوفة ونحوهم فيه شبه من النصارى. ولهذا يميلون الى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك وشيوخ هؤلاء يذمون الكلام واهله وشيوخ اولئك يعيبون طريقة هؤلاء ويصنفون في ذم السماع والوجد وكثير من الزهد والعبادة التي احدثها هؤلاء وللفرق الضلال في الوحي طريقتان طريقة التبديل وطريقة التجهيل اما اهل التبديل فهم نوعان اهل الوهم والتخييل واهل التحريف والتأويل فاهل الوهم والتخييل هم الذين يقولون ان الانبياء اخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بامور غير مطابقة للأمر في نفسه لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به ان الله

شيء عظيم كبير وان الابدان تعادوان لهم نعيما محسوسا وعقابا محسوسا وان كان الامر ليس كذلك لان مصلحة الجمهور في ذاك وان كان كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور وقد وضع ابن سينا وامثاله قانونهم على هذا الاصل . واما اهل التحريف والتأويل فهم الذين يقولون ان الانبياء لم يقصدوا بهذه الاقوال ما هو الحق في نفس الامر وان الحق في نفس الامر هو ما علمناه بعقولنا ثم يجتهدون في تأويل هذه الاقوال الى ما يوافق رأيهم بانواع التأويلات . ولهذا كان اكثرهم لا يجزمون بالتأويل بل يقولون يجوز ان يراد كذا وغاية ما معهم امكان احتمال اللفظ . واما اهل التجهيل والتضليل الذين حقيقة قولهم ان الانبياء واتباع الانبياء جاهلون ضالون لا يعرفون ما اراد الله بما وصف به نفسه من الآيات واقوال الانبياء ويقولون يجوز ان يكون للنص تأويل لا يعلمه الا الله لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الانبياء فضلا عن الصحابة والتابعين لهم باحسان وان محمدا ﷺ كان يقرأ ﴿الرحمن على العرش استوى - اليه يصعد الكلم الطيب - مامنعك ان تسجد لما خلقت بيدي﴾ وهو لا يعرف معاني هذه الآيات بل معناها الذي دلت عليه لا يعرفه الا الله تعالى ويظنون ان هذه طريقة السلف . ثم منهم من يقول ان المراد بها خلاف مدلولها الظاهر المفهوم ولا يعرفه احد كما لا يعلم وقت الساعة ومنهم من يقول بل تجرى على ظاهرها وتحمل على ظاهرها ومع هذا فلا يعلم تأويلها الا الله فيتناقضون حيث اثبتوا لها تأويلا يخالف ظاهرها وقالوا مع هذا انها تحمل على ظاهرها وهؤلاء يشتركون في القول بان الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلة او متشابهة ولهذا يجعل كل فريق المشكل

من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلا ثم منهم من يقول لم يعلم معانيها ايضا ومنهم من يقول علمها ولم يبينها بل احال في بيانها على الأدلة العقلية وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص فهم مشتركون في ان الرسول على ما يوافق معقولناوان الانبياء واتباعهم لا يعرفون العقليات ولا يفهمون السمعيات و كل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل نسأل الله السلامة والعافية من هذه الاقوال الواهية المفضية بقائلها الى الهاوية سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمدلله رب العالمين ٠ تم

فهرست

شرح الطحاوية في العقيدة السلفية

صحيفة

صحيفة

صحيفة

